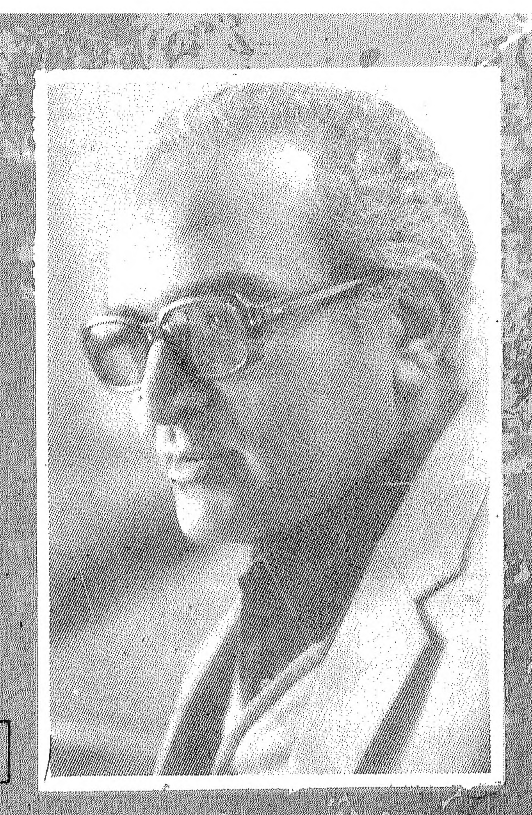
مجيد طوبيا - الأعمال الكاملة



١

الوليف
الأيام التالية
خمس جرائد لم تقرأ
فوستوك يصل إلى القمر



الأعمال الكاملة

1

مجيد طوبيا

▪ الوليف
▪ الأيام التالية
▪ خمس جرائد لم تُقرأ
▪ فوستوك يصل إلى القمر

قصص قصيرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢



الـوليفــــ

الوليـف

● العضـــلات :

قرب مصنع السكر وعلى شاطىء الترعة والشمس تميل الى المغيب جلس الصبيـة يتسـامرون ، ليس بينهم غير بنت واحدة وهى نرجس ، تنصت ولا تجرؤ على المشاركة فى الكلام ، اذ كان الحديث يدور حول عضـلات الرياضيين التى تبرز لهم من المران فى الذراعين والساقين وفى جانبى الصدر .

ضحك الولد ذو السنة المكسورة مشمرا عن كمه مثنيـا ذراعه اليمنى زاعما ان فيها عضـلات قوية ، وفعل مثله الجالس الى يساره ثم ثلاثة آخرون وكذلك أقصرهم ، فتعالت الضحكات الساخرة المنكرة .. وبعد ان سكتوا قال بدر ـ أطولهم ـ وهو يحملق فى عيونهم ان له عضـلات كبيرة فى صدره وساعديه ، فسكتوا على مضض ولم يجرؤ أحدهم على الإعتراض ، عدا منبدور الذى تحسس موضـع هذه العضلات وقبل أن يعلن تكذيبـه لوجودها كانت نرجس قد شمرت عن كمها لتريهم ما لديها ، فضحكوا منها لأن البنات لا تنبت لهن عضلات .

لم يعجب الحـال مندورا ، نهض وخلع جلبابه وقفز الى الترعة سابحا الى الضفة الأخرى ، وتبعه اثنان آخران ، ثم نرجس التى لحقت بهم فرأى مندور فى صدرها بروزين خفيفين ظن انهما عضـلات ، وغاظه الا يملك مثلهما ، فوجد كفه فجأة تجذب شعرها بسرعة وفى عنف صامت ، فلما تعثرت تركهـا تقع وخرج يرتدى جلبابه وانصرف والبنت تبكى وهى لا تفهم لمـاذا فعل بها ذلك !

● الكبـاش :

مضى عابرا شريط القطـار مخترقا أرض الكلأ قرب أبراج الكهرباء الشاهقة . عند اصنام الفراعنة رأى ماعز الفجر وكباشهم فظل يلاعبها ويحـاورها حتى شبع لهوا ، فعاد الى داره مع أول الليل متوقعا لوم أمه لاتساخ ملابسه .

وقبل ان ينام تأمل السماء من نافذة الغرفة ، اختار أنصع النجوم وقال هذه نجمتى .. وفى اليوم التـالى كان قد نسى ما فعله مع نرجس ، لكنهـا لم تكن قد نسيت اذ جفلت مبتعدة عنه مقتربة من بدر ، ولم يعجبه هـذا ، وفكر فى السياحة لكنه سمع قطار القصب الطويل يقترب بطيئا كعادته ، فجرى نحوه وما أن بدات عرباته فى المرور امامه حتى تسلق الرابعة وصعد فوق حمولتها ، رآه بدر فلحق به وظلا يتسابقان فوق القصب فى عكس سير القطـار قافزين من عربة الى أخرى حتى وصلا الى الأخيرة فسحب كل منهما عودا ووثبا على الأرض .

كسر مندور عوده نصفين وتقدم من نرجس يريد أن يهديها النصف الأسفل الأحلى مذاقا ، لكنهـا تراجعت خائفة وقد رأت

نصف العود فى يده كالعصا ، واتجهت الى بدر الذى قدم لها نصف عوده فأخذته .. نهرها مندور مغتاظا بحجة تمحكها فى الأولاد وامرها بأن تنصرف لتلعب مع البنات أمثالها ، لكن بدر جذبها من يدهـا فجلست معه وراحا يمصـان القصـب .. واعطاهما مندور ظهره وجلس يمص عوده والضفادع تنق من حولهم ، وبعد ان انتهى غسل كفيه فى مياه الترعة ومضى عائدا ، وفى طريقه تجـاهل كباش الفجر وراح الى منزله راسـا فلم تتسخ ملابسه ولم تؤنبه امه .. ثم استلقى على سريره يتأمل نجمته الناصعة ، وبعد ان نام جاءت أمه واغلقت النافذة خوفا عليه من برد الليل .

● الثعبـان :

فى الصباح طلبت منه والدته ان يطعم الطيور فوق سطح الدار ، صعد اليها والقى فولا وذرة للدجـاج ، وقمحا مدشوشا للكتاكيت وكان يحب أن يطعمها من كفه ، وكان يعرف عددها فاكتشف نقص احداها ، بحث عنه فى داخل الأقفاص وفى اركان السطح ولم يجده ظن أن الحداة قد خطفته لكنه سمع صوصوة خافتة عند السور القبلى ، ووجد الكتكوت هنـاك ملتصقا بطوبة يجاهد فى الابتعاد دون جدوى ! .. اقترب منه فاكتشف ان جناحه الأيسر محشور فى أحد الشقوق ، مد يده يجذبه وأدهشه أن يجد مقاومة لجذبه ، شـدد الجذب فانسحب الكتكوت معه مسافة فاذا به يفاجأ بثعبان ممسكا بالجناح وكان يحـاول جر الكتكوت الى جحره ! .

بسرعة التقط مندور قطعـة خشب هبط بها فوق راس الثعبان ــ وكان قد راى رجلا يفعل مثل هـذا مع ثعبان آخر ــ

وظل يضغط ويشدد الضغط حتى كف الثعبان عن الحركة .. وعندئذ فحص كتكوته فوجده قد مات ، وأحزنه موته .. لكنه رفع الثعبان متدليا بنصف جسده فوق الخشبة وهبط به الى امه !

صعقت المراة وأخذت تتحسس جسده ملهوفة ، وهى تساله ان كان الثعبان قد لدغه فى قدمه أو فى اى مكان آخر ونفى ذلك فى هدوء الواثق ، فقبلته فى كل وجهه والتقطت الثعبان والقت به من النافذة الى الحارة .. تساءلت الجارات فتفاخرت امامهن بأن مندور الشجاع قد قتل الثعبان دون خوف ونقلت الجارات القريبات الحكاية الى الجارات البعيدات .. ومن هذا الاهتمام ادرك الصبى أنه قد أتى بعمل مدهش ، فانتمش سعيدا مزهوا ، وهبط الى الحارة مختالا ليجد الجارة بهانة تخطو فوق ثعبانه رائحة آتية عدة مرات ! .. تعجب ونظر الى أمه متسائلا فلم يجدها بالنافذة ، صعد اليها ووجدها بالمطبخ وسألها عن سلوك الجارة بهانة ، قالت :

ـ لأن المسكينة عاقر .

نظر محتارا .. قالت :

ـ العاقر هى المراة التى لا تلد .

ـ وهل خطوها هذا يجعلها تلد ؟ !

ـ هكذا قال الاسلاف .

ولم يكن يعرف ان لثعبانه كل هذه القوة ، واراد الانصراف لكن الأم احتجزته حتى اشعلت القوالح واطلقت البخور ، وطلبت منه ان يخطو من فوقه سبع مرات ، هتف معترضا :

ـ لكنى لا اريد أن الد .

ضحكت :

ـ الثعبان ، والفرعون ايضـا لجلب الحبل ، اما هـذه البخور فهى ترد الحسد .

● الشـــجاع :

طاوعها على مخـض كى ينطلق الى اصحابـه ، شاعرا بقوة غير عادية وباقدام لا حد له وبانه قادر على طرح أقوى الصبية أرضا .. وعند مصنع السـكر لم بجدهم وأدرك انه وصـل مبكرا ، فأخذ يتأمل أبراج الكهرباء الشاهقة واللمبات الحمراء المضاءةليلا ونهارا فوق قممها ، وواعد نفسه بأن يطلب من أبيـه لمبة مثلها يركبها فوق سريره .

ثم تذكر ثعبانه فركض عائدا الى الحـارة باحثا عنه وكان يريد ان يريه لأقرانه ، لكنه لم يجده وعلم أن سيد الاسكافى قد سلخه واخذ جلده والقى بالباقى للقطط .. وفوق باب الاسكافى وجد الجلد مشدودا بأربعة مسامير ، فشعر بالأسى وسار مطرقا لكنه تنبه الى ان الجلد هو خير دليل على عمله الخـارق ، فشد من طوله واخذ شهيقا عميقا ورفع رأسـه وسار يدق الأرض بقوة ، الى ان صادفه ثلاثة من اصحابه ثم لحق بهم عند أطراف البلدة اثنـان آخران ، وبدأ الشـمل يكتمل ، ووجدهم جميعا يعرفون .

عندما عبروا من جوار ماعز الفجر هجم فجـاة على اكبر الكباش والقاه ارضا ، غير ان الكبش نهض بسرعة وكاد ان ينطحه

لولا إنه تفاداه . وعند مصنع السكر انضم اليهم بدر ثم نرجس التى رمقت مندور طويلا ، وطلبوا منه ان يحكى الواقعة بالتفصيل فحكاها لهم وهم مشدوهين مبهورين بفعلته ، وسألوه عن طول الثعبان فبالغ فيه .. وسأله الولد ذو السنة المكسورة من كثرة اكل الجلاب :

ـ الم تخف ؟ !

قال :

ـ لم أخف .

شعر بدر بالغيرة وقال :

ـ انا ايضا قتلت ثعبانا .

لكن احدا لم يعره التفاتا ، وتزحزحت نرجس من جواره مقتربة من مندور ، وعندما شعر بها تكاد تلتصق به نظر اليها فابتسمت له لكنه لم يبتسم وان كان قد شعر بالراحة ..

● الوليف :

هبطت الشمس كثيرا وعلا نقيق الضفادع ، وقال صبى : ان جلد الثعبان يباع غاليا فتضايق مندور لفقدانه .. ولما دخل الليل انتقلوا الى الضوء الساقط من سور المصنع .

وقال صبى :

ـ سمعت عمى ذات مرة يقول لأبى انلكل ثعبان وليفا .

ـ وليف ؟ !

ـ وليف ينتقم له اذا قتله انسان .

نظروا لمندور ، ارتبك لكنه سأل :

ـ وكيف يعرف الوليف هذا الانسان ما دام لم يره ؟ !

ـ قال عمى ان الوليف يتعرف على القبائل ولو بعد سنوات . وحكى عن وليف ظل يتشمم ثلاثة أشخاص نائمين فى غرفة واحدة دون أن يمسهم بأذى ، حتى وصل الى الرابع وكان هو القاتل فلدغه وهرب .

برقت عيون الصبية واقشعرت ابدانهم ، نظرت نرجس الى مندور الذى ظل صامتا .. وفجأة تلفت أحدهم محملقا الى بقعة مظلمة ، وارتفع من بعيد عواء طويل .. ثم روى بدن ما سمعه من أن فم الثعبان له نابان مثقوبان كأبرة الحقنة يدخل السم منهما الى جسد الملدوغ فيموت .. ورغم ضجيج المصنع الا انهم سمعوا حفيفا خافتا صادرا من الحشائش القريبة ، فحملقوا جميعهم وكتموا انفاسهم ، وبعد برهة رأوا ضفدعا يقفز بين العشب فاسترخوا لكن التوتر ظل بسيطر .. وتساءل مندور فى داخله ان كان بامكان وليف ثعبانه أن يكتشف مكانه وهو بعيد عن الدار ؟ !

حدث حفيف آخر فوجموا متوجسين ثم قفز صبى من مكانه بغتة ، وهبوا جميعهم ايضا والتصقت البنت بمندور وكأنه هو الكفيل بحمايتها من الثعابين ..وانفضت الجلسة وهرولوا عائدين الى ديارهم بخطوات خائفة ليتلكأ مندور عنهم فوق الطريق الأسفلتى .. فلما وصل الى داره وجد نرجس تحوم ، رأته فجاءت وتمسحت فيه بابتسامة ودودة ، لكنه لم يكن رائقا فتجاهلها صاعدا ، ليستقبله والده مهللا فى أعزاز :

ـ هذا هو ولدى الهمام مندور .

● الانكماش :

الا ان الصبى سأله :

ــ احقا ان لكل ثعبان وليفا يأخذ بثأره ؟

بهت الأب واخذ يطمئن ولده منكرا وجود الوليف ، لكن الأم هبت مرتجفة معيدة اشعال القوالح ثم طافت ارجاء الدار ببخور الشيخ النفاذة .. ومع العشاء سألها مندور عن السر فى هذا البخور ، قالت :

ــ لأن رائحة الشيح تطرد الثعابين .

وعلى الفور عاد الخوف يملأ قلبه ، اذن فحكاية الوليف حقيقية !!

ولم يتناول عشاءه جيدا .. وعندما استلقى على السرير لم ينظر الى نجمة السماء وكانت اقل نصوعا بسبب اتساع القمر ، بل ظل محملقا الى حواف النافذة قلقا من أن يأتيه الوليف منها ، فاتحا عينيه على آخرهما مقاوما النوم .. لكن النعاس غلبه وغفلت عيناه وقتا ثم سرعان ما هب مذعورا صارخا وقد شعر بشىء أملس يلمسه ، وثب الى الأرض وظل يتقافز فى مكانه مرعوبا .

اتته امه ملهوفة واضاءت النور واخذته فى حضنها فشعرت بجميع جسده يرتعش ، وجاءه والده وظل يقنعه بان ما شعر به ليس الا توهما ، وكى يطمئنه فحص امامه كل مكان فى الغرفة ،

لكن الخوف أزاغ عينى الصبى ، ولم تجد معه أوصاف الشجاعة والجراة ولا اغلاق شيش النافذة وزجاجها .. فزاد حزن الأب وركبه الكمد ، وزاد جزع الأم وقررت ان تبيته الى جوارها ، فنام الأب فى سرير الابن ، وذهب مندور الى سرير أمه حيث تكور منكمشا فى حضنها ، وهى تربت عليه فى حنــان شاعرة برجفات جسده المنكمش .

اغماض العين

١ ـ الغربـــال

ولمـا كان اليوم السابع ـ وفيه تناثرت بللورات الملح فى الهواء ، تحرق عين الحسود ـ جاءوا بالغربال فوق الأرض ، وفوق الغربال فرشـوا حبات الفول لتسد الثقوب بين الأوتار ، ومن فوق الفول نثروا حبات الأذرة الصفراء ، ومن فوقها القمح والأرز والشعير ، وقرب الحافة الدائرية بعض الحلوى فى أغلفة براقة من لون الذهب ولون الفضة .

خرجت أمى من غرفتهـا ، بالوليد فى حضنها ، حافيـة القدمين ، ناعمة الخطوة ، فى رائحة عطرية وثوب جميل ، ينساب شعرها فى خصـلات سوداء تاهت فيها الشعرات البيض القليلة. اهتزت كل الألسـنة فى الأفواه ، بالدعاء ، بالزغاريد ، نســاء وبنات وبعض الرجال .. ضحك أبى . احمر وجه أمى فتحول لونه القمحى الى لون نحـاسى ، ضـوى تحت نور الصـباح فاختفت كل التجاعيد : وصار وجهها اخاذا فى جمـال نادر ، هادىء قرير كوجه مريم فى صور المسيحيين .

بين هالة الحبوب والحلوى تركت أمى أخى الوليد فوق الغربـال ، لم تتركه بنظراتهـا .. واذ ذاك دقت امرأة بالهون النحاسى ، ونقرت فتاة بغطاءى وعاءين ، وارتفعت الزغاريد من كل الأفواه ، وصار الصوت صخبا وضجيجا .

بعد ان تنبه الوليد الى كل ذلك ، ونظر الى الهون والى النساء والبنات الأبكار ، وضـع اصبعه فى فمه وغرغر برهـة ، وصار يركل الهواء بقدميه . ثم فجـأة ابتسم فابتسمت أمى ؛ وفجأة قطع ابتسـامته فوجمت امى وقطف لونها وحملقت حولها ، وعلى الفور ركبها ذعر عظيم : كانت عيون النسـوة تتسـع مجذوبة فى الحاح الى الجسد الصغير ، حيث الوليد ملفوفا فى بياض من حرير ، بطن قدميه فى رقة خديه ، بيضـاوى الوجه ، مسحوب الذقن ، دقيق الفم صغير الأنف ، لكن عينيه واسعتان بشكل غير مألوف ، بأهداب طويلة سـوداء وجفون تنسـدل فى بطء ثم تتهادى منفرجة كاشفة عن دائرتين فى لون مبهم !!

نقلت المدرسة القصيرة مكانها عدة مرات ثم هتفت :

ـ عجيبة عيونه عجيبة !! من هنـاك رايتها عسلية ومن هنا اراها سوداء !

قالت الجارة ، وكانت امى تنفر منها :

ـ ومن هنا بنية !!

قالت الجدة ولم يكن طقم الأسنان فى فمها :

ـ عيونه فيها من كل ذلك ، عجيب هذا الولد !!

فقالت الجارة التى تنفر منها أمى :

ــ ولدت من الأطفال سبعة ، وأبدا لم أر مثل ذلك ، لا فيمن ولدت ولا فيمن رأيت !!

تقلقلت عينا أمي واسود وجهها . أخرجت نظارتها من جيبها وتبتتها ، دتقت النظر الى الوليد ثم الى عيون النسوة ، وتوقفت على عينى الجارة وصرخت :

ــ الملح . انثروا الملح .

اعترضت الجدة :

ــ ليس الآن .

ثم حملت الوليد فوق غربال الحبوب ، من فوق كفيها ، ممدودة اليدين ، تسند حافته بذقنها . انحسرت الطرحة البرتقالية فبان شعرها الأبيض القصير . وكان وجهها خيوطا غائرة من حول الفم ومن حول العينين وفى الخدين والجبهة ، وشعيرات رهيفة نابتة تحت الأنف وفوق الذقن .

لكن أمي رأت عيون الجميع لا تغادر الطفل . ارتعش رأسها فبانت كل تجاعيدها ورأيت نور الصباح يلمع فوق شعراتها البيض . عادت تصرخ :

ــ قلت الملح . أين الملح ؟ احرقوا به عين الحسود .

تناثرت البللورات فى الهواء ، برقت تحت ضوء الشمس ، تساقطت فوق الرءوس وبين الأرجل ، اصطكت مع زجاج النافذة المفتوحة ، تطاير بعضه خارجا وسقط الى مياه النيل أسفل دارنا .

وبعد الملح أشعلوا الشموع الطويلة ، وطاف بها طابور الأطفال المنشدين من خلف الجدة ، هبطوا الى الطابق المعتم فتلألأ ، صعدوا الى سطح الدار فعاكس الهواء لهبها ، وبهت نورها فى نور الشمس .. وذعر البط والدجاج ، ومدت الأوزة البيضاء عنقها وكاكت .

ساروا فى محاذاة السور الشرقى ، فجاء تل المقطم من خلفهم ممتدا على الضفة الأخرى ، فى بطن صخوره توجد قبور موتانا .. وتساقط الملح مرة ثانية الى النهر .

استداروا الى السور البحرى فأطلوا على حقل القصب الكبير الذى لم يعد به قصب ، والذى يتحول الى بيوت زاهية الألوان يسكنها الأثرياء وكبار الموظفين .

وبعد السور البحرى جاء السور الغربى ، ومن أسفله ديار الأهالى باهتة كالحة ، والشوارع ضيقة مكتظة تسير السيارات فيها بسرعة المشاة ، وفى أقصى كل ذلك الشريط الحديدى يحصر المدينة بينه وبين النيل .

ثم اتجهوا الى السور القبلى والبيوت تمتد فى القدم ، الحى العتيق المتلاصق المتداخل ، وديار الأجداد القريبين تتساند بيوتهم ويتساقط الصف منها بتساقط احداها ، ومن بعدها أرض الكلأ وخيام الغجر واغنامهم ، ثم أصنام الفراعنة البعيدين، يأكل الماعز الكلأ ثم يلهو قافزا فوق صخور المعبد .

طافوا السطح سبع مرات ، فى انشاد مستمر ، وملأت حبات الملح أرض السطح فبرقت وتلألأت ، فى البداية جرت

الطيور والتقطت بعضهـا ثم كفت عن ذلك ، وصـاحت الأوزة البيضاء وصاح البط عند الأقدام بصوت مزعج ، واختلط كل ذلك مع انشاد الأطفال . وفى النهاية اطفأ الهواء كل الشموع .

وكان الوليد قد نام فتلقفته امى وخبأته فى صـدرها ، ثم اختبأت به فى غرفتها ..ورعت الجد الحـاضرين وضايفتهم ، واكلوا جميعا ارزا باللبن .

ثم حـدث بعد انصرافهم ان خرجت أمى من الغرفـة ، واصرت على تبخير الدار .. كان صوتها جافا مرتعشا ، ومازال شحوبها يزداد ووجهها يمتقع . قالت لأبى :

ـ هل لاحظت نظرات تلك الجارة اليه ؟؟

ضحك وقـال ان هذا الكلام لا يليق بناظرة روضـة الأطفال ! .. ومن فورها اعطته ظهرها متقدمة نحو باب الغرفة ، وقالت :

ـ دعـك من مهنتى . هل نسيت الشـوطة التى جاءت للأرانب علم اول ؟؟

نظرت الجارة الى الأرانب العديدة فوق السطح ، وهتفت : يا لكثرتهم !! .. وبعد ذلك بأسبوع ماتت الأرنبة الجدة ، وفى الصباح التالى ماتت الأرنبة الســوداء والأرنب الأبيض المبقع بالأسود ، ثم مرضت الأرنبة ذات اللون الأجرب والتى كنت احبها واطعمها كثيرا من يدى ، وماتت فى المساء فالقيتها الى النيـل (ووبخنى أبى من أجل ذلك) .. ولم تمض الا أيام حتى لم يكن

بالسطح عدا أربعة لحقتهم أمى بالسكين ، ورفضت أنا أن أذوق لحمها .. ومن يومها صارت أمى وجدتى تنفران من الجارة ، وتتشاءمان من زيارتها لنا .

قالت أمى :

ـ هل نسيت هذه الشوطة ؟ !

ولما سخر أبى من كل ذلك نهرته الجدة فى حدة ، وصارت تضم الشال البرتقالى من حول رأسها .

۲ ـ المناجاة

فى الفجر المبكر تصعد الشمس واهنة من خلف الجبل الصخرى ، وما ان تتركه بغدة أمتار حتى تكون قد حمت واشتدت وزاد سطوعها ، وفور غروبها يدخل اليوم فى لحظات مبهمة من تداخل الليل على النهار ؟ ثم يقترب الجبل من السواد، حتى يسيح تماما فى كل ما حوله ، ويأخذ لون السماء ولون الأرض ولون النهر ، الى أن يبزغ القمر متسللا من ورائه فيحدد منحنيات قمته .

طلع القمر كامل الاستدارة ، بدرا شديد النصوع ، فغادرت جدتى الشرفة ، مؤمنة بأن اطالة القعود فى طلعته تصيب الانسان بلطشة فى العقل .

انارت اشعة البدر قمم المويجات بلألأة فضية ، وصبغت جلباب والدى الأبيض بزرقة باهتة ، واذابت التجاعيد فى وجه أمى فعاد لون النعومة الى بشرتها ، وصار شعرها رماديا غامقا ، ولم تكن تشعر به أو بنا ، مشغولة بوليدها النائم فى

حجرها ، يفرغر فى صوت عذب ، فترعش له ساقيها من تحتـه فى هزات رتيبة .

وكان والدى هائما ووجهه شرقا الى جبل الضفة البعيدة . ركن سيجارته فوق سور الشرفة ، فأزاحها الهواء الى النيل (وسمعتها تنطفىء) . كان الوقت فيضانا وفيه تعلو مياه النيل فتغرق جزر التحاريق من وسطه ، وتقرب مويجاته من رصيف الشارع ، وتظل تضرب جدار دارنا فى حركة دءوب .

كنت مستلقيا فوق شلتة جدتى أرقب استدارة القمر وتناثر النجوم ـ يقظان نعسان ـ والسكون والصمت فى كل مكان الا من نفيق الضفادع الرتيب ووشيش المريجات المتصل الخافت ، لذلك كنت اسمع مناجاة أمى للرضيع ، فى همسات غير مألوفة ، تلاغيه :

ـ أيها الابن الحبيب ، حبك فى قلبى حار وعظيم ، انت شمس نهارى ودفئها ، بدر ليلى ونجومها ، انت مولدى الجديد ، خلصت حياتى من الظمأ ، انت نيلى ، تروينى .

وكانت حافة ثوبها تتحرك قريبة من الأرض صعودا وهبوطا فى خفة مع هزة سافيها ، وكانت تهمس فى ترتيل حنون :

ـ أيها الابن العزيز الذى لا شبيه له ، من اجلك تزقزق عصافير الفجر ، وتشدو البلابل عند العصر ، وتصمت الدنيا بعد الغروب ، أنت جميل بديع ، أدفأت قلبى ، فصار لا ينبض الا من جمالك .

وكان نصف جذعها الأعلى حانيا فوقه ، وكان البدر يحيط راسها بهالة قمرية :

ـ أيها الابن الرضيع الذى به سررت ، جئتنى والمشيب يدخل شعرى ، وكنت اغلق رحمى وكنت اجفف ثديى ـ أيهــا الابن الذى لا مثيل لعينيه ـ وكنت نسيت الحمل والارضــاع .. أنت فريد حتى فى موعد قدومك .

٣ ـ البخــور

ليلة السبوع كان القمر فى نصف استدارته ، وفى صباحه التالى علقت امى أعلى باب الدار فردة حـذاء طفل قديمـة ؛ قالت :

ـ كيما تخطو الينا أقدام السعد .

وهز ابى كتفيه .. وجاءتها احدى الجارات للزيارة وحيت المولود بزغرودة طويلة . ابتسمت أمى فى غير ارتياح . وتحت الحاح الجارة احضرت لها الوليد لتقبله ، ولمـا اطالت النظر اليه اختطفته وأدخلته الغرفـة .. ثم قامت ـ عقب انصراف المراة ـ باطلاق البخور وطافت بطبق الجمر فى غرفة الضيافة وفى غرفة النوم ، ثم أدارته من فوق الوليد سبع دورات .

وقبل الليلة التى كان القمر يسـتدير فيهـا علقت بعض سنابل القمح اعلى الباب وقالت :

ـ وهذا يجلب الرزق والخير .

وجاءها ثلاث مدرسـات للتهنئـة . وكلهن يحمـلن بعض الهدايا : مع واحدة ملابس اطفال ، قبلته وقالت :

ـ جماله فلته !

ومع الثانية علبة حلوى مزركشـــة الألوان . حملقت مبهورة وهمســـت :

ـ هاتان عينا ساحر !!

والثالثة وضعت قرب يده لعبة تصـــدر أصـــواتا عاليـــة وقالت :

ـ سوف يكون معبودا من البنات ؛ مرهوبا من الفتيان .

فشكرتهن أمي على مضض ، وتحدثن عن مستوى التعليم الهابط وعن سفن الفضـــاء وغلاء المعيشة وامور عديدة .

وتكررت الزيارات وتكرر تصاعد البخور ، ولمـــا قال أبى انها ستتسبب فى ارتفاع أسعاره ، تجاهلت المزحة والمحت الى ازدياد عدد الزائرات منذ يوم السبوع ، قالت بأن هـــذا لم يكن يحدث من قبل . دهش والدى وقال :

ـ لأنك ببساطة حديثـــة الولادة .. ومن قبل لم تكونى كذلك .

لم نقتنع . قال :

ـ والســبب أيضا أن معظمهن مدرســـات تحت نظارتك .

قالت :

ـ انما السبب هو جمال المولود المدهش .

أصرت :

ـ سوف يحسدنه .

ضحك :

ـ يا لضيعة التعليم !!

ثم جاءت الليلة التى انتصف فيها القمر ، وفيها زارتنـا الجارة التى تكرههـا جدتى ولا تحبهـا أمى ، وجلست طويلا وشربت الشاى ،ثم طلبت احضـار الوليد لالقاء نظرة اليه ، لكن أمى قالت فى هدوء انهفى بيت جده (وكان من حسن حظها انه لم يبك فى مهده طوال مدة الزيارة) .. ورغم ان الجـارة لم تره الا ان البخور ملأ جو الدار .

وجاء ضيف مع زوجته ـ وكان ذلك قبل أن يصير القمر هلالا ـ ورحب بهما أبى ترحيبا شديدا ، بالمثل فعلت أمى .. وكانت جلسة ذكريات بينهم ، سخروا بعدها من كل الأجيـال الجديدة ، ثم قالت المراة واظن أن اسمها هانم :

ـ سمعنا عن طفل تحكى عنه البلدة ، فجئنا نبارك وجئنا نمتع الأنظار .

فاهتز جذع أمى يمينا ويسارا تندب وتنوح فى همهمات غريبـة .

وجمت مع الجميع ، وبتر أبى ضحكته . قالت :

ـ مرض المسكين ، أصابته عين .

التفت أبى فى حدة . قالت :

ـ منذ الصباح لم يدخل فمه شيئا ، رافضا للأكل رافضا للرضاعة لا يمص الا فى أصبعه ، أصابته عين .

ثم اخذت تصف الأعراض التى ظهرت عليـه ، وذكرت تفاصيل دقيقة وغريبة ، وكانت تتـكلم فى حرارة وثقة (لكنهـا حرصت على الا تدير نظراتها نحوى او نحو أبى) .

دعت الضيفة بالشفاء والصحة ، ورمت بالنار والدمار على كل حسود غدار ، وقبل أن تمضى وصفت بعض الطقوس ، قالت انها لمنع الحسد ؛ وبالفعل نفذتها امى رغم أن الطفل كان يكركر فى صحة جيدة .

٤ ـ الوحـــم

كلما تآكل القمر زاد تلألؤ النجوم من فوق سـماء تزداد قتامة .

ومن برهة لأخرى تتجمع المياه المتسربة من مسام الفخار اسفل قعر القدرة ، وتتكور ساقطة فى قطرة صغيرة .

كنت مستلقيا فوق أرض الشرفة وقرب اذنى حفيف ثوب امى يهتز فى عصبـية ، وكان والدى حانقـا من وسوسـتها ، فجلست صامتة لا تحادثه ، ولم تلاغ الطفل ، وانما داعبت شعر راسه الخفيف وهى تهدهده بهمهمـات منغمـة ليس بهـا كلام أو مناجاة ، لذلك بكى الطفل فخايلته بالهزات العصبية ، سكت بغتة ثم عاد ببكى حتى نام ونهضت به الى فراشها .

وفى عودتها نهضت أنا الى سريرى ، وكل ظهرى تنميل وفى راسى صداع يعاند ثقل النعاس .

فى سكون الليل لم أسمع سوى الضفادع والصادين ، ثم سمعت امى تجيب على عتاب أبى بكلمـات قليلة جافة ، جعلت صوته يعلو فى لوم عنيف فلم ترد عليـه . صمت وربما يكون قد اشعل سيجارة .

ابتعدت همسات الصيادين وبقى نقيق الضفادع ووشيش المويجات الواهنة ، وسمعت صوت أبى رتيبا لكنه متهدج :

ــ ذلك لأنك لم تلحظ ما حدث !

اهتز مقعده . قال صوتها :

ــ فى الشهر الماضى زارتنى فاطمة ، وبعدها سعدية وهى التى لم تزرنى منذ سنوات !! ثم جاءتنى زوجة حسن دكرورى ، وفى الأسبوع الأخير زارتنى امرأة ابن خالتك وتعرف أنها تكرهنى، ثم سناء المدرسة وهى الآن فى اجازة وضع ، وبالأمس ابنة المقدس حنا ، وصباح هذا اليوم هانم مع زوجها !!

ولما لم يرد أبى قالت :

ــ كى تعذرنى !!

فأبدى دهشته فأكدت :

ــ كل واحدة منهن تشتهى ولدى .

جلست أنصت . كررت أمى :

ــ تشتهى ولدى وتريد مثله .

لابد أن وجه أبى احمر . قالت :

ــ الم تر أن كلهن حوامل ؟؟

طار النوم من عينى تماما : كلهن ؟ . . سأل أبى :

ــ كلهن ؟ !

ــ وفى الشهور الأخيرة من الحمل .

بعد الدهشة سأل أبى فى برود :

ـ وما الضرر من ذلك ؟

ـ لأن الحامل ان اشتهت شيئا ارتسم شكله على بدن مولودها ، وكل واحدة منهن اشتهت ولدى الذى لا مثيل له ، توحمت عليه كى يأتى طفلها فى مثل حسنه .

اهتز مقعد والدى . سمعته يتجه الى القدرة ويملأ الكوب ويعيده بعد برهة فوق الغطاء ، ثم اهتز مقعده ثانية .

وبعد ذلك عادت الرتابة الى الأصوات فى المويجات ونقيق الضفادع ؛ وفى غناء خافت لصوت غريب ناء ، ربما حملته المياه من الضفة البعيدة حيث قبور موتانا .

٥ ـ الحداة

فى بيت مثل بيتنا يجد الانسان نفسه متيقظا عند الفجر .

سمعت صوت الحداة قريبا جدا منى . فادركت انها فى الشرفة . . مشيت حافيا ونظرت من وراء الشيش ، وكانت واقفة فوق السور والهواء يداعب ريشها ، وكنت أحب أن أتأمل وجهها وأجده اكثر جمالا من وجه البطة او الدجاجة أو الديك الرومى ، واستغرب نفور الناس منها ، والدتى وجدتى يكرهانها بسبب انها خطافة . وما زالت أمى كلما رأتها أو سمعتها تهتف فى غل :

ـ الخطافة .

ذات يوم ذبحت جدتى بطتنا ذات الريش الأسود ونتفت ريشها ، وكان الوقت غروبا ، ثم ملحتها أمى تمهيدا لطهيها ظهر

اليوم التـالى ، وخشيت عليهـا من حرارة الصعيد فوضعتها فوق طبق فى الشرفة الشرقية حيث الهواء طوال الليل ، وغطتها بالمصفاة الكبيرة .. لكن عند الفجر جاءت الحداة التى تنام فى الشجرة العالية وهبطت الى الشرفة . (ولا أعلم كيف رأت البطة تحت المصفاة !! ولا كيف تمكنت من ازاحتها جانبا) لتبدأ فى تمزيق الذبيحة والتهامها اربا . استيقظت أنا على قلقلة الطبق فوق الأرض ، تسللت ونظرت من خلف الشيش ، كانت الحـداة تقف على مخلب وتضغط بالآخر على البطة النيئة نافشة جناحيها نصف انتفاشـة ، ترمق ما حولها فى حذر ، وبهرتنى مهارتهـا وقوتها ، فجمدت مكانى شغوفا بما أرى ، حتى تنبهت الى أمى تقترب شاهقة مستنكرة فرجتى ، وتفتح الباب فى صيحة مخيفة، ازعجت الحداة فخطفت البطـة وطارت هاربة ، لكن الغنيمة أفلتت من بين مخالبها ، وسقطت الى النيل وسرعان ما غاصت محدثة دوائر كثيرة اتسعت حتى ضاعت فى رتابة المسـار . اغتاظت أمى وظلت تشتم وتسب كل حدآت الأرض وغربانها ؛ ومكثت الحداة حتى الظهر تحوم فوق المياه صائحة نائحـة ، لذلك الحت أمى على أبى أن يستدعى راميا يخلصنا منهـا بطلق نارى ، فماطل أسبوعا كاملا وفى اليوم الثامن اشترى ثلاجة كهربية لتحفظ فيها ذبائحها ، وظل هو يفضـل الشرب من مياه القدرة التى فى الشرفة ، ورغم ذلك ظلت كلما سمعت الحداة أو رأتها ، تبرطم ساخطة :

ــ الخطافة .

استيقظت الدار على صياح الوليد باكيا . يريد الطعـام أو تغيير الملابس . وهرولت الأقدام فى خطوات مسرعة أو واهنة ، ثم سمعت السيفون أكثر من مرة ، وفكرت فى حـديث الليـلة المـاضية ، فاكتشفت أن أمي تناقض نفسها : انها تخشى على

الطفل من الحسد بسبب تفرده فى الجمال ، والناس يحسدون الانسان النادر ولا يلقون بالا للمتكرر ، فيكون من المفيد اذن أن تدع الخوامل تحملقن اليه وتتوحمن عليه لتلدن أشباهه فلا يعود فريدا ، ويصبح شائع العينين وعندئذ لن يحسده أى انسان .

على مائدة الافطار قلت لها هذه الفكرة ، فلم ترد على ونهضت تلم المائدة ساخرة منى ومن الكلية التى أدرس بها ، فضحك أبى كثيرا لكنه كتم ضحكته فجاة واكتأب .. وبعده بقليل – وكنت اقرأ فى جريدة الصباح – رمقتنى أمى بنظرة مكتومة الغضب ، ولاحظت الخطوط تزداد غورا فى بشرتها وتزداد عددا يوما بعد يوم ؛ قلت انها لو ظلت على هذه الوسوسة للحق وجهها بوجه الجدة الذى يشبه الغربال تجعدا .

فلما انصرفت الى مدرستها صار الطفل فى عهدة الجدة ، فرحت أتأمله مليا : الوجه شاحب ،لكنى ارتجفت من عينيه : اتساع مذهل وعمق مربك وسحر غير مألوف !

خرجت الى الشرفة منقبض القلب ، فى السماء كانت الحداة الخطافة تطير من عشها الى ارتفاع شاهق (مرة رأت فأرا فهبطت كالصاروخ ثم علت وكان بين مخالبها) .

تأملت مياه النيل تجرى : الجسر الحجرى يحده فى مسار موتى مدينتنا وتشييعهم الى الضفة الأخرى للنهر ، يدفنون لا يبعد عنه .. الا أننى رأيت وجه الطفل الشاحب يتموج فوق صفحته ، فعادت الرجفة الى قلبى ، وعادنى الوجوم .

أخذت أتأمل الصيادين يعدون الشباك ، ويخيطون تمزقاتها انتظارا لمقدم الظلام ، حيث يطمئن السمك لسكون الليل ويصعد

الى السطح ، فان اكل الطعم تعلق فى الشص ، وخرج يتلوى بعيدا عن المـاء حتى يختنق فى الهواء .

وفى السماء كانت الحـداة لا تحرك جناحيها ، سابحة بجناحين مفرودين وذيل مثنى الى اسفل ، وهى تهبط الى عشها فى اعلى شجرة الكافور المخضرة طوال العام ، الباسقة من فوق جذع سميك عتيد ، يربطون اليه المراكب ، ويونقون فيه قارب الموتى الكبير .

٦ ـ القــارب

على نوبتين يوميا يرحل هـذا القارب من مرساه حاملا موتى هدينتنـا ويشيعهم الى الضفـة الأخرى للنهر ، يدفنون موتاهم فى قمة التل ويرجعون بأسى الفراق ، الأحياء فى ضفـة الغرب والموتى فى ضفة الشرق ، مناقضـين دورة الشـمس ، مخالفين مسيرة المصريين القدماء .

واكثر من مرة يأخذنى هذا القارب الى أسفار من التأملات اقول لنفسى : مكتوب على كل المدينـة أن ترحل فيه ، وأقول أيضا : فوق قمـة التل تراب كان فى الأصل أحياء فى غرب النهر يزداد التراب ولا ينقرض الأحيـاء .. ومرة واحدة سـألت نفسى : كم من امرأة حسناء تحولت الى تراب ؟ .. وعصرنى الألم : لمـاذا لا يبقى الحسن وحده ؟

وبعد التفكير اجابنى ابى مترددا ، كنا فى جلسة المساء :

ـ ربما لأن الحسن لا يظهره الا القبح .

فنقلت عينى الى حجر أمى متفحصا وجه الوليد ، فهالتني شدة شحوبه .. قلت ان ذلك فعل نور القمر الهزيل ، لكنى فى الصباح تأكدت من ذلك ، وتيقنت من بياض وجه أمى مع تزايد التجاعيد من حول عينيها .

لذلك كنت فى غاية القلق عندما سافرت الى الجامعة بالمدينة ، ثم وترتنى خطابات أبى حتى ركبنى الخوف .

فى خطابه الأول قال ان الوساوس تملكت عقل أمى وقلبها ، فتحولت الى اعصاب مشدودة ، وأخذت تحرص على أن يبدو الطفل عليلا دائما فى اعين الناس !!

ثم قال — فى خطاب مبتسر ان الأمور تدهورت تماما ، وانها صارت تتحذر حتى من نظرته ، وانه يظن أن العلة أصابت الولد بالفعل .

مرت فترة طويلة انقطعت فيها خطاباته ، ولم يرد على رسائلى ، حتى جاءنى مكتوب صغير ، حدثنى فيه عن القطة التى خافت على أطفالها من الغرباء خوفا طاغيا ، فأكلتهم لتخبئهم فى جوفها .

وبعد ذلك حدث أن جاءتنى برقية قصيرة تستدعينى .

ووجدت أمى جالسة أمام الطفل المسجى ترمقه محملقة ، لا تبكى لا تتكلم ، ذاهلة عن الدنيا ، فقط تحملق الى عينيه المفتوحتين دون انغلاق .

وعندما دخلت المرأة العجوز الى المهد ومدت أصابعها لتسدل العينين ، ثارت أمى رافضة ، وهاجت وكادت تلقى بالعجوز أرضا .. فارتعش أبى فى وقفته ، واجهش صوته ينهرها :

ـ أنت السبب ، بحرصـك المجنون تسببت فى ذلك .

كأنها لا تسمعه . تهدج صوته :

ـ عاملتيه معاملة شاذة فقضيت عليه !

وظلت تحملق الى العينين المفتوحتين فى هدوء وسـكون

(نظرت انا اليهما فانتفضت نبضات قلبى ، مازال السحر فيهما .. فهمست لنفسى : انه لم يمت) .

سحبت ابى بعيدا ، فقاومنى وهو يصرخ :

ـ رعناء معتوهة ، ظلت تحجبه عن العيون حتى حجبته عن الحياة !! وكان اجمل من كل الحياة .

(وكان السحر ما زال فى العينين)

.. ثم حدث أن أمسكوا امى ودخلت العجوز وأسبلتهما ، وعلى الفور صار ميتا ، وعلى الفور وقفت امى مذهولة ، وصرخت صرخة واحدة ارتعشت لها قلوب الجميع ـ وتركها أبى ـ وظلت تبكى حتى لم يعد لديها بكاء ، وصار وجهها كوجه الجدة تجعدا .

وعندئذ صعب حالها على والدى ، فأخذ يحايلها ويطيب من خاطرها :

ـ نحن أتينا به وباستطاعتنا أن نأتى بغيره ..

قـال :

ـ جاءنا على كبر ، وكنا سنموت قبل أن نتم تنشئته .

قـال :

ـ وهل الأحياء سعداء ؟؟

٧ ـ الأميرة

.. لكنه بعد كل هذا الكلام المطيب انهار فجأة وبكى ـ وكنا فى قارب الموتى نسير شرقا ـ وأخذ يهذى :

ـ لا يعيش الجميل ، لا يعيش ، فان أصبح قبيحا عاش .

نظر للنعش الضئيل وكانت الحداة تحوم فوق المرفأ :

ـ لا توهب الحياة الا لناقص الجمال .

ملأت الدموع عينيه :

ـ يولد الجميل وفيه بذرة الدمامة ، فهو لم يعد كامل الحسن ، وهو يموت لنعيش دونه .

بللت الدموع جفنيه ، ربت الجار على كتفيه ، لم احتمل ذلك ، نظرت الى النهر اسفلنا ، فرايت ظلى وظلال الرجال تتموج من فوق المويجات .. وكان القارب يفرق هذه المويجات الى شطرين ، وجاءنى صوت أبى :

ـ القبح فى الأم والأب .. والقبح لا يلد الا القبح ، وأن انجبنا الحسن فكيف يعيش ؟ !

وبعدها ظل صامتا لا ينطق . وطغت زمجرة آلات القارب على صوت انفاسه المجهدة ، لكنها لم تقدر على حجب عويل أمى .

كانت أمى فى الشرفة الشرقية ، تنظر الينا تعول وتولول ـ ولم تكن جدتى بجوارها ـ والنسوة يجذبنها الى الداخل ، لكنها تقاوم ونصف جذعها مائل خارج السور .

- غامت الدنيا فى عينى ، لكنى رغم المسافة رأيت الدموع تنهال من عينيها فوق الخدين ساحبة معها قطرات العرق ، رأيتها تتساقط الى مياه النيل القاتمة ، تلمع فى الشمس وهى تتساقط الى النهر العريض .

فتذكرتها وهى امرأة جميلة ، ناضجة الحسن - وكنت طفلا تبهرنى كل الأشياء - لاحظت أن النهر عند الجفاف تظهر فى وسطه جزر صغيرة يزرعونها خيارا وبطيخا ؛ وكانوا يتركون البطيخ يكبر ويتضخم لتصل الواحدة منه الى حجم قدرة المياه - وكان هذا يعجبنى - وكانت فرق الكشافة تقيم معسكرات المبيت فى هذه الجزر ويجلسون فى دائرة من حول الفوانيس يتسامرون . ويظل الأمر كذلك شهورا قليلة ، بعدها تسود مياه النيل فيهجر المزارعون الجزر ويفيض النهر ويرتفع ويأتى الى جدر منزلنا يضربها ، ويقترب سطحه من شرفتنا .

سألت أمى مبهورا عن سر هذا الفيضان فأخذتنى الى حجرها وداعبت شعرى الخشن بأناملها - وكنت أحب ذلك - وحكت لى عن أميرة فرعونية اسمها ايزيس ، كانت تحب زوجها الجميل الطيب ، لكن حدث أن دبر له أخوه الخبيث حيلة شريرة وقتله ومزق جثته قطعا نثرها فى أنحاء البلاد ؛ فحزنت الزوجة على حبيبها وصارت تبكى ولا تكف عن البكاء ، ودموعها تنسال دون توقف ، وتسيل لتتجمع وتتزايد وتنحدر الى النهر حتى حدث الفيضان ، فارتوت الأرض ونبت الزرع وأكل الأحياء ..

.. وكنت أغالب النوم ، وكانت أمى تقول ان الأميرة ظلت تفعل ذلك بانتظام فى نفس الموعد من كل عام ، وأن موسم

الفيضان هو موسم البكاء عند ايزيس ، ومياه النهر هى دموعها الغزيرة ..

.. وكانت أصوات غناء شجية تأتينى من بعيد ، وكف أمى يدلك ظهرى ؛ وساقاها تهتزان بى هزات منتظمة ، ورائحة صدرها فى انفى ؛ وكانت النجوم فوقها ناصعة متألقة ، وكان وجهها لطيفا باسما بلا تجاعيد .

بعض المنحنيات

● منحنى القمـة

ازداد ظهرى غوصا فى مسند المقعد الوثير ، كانت السيارة تمرق صاعدة تل المقطم ، منحنية عن الطريق الأفقى ، مخلفة من ورائها حى القلعة ، والطريق الى فوق وعر ، كثير التعاريج ، لكنى لم أشعر بمطباته ، والسيارة تتسلقه مكتومة الزمجره ، وسامى يقودها فى هدوء وعلى وجهه بسمة باهتـة ، ربما كان يسترجع بعض أيام المـاضى .

تأملت القاهرة ، رغم اننا فى أول الليل الا اننى ميزتهـا راقدة فى اتساع ، وجميعها فى مدى الرؤية ، ونحن نعلو عنهـا ونرتفع ، ومقابر الموتى تأتى من تحتنا ، وعند قمـة التل تلوح مدينة المقطم ، قلت لسامى :

ـ تسكن فى مكان له هدوء القمر

ضحك ، وخيل لى ان بضحكته رنة ساخرة :

ـ لم تتخلص بعد من نزعتك الخيالية !

ـ لماذا اذن سكنت هناك ؟؟

ـ رأت زوجتى ذلك فوافقتها

وبعد برهة سألنى :

ـ هل تظن ان شجرة الكافور ما زالت قائمة ؟؟

ـ أظن ذلك

ـ اذن فاسمك مازال مخلدا !!

تأكدت من السخرية فى ضحكته ؛ وكنا فى المرحلة الابتدائية عندما رآنى منهمكا فى حفر اسمى على جذع هـذه الشجرة ، وسألنى عن السبب ، اشرت الى أطلال الآثار فى وادى الكلأ ، قائلا اننى افعل مثلما فعل الفراعنة ، فمط شفتيه عجبا ومضى يلقى الفروع بالطوب ليسقط ثمرها ويأكله .

ومنذ تزامل الدراسة لم أقابله ، وعندما لقيته مصادفة كدت أحسده على المنصب الذى قفز اليه (ولما سألنى عن نفسى أجبته فى صوت خفيض) .. ودعانى الى منزله فى قمة القاهرة ليعرفنى بزوجته ، ومن قبل أن أراها خمنت انها سوف تكون رائعة الحسن .

انحشر الطريق بين مرتفعين ، فارتد صوت المحرك من فوق الصخور ليتضاعف فى أذنى :

ـ وعربة الأسطى صابر ، أتظنها ما زالت تسير ؟؟

ـ من المؤكد انها تسير .

ـ اظنها أعتق عربة تدب فوق سطح الأرض !!

بطيئة لكنها أكيدة الوصــول ، بخط سير واحد لا تغيره أبدا ، من قريتنا الى حدود المركز جيئة وذهابا ، حتى تندرنا بانها لو تركت فى آخر الطريق بمفردها لعرفت كيف تعود دون سائق ، ولا أظن أحدا غير عم صابر قادرا على قيادتها ، فكل جزء فبها أصبح من اختراعه الخــاص ، الفرملة تقوم بعمل ضاغط البنزين وضاغط البنزين يقوم بعمل الفرملة ، ولدنا فوجدناها بصاحبها ، الذى فشلت دائما فى تقدير عمره ، وعندما تجرأت وسألته اكتفى بتأكيد انه أقوى منى ومن كل الراكبين معى ، اكتظ راســه بالعديد من الحكايات والذكريات التى تعتقت فى راســه فساح الواقع على الخيال ، يعرف الأيام بالمناســبات ، يوم زواج او طهور أو مولد أو يوم التطعيم ضــد الكوليرا ، أو يوم ان أكل الولد مسعود اللحم الضــأن لأول مرة ! .. وكنا نتحشر فى عربته للوصول الى ثانوية المركز والعودة منها .. لكن سامى لم يكن يركبها معنا ، كان يذهب الى المدرســة ويعود منها فى ســيارة والده ، ويخرج من داره بعدنا ويصــــل الى المدرسة قبلنا .

٢ ـ منحنى الجراد

« منحنى خطر ـ هدىء السرعة » .. لكنــه لم يهدئها ، وزعقت الاطارات محتكة بالأسفلت الخشن ، وعادت الى ذهنى عربة عم صابر ، وهى تتهادى مخترقة وادى الكلأ ، خطر لأحد كباش الغجر أن يلحق بها وينطح مؤخرتهــا بقرنيه الملفوفين ، مما أغرقنا فى ضحك لا آخر له ، ومما أغضب عم صابر ، فأوقف عربته وصرخ فينا ان ننزل وأن نبحث لنا عن سيارة أخرى ، وظللنا نحايله ونتملقه راجينه أن يحكى لنا قصته مع زوجــة

الموظف الانجليزى ، وكيف انها أعجبت به وبفحولته ، وكنا نعرف ان ذلك يسعده جدا ، وكنا نحن أيضا نحب سماعها ، فأدار المحرك ونهادت العربة على صوت **يقول :**

ـ حدث ذلك فى عام الجراد الأجرب ، وهو الذى يأتى من الصحراء ، فهو ان جاء من فوق الوادى يكون لونه أخضر اللون ، أما الذى يأتى عابرا الصحراء فيجىء فى لون الرمال ، لكن كل الجراد تراه فى السماء وهو يسد عين الشمس أسود اللون ، والجراد الأصفر يتحول الى الأخضر بمجرد ان يأكل زرع الفلاحين .

ـ لماذا يا عم صابر ؟ !

ـ لأن الزرع الذى يأكله أخضر اللون .

هززنا رءوسنا دون اعتراض ، فقال :

ـ الجراد الذى جاء بعد موت سعد باشا زغلول بثلاثة أو أربعة أعوام كان لعينا ، اونه أخضر لأنه أتى على الخضرة فى طريقه ، فأدخل الفلاحين فى كرب وضيق جعلهم يقترضون من المرابين الخواجات بالربا الفاحش ، وكان هؤلاء النصابون منتشرين فى كل القرى من فرنساوية على يونان على انجليز على أتراك ، لم يكن فيهم أى مصرى لأن المصريين فقراء .

ثم صمت عندما سبقنا سامى فى سيارة والده ، والتى أبطأ عم صابر حتى يبتعد غبارها والى ان استحثه مصطفى من المقعد الخلفى ، مطالبا بالدخول فى حكاية المرأة الانجليزية ، فانتعشت ملامحه بطريقة لم تقدر كل التجاعيد على اخفائها ، واخذ يقول :

ـ كانت امرأة كالبطة البيضاء التي أطعمت جيدا .

اعتدلنا جميعا ، والذين كانوا فى الخلف مالوا الى الأمام .

ـ كان وجه زوجها فى لون عرف الديك الرومى ، أما هى فكانت بيضاء ، ممتلئة وليست سمينة ، وطويلة وشعرها فى لون القمح ، وكان الجراد يهدد البلاد ، جراد اصفر من الصحراء ؟ !

ـ كان ذلك بعد معاهدة ٣٦ بحوالى الحول ، امرت الحكومة بعمل تجريدة من أهالى أربع قرى لايقاف الجراد عند حدود الصحراء ولتطفيشه مرة أخرى اليها ، وكانت قريتنا من هذه القرى ، وجاء الرجل الانجليزى من البندر ليشرف على التجريدة ، ومعه زوجته للفسحة ـ كان الانجليز يحكمون مصر ويهمهم أن يكون محصولها وفيرا ـ وكانت امهاتكم لم تحمل بكم بعد عندما اشتركت فى نقل الأهالى .

هتف سيد :

ـ كل الناس ؟ !

ـ عدا ثلاث عائلات تعرفونهم ، منهم عائلة هذا الولد سامى الذى سبقنا فى سيارة والده .

بصق الى الطريق :

ـ كان أجر النفر قرش صاغ فى اليوم ، وانهمك الرجال فى حفر الخنادق ثم فى اطلاق الدخان الكثيف مع صياح النسوة ، بينما الأطفال يحركون النباتات وافرع الأشجار ، والقصد من كل ذلك هو اقلاق الجراد وتخويفه كى يعود الى الصحراء ثانية ، وقد ضايق الضجيج والدخان المراة الانجليزية ، فأمرنى زوجها بكلام ركيك ان آخذها لأفرجها على آثار الفراعنة ، ومضيت بها .

تنحنح ابن المقدس حنا بجوارى فلكزته بكوعى كى يصمت .

ـ ولما ابتعدنا عن الدخان والصراخ شعرت بشيء يلمس قفاى ، ظننتها جرادة هاربة ، لكن اللمسة كانت ناعمة ، وكانت من أصابع المراة : ففهمت غرضها وركنت العربة واخذتها بين الخوص .

صفق رياض :

ـ عم صابن يا جن !!

ـ كانت قوية الجسد ومعطرة وأمتعتنى كثيرا ، لكن عند عودتنا انقلبت المتعة غما ، اذ وجدنا فلاحة تعول ملطخة رأسها بالطين وامامها طفلها منهوش الجسد !! كانت قد غفلت عنه أثناء العمل ، فحط عليه الجراد وظل ينهش بدنه الصغير ، وبكاؤه يضيع وسط الضجيج والصخب ! وعندما تنبهت اليه امه كان قد مات ولم يكن هنـاك من يداويه ، وقد ألهب عويل الأم غضب الفلاحين فانهالوا على الجراد حتى هج ونجحت التجربة .

ـ وأين ذهب بعد الصحراء ؟؟

احتـار :

ـ ذهب الى حيث جاء .

وعدت اسأله عن الانجليزية وان كان لم يرها بعد ذلك ، فقال :

ـ ظللت احمـل البيض والزبدة والدجـاج الى سكنهـا بالبندر ، وكان رجلها كثير الغياب بالقاهرة .

وكان فى كل مرة يضيف الى قصته حواشى وتفاصيل لم يأت ذكرها من قبل ! .. تأملنـا الغيطان المنبسطة وسألته ان كانت المراة قد أنجبت منه فأجاب :

ــ كانت عاقرا ، وقد فشل معها الأطباء ، وعندما إفهمتها بأن الفلاحة العاقر عندنا تلد اذا لمست صنم الفرعون ، جاءت خلسة من وراء زوجها ولمسته .

ــ وهل ولدت ؟؟

ــ قال لى شيخ كبير ان ذلك مستحيل لأن صنم الفرعون يولد نسوة الفلاحين فقط ، ولا يولد ابدا نسوة الخواجات .

٣ ــ منحنى المجهول

سرعان ما تكاثف ظلام الليل وأخفى تماما المقابر أسلفنا ، وتحولت القاهرة الى نقط مضيئة منتظمة فى خطوط أو متناثرة على ارتفاعات شتى ، لكنى عدت أرى الأوز يسبح فوق مياه الترعة ، بينما عم صابر يحكى لنا عن زوجة المرابى ، قال ان زوجها كان روميا والذى قبله كان شركسيا .

سأله حسين محتارا :

ــ شركسيا من أى بلد ؟؟

ــ من بلاد الشركس ، اما هو فقد كان روميا من بلاد الروم ، وكان يقرض الستين قرشا أول الشهر ليستعيدها جنيها كاملا فى آخره .

ــ هذه سرقة !

ــ كان الفلاح فى عوز دائم ، فأثناء الحرب العظمى حدث ان زاد سعر القطن بطريقة مربحة جدا ، جعلت معظم الفلاحين يزرعون اراضيهم قطنا فى الحول التالى ، منصرفين تماما عن زراعة الحبوب ، وأيامها كانت سوق القطن مجنونة ، اليوم

القنطار بمائة ريال وغدا بعشرين !! فتخرب بيوت ويشل رجال ، ولذلك لجئوا الى السلف ، ومن يقرضهم غير المرابين ؟ ! بنك التسليف كان يقرض كبار المزارعين فقط ، وكان هذا المرابى الرومى طماعا بقلب كالحجر ، بينما دين الفلاح يتراكم بالفائدة المركبة ، وان كان فى الأصل جنيها يصير بعد شهر جنيهين ، وبعد شهرين اربعة ، وطبعا عجز معظم الفلاحين عن الدفع ، فحجز الرجل على دوابهم ، لكنه قبل اليوم المحدد لبيع البهائم سقط فى الخلاء بعيار نارى أصابه فى القلب تماما ، وظل ملقى مكانه فوق التراب .

ــ من قتله ؟؟

ــ جاءت الحكومة ، وحط الجميع اقوالهم ، وسألونى مع من سألوا ، وقلت لهم اننى لا أعرف شيئا ولا اشك فى أحد ، تعجبوا : فهل قتل الرومى نفسه ؟ ! .. قلت لهم ان الله وحده يعلم ، وفى النهاية قيدوا الحادث ضد مجهول !

ــ ولكن من قتله ؟

ــ المجهول .. قالت النيابة ان الذى قتله هو الفاعل المجهول .

ضحكنا ، قال :

ــ القرية جميعها كانت تعرف الفاعل ! .. لكن حتى الرومية نفسها لم تحزن على زوجها ، كان عندها كعدمه وكانت تختار من شبان القرية من يعجبها ، وتأخذه الى دارها وتجعله يستحم ثم تأخذه الى سريرها لغرض غير خاف .

ــ وزوجها ؟؟

ــ كان يحب المــال فقط ، وقد جربت هى الكثيرين من أهل البندر ومن الروم والشركس والانجليز ، فلم يعجبها سوى الفلاحين .

تخابث عويس بقصد ايقاعه :

ــ وهل كانت البلهارسيا منتشرة ايامها بين الفلاحين ؟ !

ــ طبعــــا .

ــ وهل كانوا يشكون من الفقر ، ضعفاء لا يأكلون جيدا ؟ !

وجم برهة ، ثم قال فى عصبية :

ــ قلت ان الرومية كانت تطعم من تختاره ببطة كاملة .

مازحته :

ــ فهل أكلت من بطها ؟؟

ضحك ، ثم دار بعربته مع انحنــاء الطريق ، الذى كان ينحنى مع انحناء الترعة .

٤ ــ منحنى كلب الوادى

أضاء سامى مصباحى السيارة فسقط نورها على الصخور الجانبية ، ولوحات المرور تشــير الى منحنى قريب ، ورأيت فيه مغــارة كبيرة ، وقلت انها تنفع مكمنــا لبعض الوحــوش أو لعصابة من اللصوص .. لكن المدهش حقا هو اصرار عم صابر على فساد الزوجة الانجليزية وزوجة المرابى ، ومن بعدهما زوجة عرفان باشا ، وجميعهم ممن أذلوا الفلاحين !! .. فهل هو نوع من التعويض ونوع من الانتقام المعنوى .

جاءت سيارة فى طريقنا وسقط نورها على وجهينا ، لكن سامى لم يخفض من سرعته . وفى برهة النور ضيق من عينيه ، ثم سرعان ما راح وجهه فى الظلام وسألنى :

ــ لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟؟

وبما لضآلة راتبى (لكنى لم أخبره بذلك) وسمعته يضحك بضحكة غريبة :

ــ هل تعقدت من صنف البنات ؟ !

فهمت قصده ، وعاد يقول مجاملا :

ــ كان ذلك فى الماضى ، ولم نكن أياما سيئة ، معى فى ذلك ؟؟

وكان يقصد حادثة التلميذة سناء ذات الفم الواسع ، وكنت قد صادقتها ، وكثيرا ما تفسحت معها على الترعة خارج حدود المركز ، وكان هو يعرف علاقتى بها ، وكانت المظاهرات أيامها كثيرة ، وكنا نهتف بسقوط من نشاء وبنحية من نشاء . وكانت الحكومة قد فتحت كوبرى عباس وطلبة الجامعة من فوقه فقتلوا العشرات منهم ــ ولا اذكر جيدا ان كان ذلك فى عهد « النقراشى » أما فى عهد « عبد الهادى كلب الوادى » ــ الذى أذكره اننا قمنا بمظاهرة احتجاج كان سامى معنا فيها ، لكنه ما أن لمح البنت سناء حتى تلكأ وانسحب ، ولم يخطر على بالى انه لاحق بها الا بعد أن عاملتنى فى جفاء ، وبعد أن ضبطتهما خارجين معا من سينما المركز ، حيث ارتبكت هى أما هو فقد غمز لى بعينه اليمنى ، وفى اليوم التالى أخبرنى أن لقبلاتها طعم الشهد رغم سعة فمها !!

تأملت لوحة السرعة المضاءة ودائرة عداد البنزين ، وسهمى الانحراف الى اليمين والى اليسار ، واحد أخضر والآخر أحمر : وخيل لى ان منحنيات الطريق قد زاد عددها ، ونوجست من العتمة الكثيفة وتوقعت الهوة عند كل منحنى حيث أعرف ان فى القاع مقابر الموتى .

٥ ـ قمة الكف

كما توقعت تماما وجدت زوجته انثى ساحرة ، داعب هواء المقطم شعرها فتسممت عطرها الرائع ، باغتتنى بعينيها وهى تعطينى كاسا ، فأخذت ارشف منه وأنا أتأمل أضواء القاهرة من تحت اقدامنا : بامكان رجل واحد من هذا الارتفاع أن يهزم العشرات عن السفح .

ثم حكيت لهما ـ بعد الكأس الثالثة ـ أننى ، ومنذ هاجرت الى القاهرة ، وكلما شعرت برغبة فى حك راحتى اليمنى توقعت زيارة مفاجئة من أحد أهالى قربتى ، فابتسم سامى ، ورفعت الزوجة حاجبيها دهشة :

ـ وهل تصدق فراستك ؟ !

ـ على وجه العموم .

مالت بجسدها تجاهى فى بسمة آسرة ، غمزة فى كل خد :

ـ لعلك تجيد قراءة الكف أيضا ؟؟

ظهر كفها فى بطن كفى ، ناعمة تجرحها أقل خدشة ، ارتجفت وبحثت فى ذهنى عما يقال فى قراءة الكف .. بينما سامى يقول :

ـ المؤكد ان هناك علاقة وثيقة بين رغبتك فى حك كفك وبين دورتك الدموية وأعصـابك وآخر وجبة تناولتها وحالتـك النفسية ، تماما مثل رفة العين ، ولكن الأكيد أيضـا انه لا علاقة لها اطلاقا بزيارة أحبابك ؛ فهل تؤمن بالخرافات ؟ !

ـ لنقل مثلا شفافية ، أو بقايا من نقاء ريفى داخلى .

لكنها عادت تتحدانى باتساعى عينيها فتنبهت الى كفهـا فى كفى .. قلت :

ـ يقول كفك ان العمر مديد والحظ سعيد وان أسـعد أيامك هو الخميس .

ـ النهار منه أم الليل ؟؟

ثم بضحكة مستخفة :

ـ هل رأيت سكرتيرة زوجى الحسناء ؟ !

لا توجد امرأة تفوقك حسنا ، قلت ذلك فى سرى :

ـ اما أسعد الوانك فهو البرتقـالى ، وأسعد أرقامك هو رقم خمسة ، وهذا خط القلب وسأقرأه لك .

زمت شفتيها :

ـ الا هـذا

ـ أسرار ؟؟

ـ دع خط القلب فى حاله !

ولمـا سحبت كفها رأيت كفى العريض ، خشنا ، باهت الخطوط قصير الأصابع .. وفى فصل ٢ علمى خامس مددته

فانهالت عصا المدرس فوقه ، وكانت كراسات الانشاء قد وزعت وفوجئت بدرجة سامى أعلى من درجتى فهتفت بان هذا ظلم !! فعضب المدرس وضربنى بالعصا على كفى ، جلست اتمتم فى عناد بان موضوعى افضل من موضوع سامى فضربنى ثانية .

ضممت قبضتى بشدة ، قلت للزوجة :

ــ ذكرينى فى يوم لاحق أن اقرأ لك الفنجان .

فتناثرت ضحكاتها فى أجواء المقطم ، وبعثرها الهواء الى سواد القاهرة المترامية ثم سمعت عواء خافتا يأتى من بعيد واصطكاك بعض النوافذ ، وعندما رجعت بظهرى الى الوراء رأيت ساقيها : جميلة هذه المرأة ، كيف احتكرت لنفسها كل هذا الحسن ؟ ! لو رآها عم صابر لتناقص اعجابه بالزوجة الانجليزية وبالرومية وبامرأة عرفان باشا !! فهل خطفها سامى من رجل آخر ؟ ! .. كنت أظل محتفظا بتفوقى طوال العام الدراسى ، وفى الشهرين الأخيرين يشرح له كل مدرس الأجزاء الهامة التى منها الأسئلة فقط ، ويدفع والده بسخاء ، وينتهى الأمر بتفوقه هو !!

كان الهواء منعشا ، وتحدث سامى قليلا عن أحوال البلاد وتوقعاته ، وعن رحلاته التى قام بها فى الخارج ، وذكر الآراء فى السياسة الدولية ثم سخر من موظف لديه هاجمه فى اجتماع عام للمؤسسة متهما اياه باحتلال منصب لا يستحقه ــ ورأيت فى السماء نقطة خضراء مضيئة تتحرك فى صمت ، إدركت انها مركبة فضاء تدور حول الأرض ــ فشربت بلعة جديدة من الخمر ، ولما سألنى سامى عن أحوالى فى العمل أفلت لسانى ، وشكوت له من رئيسى ، فوعد بأن يوصيه خيرا بى ، وعزت على

نفسى وفكرت ان اخبره باننى فى غنى عن توصياته ، لولا أننى سمعت حفيف ثوبها وهى تناولنى كأسا جديدة ؛ فتأملت ذراعيها وعنقها ، وتصورت بشرتها ملساء عطره ، وسرت التنميلة الى مفاصلى ـ وكان المقعد مريحا ـ وتغلغل الخدر الى كل رأسى ، وشطح خيالى فرايتها تتهادى داخلة الى شقتى ، ثم الى حضنى ـ وأشم عطرها ـ وتفك أزرار بيجامتى ، وهى شرهة ، وهى تهمس بأن سامى لم يقدر أبدا على اشباعها بمثل ما أفعل ، وتوشوش مأخوذة : بأننى وحدى القادر على ارضائها ، أنا وحدى ، وليس سامى .

٦ ـ جميع المنحنيات ـ هابطة

.. لكنى تنبهت على أصبع سامى أمام عينى :

ـ نحب ان نعرف ما دار فى هذا الراس ؟ ! الى أين شردت بأفكارك ؟ !

الهواء ، لم انظر فى عينيه :

ـ الى قريتنا .

هز راسه ، ويبدو انه عاد بقول بانها لم تكن أياما سيئة وبأن المدينة لم تفلح فى تغييرى ، وغاص الدم من كل وجهى وبردت أطرافى ، وصار مذاق الخمر فى فمى مرارا ، فألقيت نظرة اخيرة من فوق ، وكانت الزوجة تبتسم فى ود محمرة الشفتين ، وتضاعفت المرارة فى فمى وشعرت بضرورة انصرافى ، وكان سامى مهذبا اذ نهض معى متوجها الى سيارته وهو يقول :

ـ سوف اهبط بك .

جميلة مثلهـا

• المنظــر

الوعاء الصغير الصدىء يمتلىء ، يرتفع مهتزا مع ارتعاشة الكف المعروفة ، ثم يميل لتنسكب منه المياه القاتمة ، يمتلىء ثم يعلو بطيئا مرتعشا ثم يسكب الى النهر ، يحـاول المراكبى العجوز أن ينزح المياه من قاع القارب ، تقيس عيناه ارتفاعها ، متقرفصا غائص القدمين فى مياه الرشح ، محنى الظهر فوق قاربه الصغير المربوط بحبل ليفى بال الى وتد مثبت على الشـاطىء قرب أقدامنا وأسفل قدمى سمير المهتزتين فى توتر عصبى .

بللت الرطوبة ملابسنا فالتصقت بأجسادنا ــ ولا نسـمة هواء ــ والعجوز فى محاولاته الرتيبة غير المنتهية ، كأنه لا يلحظ عدم نقصـان الرشح فى قاربه ! .. من قبل أن نأتى وهو يحاول نزحها بكوزه القديم ، تأملت كفه المعروقة المرتعشة ، ولاحظت تساوى سطحى المـاء داخل وخارج القارب !!

فجأة زام سمير ساخطا :

ــ غير معقول !! عبث ما يفعله هذا العجوز المعتوه !!

ثم صاح مناديا :

ــ يا ريس ، يا ريس الا تلاحظ ؟ ! ماتنزحه يتسرب ثانية !! كف عن هذا ، كف .

نظر اليه العجوز متأنيا ثم عاد الى فعله فزاد حنق سمير وأدار مقعده بحركة غاضبة معطيا ظهره للمراكبى ، أحتسى الرشفة الأخيرة من قهوته ثم عادت الهزة المتوترة فى قدميه ثانية . ومنذ جاء الى جلستنا لاحظنا ضيقة ، سألناه عما يحنقه فانكر ذلك بطريقته الهازئة :

ــ أنا على العكس تماما ، فقد نما الى علمى هذا الصباح من عليم ببواطن الأمور : ان الحياة جميلة ، الحاضر فيها افضل من الماضى ، والمستقبل اكثر اشراقا من الحاضر ، أبلغنى بذلك الرجل ذو المقعد الوثير الدوار ، ولذلك ترونني متفائلا ، وهأنذا ابتسم .

ثم وضع ابتسامة على شفتيه ، ولم نعلق على كلامه اذ كان صوته قد تهدج ، وكنا نعرف مشاكله فى العمل ، طلب منه رئيسه فى الجريدة ان يكف عن النغمة الزاعقة فى مقالاته ، وان يكتب مثلما يكتبون ، فرفض سمير (وقال لنا : كيف اكتب مثله وانا لست هو ؟ !) .. فاتهمة رئيسه بانه يكتب كلاما لا يقرؤه احد (وقال لنا سمير : أولا ليس عنده دليل على هذا الزعم) ! (وكان منفعلا فلم يقل لنا ثانيا) .. وقال لرئيسه :

ـ اننا لو نصبنا منصة عالية فى أوسع ميادين القاهرة ، ووضعنا من فوقها احدى الفوازى وتركناها ترعش اردافها فان الميدان سيمتلىء فورا بالناس ، وسيتعطل المرور طالما هذه المرأة تهز وسطها ، فهل تريد منى ان أهز وسط قلمى ؟ !

وقال لنا :

حملق الرجل نحوى ثم أدار مقعده الوثير الدوار ، فارئيسى مقعد وثير دوار استخدمه كى يعطينى ظهره ، وكما كرهته من وجهه فقد كرهته من قفاه ؛ اننى أمقته من جميع الجهات .

ثم ظل فى عصبيته حتى نقل مقعده وجعل ظهره الى المراكبى ، ولم يتكلم وتركناه فى صمته .

● المياه الراكدة

اما فريد مبروك فقد مكث وقتا يرمق سمير بنظراته الرصينة (كنا نغيظه ذاكرين انه يبالغ فى رزانته لتعويض القصر فى قامته) ثم أخرج من جيبه جواز سفره وقلب صفحاته وتأكد من وجود تأشيرة الخروج فى احداها ، أغلقه فى عناية واعاده الى جيبه ، وكانت جلستنا فى الأصل لوداعه بسبب قرب هجرته .

نظر الى سمير ثانية ثم الى المراكبى ومحاولاته غير المجدية ، ثم تاهت عيناه الى مياه النيل شبه الراكدة ، ورايت على وجهه مسحة اسى ، وبدا واضحا عزوفه عن الكلام :

• نزوة عـابرة

هتف اسامة :

ـ بالأمس فقط نجوت من وطـأة الامتحانات والليلة احب ان اسمع كلاما عن العشـــق والعشـــاق . .وهــذا الرجــل القادم يحب .

تلفتنا خلفنا فراينا حسين يهبط الى الكازينو فى بطء ، واشعة الغروب تعطى وجهه لونا شاحبا ، وكنا نعرف أن له قصة حب مع فتاة لطيفة قمحية اللون طويلة القامة ، ظل يعاند حبها ويقاومه لفترة وانتهى بأن نوى الزواج منهــا رغم قراره السابق بعدم الزواج نهائيا .

بادره اسامه :

ـ انت لمسة النور فى هذه الجلسة القاتمة ، حدثنا ايهــا العاشق عن حبك العظيم .

افتعل ضحكة قطعها ثم قال :

ـ انسوا كل ذلك ، كانت نزوة خرجت منهــا مستعيدا حريتى .

دهشت وسألته ان كان يقصد انهما قد افترقا ؟ ! .. فارتجفت وجنتاه ويبدو انه فشل فى افتعال ابتسامة أخرى ، ويظهر انه عاد يقول أنها كانت نزوة عابرة . لكنى اقتربت منه :

ـ ما الخبر ؟

زاغت نظراته .

ـ ودعتها بالأمس .

ـ أسافرت ؟

ـ وداع الفراق

همست محتارا :

ـ يقينى انك أحببتها ، فماذا حدث ؟ !

ارتعش الثقاب فى يده وانطفأ دون أن يشعل سيجارته :

ـ أدركت اننى لن أسعدها

ـ وحبكمـا ؟

ـ كان سيتبدد مع وطأة الأيام

وضع الجرسون أمامه كوب ليمون نظر اليه ولم يتناوله ، وعندما حاول العودة الى الحديث اختنق صـوته .. فتركنـاه لصمته الحزين .

● **بعيدا عن الشرق الأوسط**

طلب اسامه سيجارة فقدمت له واحدة ، رأى ماركتهـا فرفضها قائلا :

ـ هذا هو النوع الذى يفضله أبى .

ثم التقط واحدة من علبـة حسين ، بينما امتدت يد فريد مبروك تتحسس جواز السفر فى جيبه ، وعيناه لا تتركان ميـاه النيل ، حيث امتد ظل الكوبرى فوقها والشمس قد زاد ميلهـا ناحية الغرب .

سيطر الصمت على الجلسة عدا نقيق الضفادع وهمسات خافتة لبعض الجالسين عن قرب .

فأخذ ضجرى يتزايد ، لذلك تنفست ارتياحا عندما وصل حجازى ، أخيرا جاء ظريف الشلة الذى لاحظ اغتمام حسين ، ولما عرف السبب عاتبه مازحا :

ــ أحزين لأنك لن تتزوج ، كان الله فى عونى أنا وقد نجحت وتزوجت حبيبتى !!

ضحكت واسامه معه ، لكن حسينا لم يتبدل ، وابتسم سمير .. وعندما انضمت الينا سعاد وطفلتها خرج فريد مبروك عن رصانته لينهمك فى مداعبة الابنه ، بينما حاول اسامة أن يفتح حديثا عن الشرق الأوسط فلم يتجاوب معه أحد .

● بين قوسين

عندئذ صاح حجازى :

ــ سوف أخفف عنكم هذا الجو الكئيب بحكاية مدهشة .

قال :

ــ لزوجتى هيام رغم انها زوجتى ! ملاحظات ذكية تفاجئنى بها من حين لآخر ، ومنذ اسبوعين اخبرتنى باحدى هذه الملاحظات العجيبة ، قالت اننا نستيقظ كل يوم فى الصباح الباكر ، ندخل الحمام ونتناول فطورنا على عجل ، ونرتدى ملابسنا فى هرولة ، وعيوننا ترقب الساعة من لحظة لأخرى فى عصبية ، ثم نهرول خارجين والنوم لم يغادرنا لنتزاحم مع باقى الناس عند ركوب الأتوبيس ندفعهم ويدفعوننا ، متوجهين الى مقار أعمالنا حتى لا نتأخر عن التوقيع فى دفتر الحضور دقيقة واحدة والا كان لفت النظر والتعرض للخصم من المرتب وبعد هذه المجهودات الجبارة تنجح فى الجلوس الى مكاتبنا

تعمل به ؛ وبالفعل رصدوا المبالغ اللازمة للطلاء من الخارج والداخل ؛ اذ ان داخل المبنى صار متهدما ومثيرا للاكتئاب ، وكالعادة تلكأت الأمور حتى نفذت الأموال بعد طلاء الجدران الخارجية وحدها !! وظل الداخل على حاله !!

قلت معلقا :

ـ وما هو العجب فى ذلك ؟ ! هاكم قاعدة أخرى : سر من راى واكتأب من دخل !

● ورد النيل

سأل فريد مبروك سعاد عن أحوال زوجها ، وان كان مازال قويا جسورا أم أن الشيخوخة المبكرة قد لحقت به ؟؟ فهزت كتفيها فى غير مبالاة :

ـ لم يعد الرجل الذى كان !

دهشت ، وكنا بين لحظات الليل والنهار :

ـ لكن راتبه زاد فجأة بقفزة واسعة ؟ !

مطت شفتيها ثم تلعثمت باحثة عن كلمات ملائمة لم تقلها وانما تشاغلت بطفلتها التى انزلقت من مقعدها متوجهة الى حافة النهر .. فنهضت سعاد وسحبتها من كفها محذرة اياها من هذا النهر الذى يبتلع البنات الجميلات !! .. ثم التقطت حقيبتها من امامنا وهى تقول :

ـ سئمت طفلتى منكم ، سأختلى بها على ترابيزة خالية .

ومع هبوط الليل غادر المراكبى العجوز قاربه ، وماء الرشح كما كان ، وتحامل صاعدا فى بطء نحو الشارع ، وزاغت

عيناى الى المياه ، كسر السد العالى من حدة الأمواج ، فصارت صفحتها قريبة من الركود ، ومويجات واهنة تتلجلج فى موضعها مخفية اتجاهها ، فسكنت انعكاسات الأنوار ، وسمعت تنهيدة بجوارى ، ولما رأى حجازى ان سمير وفريد مبروك واسامة وحسين قد سهموا راغبين عن الكلام ضاع منه مرحه والزم الصمت كذلك .

● احاول جاهدا وبكل طاقتى

ومع ركود الماء والهواء تحول نقيق الضفادع وحديث الترابيزات المجاورة الى أصوات مبهمة غير واضحة ، تباعدت ليحل محلها صوت صديقتى منى ، ثم بدات أرى صورتها ووجهها الهادىء اللطيف ، فراعنى فيه أسى عميق يطل من عينين واسعتين قليلتى الانغلاق .

وكانت قد زارتنى فى مقر عملى ـ بلا مساحيق كعادتها ـ سحبت مقعدا وجلست قرب مكتبى ،وقلت لنفسى باننى على استعداد للارتباط بها . وعندما تكلمت كانت فى غاية الهدوء ، حدثتنى عن نيتها فى طلب اجازة طويلة من عملها ، فقلت لها ان هذا غير مضر ، ازدردت قرص الصداع ثم أعربت عن رغبتها فى الرحيل الى مكان لم تحدده بعد . ثم ظلت تتأمل كوب الماء وهى تحدثنى عن فيلم عجيب شاهدته مؤخرا ، ولخصت لى حكايته ، بأن البطل وهو فيلسوف وقور تفاهم مع زوجته اللطيفة التى تحبه ، واتفقا على الانتحار ، وبالفعل نفذا فكرتهما فى شجاعة كاملة ، فأماتا اطفالهما الثلاثة بأقراص منومة ثم انتحرا بعد ذلك لينتهى الفيلم .

رق صوتها الخافت فى عذوبة آسرة :

ـ كانت اللقطة الأخيرة جميلة بديعة بالحزن ، جميع الأسرة مستلقية فى طمأنينة ، الأب والأم وفوق وجهيهما مسحة من ابتسامة وادعة .

ترقرقت لحظات صمت ثم سألتنى فجأة :

ـ الم تفكر فى الانتحار يوما ؟؟

تحذرت فى الاجابة . قالت فى هدوء :

ـ عن نفسى فقد راودتنى هذه الفكرة أكثر من مرة .

قلت متصنعا الوقار :

ـ ان أكثر الناس تحدثا عن الانتحار هم أكثرهم تمسكا بالحياة .

تمتمت مستاءة فى هدوء مقلق :

ـ أرجوك لا تدعى الحكمة معى !

فأخذت أصابعى تعبث فى الأوراق أمامى ، وشعرت بساقى تهتزان فى هزات عصبية (وشعرت بها تراقب وجهى ، لكنى لم انظر اليها) .. تذكرت هدوء صوتها فارتعت بشدة وأخذت طوال باقى زيارتها القصيرة احاول جاهدا وبكل طاقتى اقناعها بأن جميلة مثلها يجب أن تعيش .

● **على الرغم**

تنهد حجازى ثم قال لفريد مبروك بصوت واثق :

ـ الأكيد المؤكد والذى لاشك فيه ، ان هذه الجلسة سوف تتذكرها كثيرا فى غربتك ، وان هذا النهر سوف تشتاق اليه اكثر .

للذكرى

كانت الشمس نائمة واهل البيت لم يستيقظوا بعد عندما صحا الجد من نومه ، فقام بترتيب سريره ، ويروى زرعة اللبلاب فى الأصيص الكبير منزعجا من اوراقها الذابلة ، ثم تشاغل بتأمل عسكرى الداورية فى نهاية نوبته وبعض المسرعين الى قطار الفجر .

وعندما علت الشمس وفرشت الطريق ملأ الجد ساعة الحائط وكانت السادسة والنصف تقريبا فقدمها نصف ساعة كى يوقظ اهل البيت ، لكنهم كانوا يعرفون لعبته فاستيقظوا حسب ساعاتهم الخاصة : الابن وزوجة الابن التى اخذت اللبن من البائع وقامت بغليه ، بينما الجد يوقظ حفيده الذى كان يحب ملازمته ويرى فيه نبوغا مبكرا على ولد مثله فى العاشرة .

وعندما ملأت السيارات بدخانها وضجيجها الشارع العمومى كان الأب والأم قد توجها الى عملهما والحفيد قد هرول الى

مدرسته ، فجلس الجد وحيدا يطـالع الجريدة بادئا بصفحـة الوفيـات فصفحة الحوادث واخيرا اخبـار الصفحة الأولى ، ولمـا فرغ ذهب الى مقهى الناصية وجلس مع بعض رفقاء السن ، وتحدثوا عن المـاضى وتعجب معهم من الأجيـال الجديدة ومن غلاء المعيشة ؛ ولمـا عبرت جنازة احد الموتى من امامهم سـألوا عن اسمه وظلوا يتحدثون عن اصله وفصله وممتلكاته ، وعن عمره الذى عاشـه والمرض الذى مات به ؛ غير أن الجد لم يشاركهم وقد أحس بانقباض شديد شاعرا بشيخوخته وبثقل أعوامها ، فتحامل الى المنزل حيث قبع وحيدا حتى عاد ابنه وزوجة ابنه ثم حفيده الذى ألقى بكتبـه ثم تنـاول غداءه على عجل وهو لا يكاد يجلس فى مقعده ليجرى هابطا الى اقرانه اللاعبين أسفل البيت متقافزين الكرة فيما بينهم .

بعد صمت طلب الجد ــ فجأة ــ من ابنه الاستعداد للذهاب الى المصوراتى لالتقاط صـورة تذكارية تضمهم جميعا ، وحاول الابن تأجيـل التنفيذ لكن الجد أصر قائـلا انه يريد صـورة للذكرى .. فرضخ الابن على مضض للرغبة الطارئة وقد لاحظ رنة الأسى فى صـوت الشيخ ، وتبرمت الزوجة وكانت مجهدة تريد أن تستريح .

لكنهم فى النهاية كانوا أمام آلة التصوير فوق أربعة مقاعد متجـاورة : الجد فى كامل ملابسه بالكرافتـة العتيقة ، والابن متضايق وقد اضطر الى مجاراته رغم حرارة الجو ، والزوجـة مستسلمة والحفيد أكثر ضيقا لا يكف عن القلقلة وقد سحبوه سحبا من وسط اللعب مع أصحابه وأحاطوا عنقه بكرافتة صغيرة لم يألفها من قبل .

نظر الابن الى أبيه فوجده مشرئبا بعنقه فى جلسة صارمة فقلده ؛ وغمز الى زوجه أن تفعل مثلهما ففعلت بعد أن بذلت مجهودا كبيرا فى تثبيت ولدها على نفس الوضع ، ثم أراح الجد كفيه فوق ركبتيه مكملا جلسة التصوير ، ففعل مثله الابن ثم الزوجة التى لا حظت هذا التعديل من نفسها ونفذته منتظرة أن يقلدهم الولد ، فلما لم يفعل أخذت كفيه بعصبية ووضعتهما على فخذيه ، غير أنه أبعدهما ضجرا فأعادتهما وفى النهاية رضخ متململا .

وبعد ان صار الأربعة فى وضع التصوير انهمك المصور فى اضافة لمسات الاضاءة الأخيرة ، وقبل أن ينتهى منها كان زهق الحفيد قد تضاعف فتحرك بغية الانصراف ، لكن الأم نهرته وثبتت وضعه على شاكلة أوضاعهم ، وتوعدته بالضرب ان هو تحرك قبل التقاط الصورة ، وعاد المصور يستعد بينما ضيق الولد يتزايد واحساسه بخنقة الكرافتة يتضاخم فمد يده فى عصبية وفكها ، وتوقف المصور مستاء ، واغتاظت الأم وشعر زوجها بالحرج ، واستفظع الجد هذا الخروج عن الوضع !!

بسرعة أعادت الأم ربط الكرافتة من حول عنق الولد وكررت وعيدها له بالضربات ان هو كسر سكون اللقطة .. ثم عادوا الى وضع الثبات محاكين جلسة الجد .

وعندما هم المصور بالتقاط الصورة لاحظ التجهم على الوجوه فطالب بابتسامات خفيفة .. وفى حذق وضع الجد ابتسامة من فوق تجاعيده الفائرة ، ثم الابن ، ثم رسمت الزوجة ابتسامتها الخاصة ، بينما الحفيد على وشك الانفجار بكاء

.وقد تذكر انهم حرموه من لعب الكرة مع رفاقه ، وحايلوه والحوا عليه طويلا بالابتسام .

وفى الوهلة التى خيل فيها للمصــور ان الحفيد قد امتثل وابتسم سارع بلقط الصــورة ، لكنه عندما حمضها وطبعهــا وكبرها وجد الدموع تملأ عينيه .. ورغم انه لجــأ الى الرتوش الا أن لمعة الدموع فى عينى الولد ظلت واضحة الى جانب ثلاث ابتسامات مصطنعة لوالديه ولجده .

شكاوى ملاك الموت الفصيح

- ١ -

الظلام يحيطه من كل صوب ، الصدر يلهث . وصوت المطر ينهمر فى الخارج .. قال فى بسمة تودد :

ـ اتعرفنى ؟؟

قربت الشمعة منه : الملبس انيق ، الملمح وسيم ! وانحناءة مهذبة كشفت عن سترة بللها المطر .. قال فى توجس :

ـ اتخافنى ؟ !

أطرقت صامتا مداريا لهب الشمعة بكفى عن الهواء الساقط .. فهمس فى أسى :

ـ تخشانى اذن !!

شكله ليس كما فى الرسوم ، ومازال يلهث ـ العجيب أنه يلهث ! ـ قلت :

ـ الطابق مرتفع ، لماذا لم تستعمل المصعد ؟ !

نظرة رصينة منه الى الشمعة ذكرتنى بانقطاع التيار الكهربائى . برفت عيناه :

ـ لعلك كنت تترقبنى ؟ !

تضاعف صوت القطرات الثقيلة ، هززت رأسى منكرا قال :

ـ لا تفزع ، انها زيارة ودية ، لا أكثر .

تراجعت على مضض مفسحا له الباب .

- ٢ -

الشمعة بيننا فوق الترابيزة الواطئة ، أحدثت ظلا لأنفه وسوادا فى تجويفى العينين وهبوطى الخدين وبقعة عند الفم ـ صار وجهه كما فى الرسوم ـ دق قلبى رهبة .. عاد يقول :

ـ لعلك كنت تترقبنى ؟؟

انكرت بهزة راس عصبية ، والظلام كثيف خارج الشرفة ، وخياله لا ينعكس فوق الزجاج !

عند أول تساقط المطر توهمت سماع ثلاث نقرات فوق شيش النافذة ، فتحته واجفا فلم أجد أحدا غير المطر الفزير ، ثم انقطع تيار الكهرباء وانسحب النور من لمبات المنازل والشوارع فشعرت بالتوتر ، ثم دوى الرعد ولم يكن فى السماء برق قدام الظلام ، رعد بلا برق فتملكتنى رعشة كبيرة ، وظللت أتحسس طريقى حتى عثرت على موضع الولاعة ثم الشمعة التى تنصهر الآن ، فلما سمعت طرقات على الباب كذبت أذنى لأنها كانت ثلاث طرقات أيضا ، ثلاث دقات .

مددت يدى بعلبة السجائر :

ــ سيجارة ؟؟

ــ لا ادخن

ــ هل أعد لك قهوة ؟؟

ــ لا أشربها

ــ شـــاى ؟؟

لا اشرب جميع المنبهات

يحافظ على أعصـابه !! ــ ولكن هـل له أعصـــاب ؟؟ ــ سـألته :

ــ شىء مثلج اذن ؟؟

ــ المثلجات تتلف الأسنان

ويحرص على أسنانه !! ــ فهل له أسـنان أيضا ؟ ! ــ خرج صوتى مرتعشا :

ــ فأى شىء أقدمه لك ؟؟

ــ لا تقلق ، مجرد وقت للحديث

ــ احساس بالملل اذن !!

أشعلت شمعة اضافية فصـار له ظلان فوق الحـائط ، وتعجبت ان كان هو أيضا يشعر بالملل مثلنا .. لكنى جاملته :

ــ تحت أمرك

قـال :

ـ فلنبدأ بالسؤال التقليدى والكلام يجر بعضه ، كيف ترى الحياة ؟!

ـ الحياة ؟ !

ـ نعم الحياة

احترت بماذا اجيب ، قلت :

ـ لا بأس ، وهذا هو الجواب التقليدى

ـ والجواب الحقيقى

انسال زذاذ المطر متعرجا فوق الزجاج وقلت :

ـ من أعرفهم مأزومين مهزومين ، ومن لا أعرفهم يتشاكون همسا أو جهارا من مر الأيام

ـ الجميع ؟ !

أومأت ..

ـ كل الرجال وكل النساء ؟ !

ـ نعم .. تقريبا ، صارت الحياة نارا ولا نار جهنم

ـ غريبة !!

فكرت ان أسأله عن جهنم ان كان قد رآها ، لكنى أكملت :

ـ المصائب تقع كل يوم ومصائب الغد لم تأت بعد ، واكتظت الأرض بأمراض العصر وهى كثيرة .

ـ احقا ؟ !

ـ منها على سبيل المثال غلاء المعيشة والانفجار السكانى وازمات المواصلات والمساكن ، وتناقص الغذاء وتزايد الضجيج والدخان والأوبئـة والحروب .

قاطعنى فى سأم ليكمل فى رتابة :

ـ ومنها أيضا انكمـاش الحب بين النـاس وطرد الزيف للحقيقة ، واحساس الفرد بانه نكرة تحسم جـلائل الأمور فى غيابه ، وتطـاحن الأجيال وقمع الكبار للصغار ، والقنوط وضغط الأحذية الثقيلة .

زادت دهشتى ، وزاد ضجره وهو يردد :

ـ ومعظم النـاس تعميهم تفاهات اللحظـة الراهنـة ، ما يسمعونه اليوم تكرار لمـا سمعوه بالأمس ، واحدث مشاهداتهم تكرار لأقدمها ، ركود ورتابة ، وهـذا هو حال البشر ، يتوهمون انهم يمارسون دورا وهم فى الحقيقة بلا دور !!

ـ انت تعرف كل شىء فلمـاذا تسأل ؟ ! هـذا هو حال البشر ؟

فتح كفيه فى حيرة :

ـ فالمنطقى اذن أن يرحبوا بى ، أليس كذلك ؟ !

ـ ٣ ـ

لم أرد وكانت الشمعة الأولى قد قاربت الذبول فتشاغلت باشعال الثالثة ، ومع ارتعاشـة يدى اهتز له ظلا ثالثا باهتا ، لكنى لم أقدر على تمييز عينيه ! .. وقال سأمان شاكيا :

ـ قبل أن أجيئك قابلت آخرين من شتى الأعمار والأجناس ، قالوا لى نفس كلامك بشبيه عباراتك ، فهل معنى هذا ان جميع الناس تعساء ؟ !

ـ انها الحياة وغرير من يكابر .

ـ المتزوجون منهم والعزاب ؟ !

ـ المتزوجون يعانون السأم والندم وفتور العاطفة وذبول الرغبة ، والعزاب تضجرهم برودة الوحدة وتوهان العاطفة وحصار التقاليد السخيفة لهم .

ـ ٤ ـ

هز راسه امتعاضا وتنبهت الى ان المطر قد كف ، عدا قطرات ثقيلة ظلت تتساقط فى تواتر ممل ، يبدو انها من افريز الشرفة العلوية .. صوت قطرة فبرهة صمت .. ثم قطرة .. ثم ذبلت الشمعة الأولى وترنح لهبها وانطفأت ، وصارت ظلاله اثنين ، وهمس :

ـ تلك صورة شديدة القتامة للحياة !

ـ بل بشعة ، وقد نشرت الجرائد بعض الصور لفتيان ظهرت عليهم دلائل الشيخوخة المبكرة ، فشابت شعورهم وتجعدت وجوههم وانحنت ظهورهم رغم انهم عند العشرين !

ـ اعرف هؤلاء الفتيان الشيوخ وقد زرت واحدا منهم ، ولكن هل انا المسئول عن كل هذا ؟ !

ـ لا تندهش ان قلت لك ان الحياة صارت هى المرض ، والموت هو الشفاء كمجرى الماء للتائه فى الصحراء .

تشاكى جسده مهتزا :

ـ فهل تعنون ذلك جيدا ؟ !

ارتبكت وبردت أطـرافى ، وكان يحملق بشـدة نحوى فارتجفت .

ـ ٥ ـ

.. بينما النقرات الرتيبة فى الخارج : قطرة .. فصمت .. ثم قطرة .. ثم سألنى فى انفعال أليم :

ـ لم تجبنى : هل أنا المسئول عن حيـاتكم هـذه التى تسميها فظيعة وكئيبة ؟ !

انكرت بهزة رأس متوجسة ، فقرب الشمعة من وجهه ـ ارتجفت ـ وسأل :

ـ هل خلقتى مرعبة منفرة ؟ !

انكرت بهزة مرتعشة ، وسمعت قطرة خافتة تبعها صمت ممدود .. ثم أخذ يسعل شرقان ـ هل أصبح معتل الصحة ؟ ! ـ وأحضرت له كوب ماء نظر اليه ولم يشرب ، والشمعة ترتجف فى يده ، وانسال المنصهر منها على كفه منزلقا الى الأرض ، دق قلبى رهبة لولا انه تساءل شاكيا :

ـ ان لم يكن هذا أو ذاك فلماذا اذن يمقتنى جميع الناس ولمـاذا يرضعون أطفالهم كرهى ؟ !

قلت أعزيه :

ـ لعلك واهم !

تبـاكى :

ـ كيف اكون واهما ولقد زرت أحد هؤلاء الفنيان الشيوخ الذين تحدثت عنهم ، وكان كمـا وصفته مجعد الوجـه شائب الشعر غائر العينين وفى نفسية منهارة ، ورغم كل ذلك فما أن رآنى حتى أصيب بنفس ما أصابك عند رؤيتى : ذعر ونظرات كارهة وتحفز للمقاومة ، ولم اكن أبغى منه سوى رفقة سهرة !!

حملق نحوى فلزمت الحـذر متراجعـا الى ظهر المقعد .. والقطرات تتلاشى وانفاسى تتسارع .

- ٦ -

.. ثم اعاد الشمعة فى عصبية فانطفأت ، وبقيت الواطئة ، وللفور عـاد الظلام الى تجاويف عينيه وفمه وهبوطى خديه ، وناح يشكو ، وانا الهث :

ـ كيف اكون واهمـا وانتم ترسموننى فى الصـور بتلك الهيئة البشعة ، مشوها كالهيـكل العظمى ، براس فى شـكل الجمجمة ، ثم تضعون فى يدى منجل الحصاد الكئيب ؟ ! كم انتم قساة أيها الناس !! كم انتم غلاظ !!

وكان الظلام قد حط ، وقد تهدل كل جسـده ، فتصببت عرقا بارداً ، وضباب رمادى يغشى عينى .

- ٧ -

ثم ساد صمت ثقيل عدا صوت نحيبه المكتوم .. و...

دمـــوع

مع اقتراب النهار من نهايته ، سارع الاله رع الذى خلق نفسه بنفسه الى اداء مهمته اليومية ، بأن اغمض عينه المشمسة، ليعم الظلام فوق انحــاء الأرض .. حيث كان شاب نحيل يتباطأ فى الدخول الى داره ، اذ كان يعرف ان سحارة الخبز خاليــة من الطعام ، وكان جائعا ولم يكن معه ما يحضر به اكلا ، ولم يكن فى سراجــه زيت ليضىء المكان فتحسس طريقــه الى فرشــته واستلقى عليها منهكا محاولا النوم ، لكن معدته الخاوية منعته ، وحاول أن يشغل نفسه بالتفكير فى مواضيع شتى عله ينسى جوعه فلم يقدر على التركيز ، واخذ يبتهل الى الاله قائلا :

ــ اى رع يا من خلقت نار الحياة وانهار المياه ، معدتى الخاوية تملأ راسى بآلام الصـــداع فاشملنى بعطفك ، انت يا من انشأ الأيام والساعات وجعلت التناسل ، صراخ معدتى يطن فى اذنى فاشملنى بعطفك وارسل برحمة النعاس الى عينى ..

وظل يتقلب فى رقدته متأملا حاله وحال الناس ، وخطرت على باله اسئلة محيرة لم يحسمها بأجوبة مقنعة ، وطال الظلام وظن ان الليل الطويل لن ينجلى ، فخشى أن يكون رع قد أسرف فى احتساء جعته الالهية وغفى وغفل عن فتح عينه المشمسة .

لكن هواجسه تبددت عندما فتح الاله عينه فتسلل ضوء النهار ، وصاحت ديكة الفجر موقظة الدواب والزواحف ، ورحل سلطان النوم عن اعين الناس فراحوا يغادرون ديارهم ، وعند ذاك هجر الشاب فرشته ، وتوجه الى عمه الكهل ، فوجده جالسا امام داره نحيفا شديد الشحوب والسمرة والتجاعيد ، جلس الى جواره ، وبعد ان حياه وأبدى احترامه سأله :

— يا عمى الطبب ، لماذا خلق الاله الانسان ؟؟

تأمله الشيخ برهة ثم رد فى ابتسار :

— لأنه حدث ان بكى الاله رع فخلق البشر من دموعه .

طفحت مرارة الشاب :

— ولماذا لم يخلقنا دون الحاجة الى الطعام ؟ !

ادرك الشيخ ان ابن اخيه لم يوفق بعد فى العثور على عمل جديد ، ولاحظ عليه هزال الجوع ، وحز فى قلبه انه لا يملك ما يطعمه به .. وهتف الشاب :

— ان كان لابد للاله ان يبكى وان يخلق البشر من دموعه فلماذا جعلهم فقراء واغنياء ؟ !

تلفت الشيخ حوله فى حذر ، وكان يخاف ان يكون هناك من ينقل الكلام الى مسامع الفرعون الفارش جناحيه على الوجهين

القبلى والبحرى ، أو الى أسماع كهنة المعبد المبجلين الغارقين فى خيرات الاله الفانية ، فلم يشأ أن يتكلم .. بينما كان الحزن قد غلب الشاب فسالت دموعه على وجنتيه ، ولما تساقطت فوق ظهر كفه نظر اليها وقال متحسرا :

ــ أما دموعنا نحن فهى لا تخلق شيئا !!

بعد حين خرج الشيخ عن صمته مخفضا من صوته :

ــ منفردين لا تخلق دموع البشر شيئا ، أما مجتمعين فيمكنها أن تفعل وأن تغير .

وظن الشاب أن العم قد عاد يتكلم بالاحاجى كعادته كلما شاء انهاء الحديث ، فنهض وسار على شاطىء النيل دون هدف ، وعند حدود المدينة وجد نفسه قريبا من قصر الفرعون المرهوب ، وتلصص بنظراته الأنسية الى حديقته فرأى الأميرات والوصيفات تحت ظلال ريش النعام ، والشبع باد علبهن ، فحدث نفسه : « لكن الفرعون ليس مثل البشر فهو منحدر من نسل رع وليس من دموعه » .. ثم اضطر الى الابتعاد متعثرا تطارده نظرات الحراس المستريبة .

وبينما أشعة الاله الحارقة تلهب نافوخه ، وخواء المعدة يعصر ماء الرؤية من عينيه ، اذا به يشاهد الأشياء تغرق فى نصوع شديد ، والسماء تنفرج عن أصناف من الطعام لذيذة برائحة شهية ــ وكان النهر زاخرا بالتماسيح من مختلف الأحجام ــ وتابع المسير طويلا حتى خارت ساقاه فتوقف وانهار فى مكانه وبدنه يرتجف برعشة عجيبة .

وعندما كان زورق الشمس فى السماء يسبح بالاله صوب الغرب ، خرج من النهر تمساح كبير نفض الماء عن جسده

الضخم ، ثم استرخى على الشاطىء متثائبا وهو يرمق الشاب بنظرات كسول ، وقد تجمعت حول عينيه عدة قطرات بدت كالدموع .. وخرجت كذلك من قصر الفرعون محفة ملكية ، يحملها اربعة من العبيد وبداخلها اجمل أميرات القصر ، وكانت تهوى مشاهدة مياه النهر وقد اصطبغت بذهب الغروب ، وقد الفت ان تجد المكان خاليا الا من التماسيح ، لكنها هذه المرة وجدت انسانا يجلس فى مواجهة التمساح ، والاثنان يرمقان بعضهما ، ولاحظت ان التمساح يتثاءب وانه فى تثاؤبه يقترب من الانسان ، وان قرفصة هذا الانسان تعكس حزنا مريرا ويأسا كبيرا .

وقد رآها الشاب وهى ترنو اليه فى عطف ، وهى توقف المحفة وتنساب نحوه كالطيف الرقيق ، وتداعب شعره فى حنان ، فابتسم لها وهو يظن ان ما به حلم لأن جسده كان مازال يرتجف وكأنها رعشة الحمى .. لكنها أخذته الى المحفة التى حملها العبيد الأربعة الى القصر ، وهناك شاهد عن قرب الوصيفات بأجسادهن الجميلة والشبع باد عليهن ، ودخل مخبز القصر وراقته رائحة الخبز ، وزار المطبخ الملكى فوجد من الطعام ما ملأ معدته بأشهى المذاق ، وتمنى لو أرسل بعضا الى عمه النحيف . ثم دخل معصر الجعة ، ورشف قدرا منها وخمن أن لذة مذاقها لا تفوقها لذة اية جعة أخرى ما عدا جعة الاله رع بالطبع .. وبعد ذلك جعلته الأميرة يستحم ويتعطر ، ثم أخذته الى غرفتها الرائعة ، ولاحظ أنها جميلة وقوية وفى صحة جيدة ، وان شذى عطرها الملكى بديعا .. وعند الفجر نام وهى فى حضنه ، وبعد ظهر اليوم التالى استيقظا على مهل ، سارع هو بزيارة المطبخ مرة ثانية حيث ملأ معدته متذوقا من كل وعاء ،

ثم هرول الى معصر الجعة وشرب .. وقبل الغروب لاحظ أن الأميرة تتجمل وتتزين استعدادا للخروج ، وفهم انها خارجة فى نزهتها المغيبية ، وتوقع أن تجد عند ضفة النهر شابا حزينا يائسا فتعطف عليه وتحضره الى قصر ابيها الفرعون الموقر فيفقد هو مكانه ، لذلك تجرأ وطلب منها عدم الخروج ، واستهولت سموها جراته ، وعندما اصر امرت عبيدها بضربه ، فتكالبوا عليه منفذين ارادتها التى لا ترد ، ثم حملوه الى الشاطىء حيث القوه.

فعادت الرجفة تنتاب جسده المتقرفص ، وملأت الدموع عينيه ، بينما التمساح المتثائب يزحف بطيئا ناحيته ، وعندما دنا منه انقض عليه بفمه الواسع .. وبعد أن ابتلع جميع بدنه شعر بالعطش ، فنزل الى النهر حيث ارتوى ، ثم عاد يسترخى فوق الشاطىء وقد تجمعت حول عينيه بضعة قطرات ، بدت تحت اشعة المغيب كالدموع الذهبية .. بينما عند اقصى غروب الأفق كان الاله رع الذى لم يولد ولا يموت يسارع باغماض عينه ليعم الظلام فوق ارجاء المعمورة .

رحيـــل

جاءنى الرنين ..

كصوت مبهم فى حلم ، كهاتف من مكان ناء سحيق ، اقترب رويدا حتى علا فتقلبت فى نومى ، وتأكدت انه جرس الباب .

تسللت فى خفة كى لا اوقظ زوجتى ، واضأت نور الصالة وسألت :

— من ؟؟

جاءنى جوابه :

— انـا ..

لم اتنبه الى رنة الحزن ، وان كان الصوت شبيه صوته . فتحت الباب فوجدته :

— اخى الأصغر !!

احتضنته فى شوق ، لم يبادلنى الحضن وظلت ذراعـاه متهدلتين الى جانبيه .. لكنى رحبت به :

ـ يا الف اهلا والف سهلا ..

همس :

ـ اهــلا بك ..

صدمتنى الأحزان المرتعشة مع رنين صـوته .. تراجعت اناملة لكن زوجتى خرجت من غرفة النوم تلملم ثوبها .. ارتبك واعتذر عن ايقاظها . كررت ترحيبها وسارت نحو باب المطبخ :

ـ سأعد لك العشاء ، لابد أنك جائع .

قــال :

ـ لا . اشكرك ..

قلت له :

ـ بعد سفرة طويلة يجوع المسافر .

قــال :

ـ بعد سفرة كئيبة تنسد شهية المسافر .

ثم توجه زائغ البصر صوب غرفته ، فأسرعت واضأتها له . وقف عند مدخلها متفحصا : على حالها كما تركها منذ سنوات.. رفت على جانب فمه نصف بسمة اسيانة ، وساحت عينـاه الى كتبه القديمة داخل المكتبة ، وصـورة له خلف زجاجها يضحك مرحا وسط زملاء رحلة مدرسية .. ثم تقدم الى الشـماعة حيث بنطلونه الرمـادى البـالى ، وتحسس الشرخ فى زجـاج النافذة .. استدار ونظر طويلا الى صورة الكبش الأبيض القافز

الى الهواء من فوق الصخرة الكبيرة ـ وكان هو الذى علقها ـ ثم مـال ونظر تحت السرير وسحب التبشبب الجـلدى : نفخ التراب من فوقه وجلس يخلع نعليه .. ولـما صاحت زوجتى من الصـالة بان العشاء قد أعد قال :

ـ ليست لى رغبة .

فجـاءت وغيرت له ملاءة السرير وظلت تلح عليـه بالأكل فكرر كلامه بعدم رغبتـه ، اسمعتـه بعض عبـارات الترحيب واستأذنت لتنام وبقيت أنا معه .

استلقى على ظهره ناظرا الى سقف الغرفة ، وكان صـوت مذياع الجيران يصل الينا واضحا : قلت له :

ـ جميل ان تزورنا بعد كل هذه الأعوام ..

اومأ بهزة واحدة . سألته :

ـ كيف حال العاصمة ؟؟

مط شفتيه . قلت :

ـ عل أحوالك كانت حسنة ؟؟

ابتسامة قانطة عند جانبى فمه .. وسـاد الصمت بيننا ، وسمعت ضحكات كثيرة مصدرها راديو الجيران . سألته :

ـ هل تذكر ليلى ؟

قرب من حاجبيه . قلت :

ـ لقد تزوجت وسمنت وصار شكلها بشعا . انقذك منها ذلك الذى تزوجها .

ظل عازفا عن الكلام . بعد صمت قلت :

ـ فى الأسبوع الماضى زرت قبر أبينا فوجدته منبوشا والعظام منثورة ، وعثرت على آثار أقدام بعض الذئاب أو الضباع، ولم أجد فائدة من ابلاغ الشرطة .

الصمت لفترة أطول ، عدا الضحكات فى مذياع الجيران . سألته :

ـ هل احضر لك الترانزستور ؟؟ فى المذياع تمثيلية هزلية ..

رفض ذلك . قلت :

ـ اراك حزينا ؟ !

ـ .. ..

راعنى امتقاع وجهه . كررت :

ـ ان التمثيلية فى المذياع تضحك !!

أن صوته :

ـ اعمل معروفا . اتركنى الآن ..

لم تهن على مغادرته . اقتربت منه :

ـ ليس حالك على ما يرام ؟ ! هل أحضر لك طبيبا ؟ !

هز راسه رفضا فاهتز السرير .

ـ أتمر بأزمة مالية ؟؟

الابتسامة البائسة . هتفت :

ـ ان كانت النقود فانا فى خدمتك .

تحركت شفتاه لكنى لم اسمع صوتا . سألت :

ـ ماذا تقول ؟!

همس :

ـ اقول شكرا ..

ـ اهى مشكلة عاطفية اذن ؟!

لم ينطق . ملت نحوه :

ـ لاشىء يستحق الألم فى هـذا العالم .. ان كان حزنك من اجل فتاة غادرة فالجميـلات كثيرات وألف فتاة تتمنـاك وتسعد بك ..

خرج صوته مكلوما :

ـ ارجوك اتركنى الآن ..

ـ امتاعب فى العمل ؟!

هزة عصبية نافية . احترت :

ـ ان كان المـال والحب والعمـل على ما يرام فمن أين تأتى الأحزان اذن ؟ !

توسل هامسا :

ـ أرجوك دعنى بمفردى ..

ـ ألا تريد أن تتكلم ؟ !

ـ .. ..

ـ أرجوك تكلم ..

ـ .. ..

ـ الا تريد أن تقول شيئا ؟ !

ابتلت عيناه . الحفت :

ـ ليس لديك ما تقوله ؟ !

ـ تعب أنا . اتركني وحيدا ..

ـ قل .. الكلام يريحك ..

نفذ الصبر في صوته :

ـ اعمل معروفا ..

فتركته يستريح وقلت الصباح رباح .. وقبل ان اطفيء النور شاهدته يتأمل صورة الكبش الأبيض المنساب في قفزته الرشيقة الى فراغ الصورة ، ثم القى بكفيه فوق صدره وحملق في سقف الغرفة .

استلقيت الى جوار زوجتي مهموما مكدودا ، أرادت أن تحادثني عن مشاكلها مع تلاميذها ومع ناظر المدرسة ، فلم ارد عليها .. سكتت حينا ثم شكت لي من الباعة ومن الأسعار. وقالت ان كل شيء صار مقرفا ، فلزمت الصمت .. سكتت وقتا آخر ثم تنهدت ويبدو أنها قالت بان الانسان عجيب حقا صعد الى الفضاء ولم يهزم الامراض ، لم أجبها وابتعدت عنها فكفت عن الكلام .. وعدت أفكر في عزوف أخي عن الحديث وعن الطعام ، وتذكرت أمي وهي تهتف حانقة : « الولد الشيطان !! غافلني مرة أخرى وذهب يلعب عند الفجر !! » ..

ثم وهى تطلب منى أن أحضره لها . فتوجهت جنوبا ووجدته عند المعبد القديم منكوش الشعر يتقافز مع الماعز ويحاورها بين الكلأ ومن حول اصنام الفراعنة المتهدمة .

انتهى الضحك فى مذياع الجيران ؛ وبعد موجز الأخبار بدأ السلام الجمهورى يعزف ، لكن الصمت عم قبل نهايته ، فبدأت اسمع صوت انفاسى المضطربة .. تقلبت زوجتى وسألتنى :

ـ إيجافيك النوم ؟؟

تنهدت ولم انطق التصقت بى موشوشة :

ـ جربت من قبل وسيلة ناجحة للنوم ، حاولها الآن ..

ثم احاطتنى بذراعيها ومدت أناملها تعبث فى شعر صدرى . استدرت نحوها وشممت رائحتها وشعرت بثدييها فى صدرى . جامعتها ، وبعد ان فرغت سألتها ان كانت قد تناولت حبة منع الحمل ؟ ! فزامت واعطتنى ظهرها وانكمشت على نفسها ..

وعند الصباح توجهت اليه .. فتحت بابه فى هدوء ؛ فوجدته فى نفس رقدته ، محملقا فى سقف الغرفة بكفيه فوق صدره ! .. ارتعت : كانت عيناه محمرتين ووجهه شديد الصفرة وتنفسه طويلا بطيئا ، والغطاء لم يمس جسده !! .. سألته :

ـ ألم تنم ؟؟

ـ .. ..

توسلت اليه أن يحادثنى :

ـ ماذا فعلو بك ؟ ! الا تتكلم ؟ !

ظل ساكنا .

ـ الا تقول شيئا ؟ !

رمشت عيناه .

ـ تكلم أرجوك ..

فطلب منى كوب ماء . اندهشت : على الريق ؟ ! .. فكرر رجاءه وأحضرته له ، وتحامل فى نصف جلسة وازدرد بلعة واحدة ، استلقى بعدها .. وسألته ان كان يذكر ضاربة الودع؟؟ فاتجهت عيناه نحوى لكنه لم يكن ينظر الى ، قلت محاولا الابتسام :

ـ ضاربة الودع الفجرية التى قرأت لك طالعك ثم أعطتك الحجاب ؟ !

تحركت شفتاه ، لكنى لم اسمع همسة واحدة .. فتهدج صوتى وهتفت :

ـ ماذا فعلوا بى ؟ ! ماذا فعلوا بك ؟ !

وعندما أغمض عينيه عادنى صوت أمى تصيح متبرمة : « لا فائدة فى هذا الولد ، غافلنى كعادته وذهب يلعب عند الفجر » !!

امتلأت عيناى بالدموع ورأيت الكبش الأبيض يسبح بعيدا عن الصخرة السوداء ، وشعره المتهدل يتموج منسابا أسفل ذقنه وبطنه ، وبياضه يروح ويشحب بطيئا ليذوب فى بياض الفراغ الناصع .

النظرة فالابتسامة .. والعمر القصير

ـ مصرى ؟؟

ـ نعـم

ازاحت شعرها الذهبى ، غائصة فى عينى :

ـ يعجبنى لون عينيك ، أهو بنى ؟؟

ـ اظن ذلك

اربكتنى زرقة عينيها ، مالت نحوى مبتسمة :

ـ فانت من بلد الأهرامات وأبو الهول ، أهو جدك ؟؟

ـ من ؟؟

ـ أبو الهول .

ـ أبو الهول أسد له وجه انسان !!

ـ وهل هناك جد أروع من هذا ؟ !

ـ وهل هناك شفاه ابدع من هذه ؟ !

سحرتنى حيويتها . قلت :

ـ كان زهوهم الأكبر انهم من نسل الملوك الحكماء

ـ من هم ؟؟

ـ جدودى القدماء

نضارة بلا مساحيق ، وصفاء مريح ، وطيبة .. سألتنى :

ـ لماذا تكلمت معى ؟؟

ـ رأيتك تنظرين لى أكثر من مرة فتشجعت وخاطبتك

ـ وهل محادثة الآخرين تحتاج الى شجاعة ؟ !

ـ مجالستك أنت تحتاج الى شجاعة .

ـ لابد اننى مخيفة ؟ !

ـ بل لأنك جميلة ورقيقة

بسمة راضية ، وعيناها لا تفارقنى ، فهربت بنظراتى الى عاملة المقهى والزبائن واكواب الشاى وزجاجات البيرة ، وسمعتها تقول :

ـ امتلأ المكان بدخان السجائر ، فهل نخرج لنتمشى ؟؟

النور الأخضر ، وعبرنا الحديقة الفسيحة ، حيث الزهور والنافورات ، والأطفال فى ركنهم الخاص بالمراجيح والزلاقات .. قالت :

ـ تعجبنى ابتسامتك ، لماذا لا تبتسم دوما ؟؟

ـ تعجبنى عيناك ، لماذا لا تنظرين لى دوما ؟؟

واجهتنى بنظرة ثابتة ، متراجعة أمامى بنفس مشيتى ، والى أن لامست المقعد الخشبى فجلست ، وجاورتها ، واستدارت ، فعدت أهرب من زرقة عينيها .. قالت فى مرح :

ـ لا تدع امرأة تنفرد بعينيك طويلا ، الم يحذروك من هذا ؟ !

ـ من ؟؟

ـ جدودك الملوك الحكماء !!

ـ أظنهم قالوه فى جلسة خاصة

تشاغلت عنى بأحد الأطفال ، راحت تداعبه وتلاعبه وتقبله وتلاغيه ، ثم سلمته الى أمه وجاءتنى متوردة ، تقترح زيارة أثر قريب .. قالت تغرينى :

ـ شيده جدودى البسطاء منذ مائتى عام

لم اتحمس ، قالت :

ـ الآن جدودى لم يكونوا ملوكا أو حكماء ؟ !

ـ بل لأن دارنا فى الصعيد له نفس العمر تقريبا

ـ هكذا اذن ، نسيت انك من مصر !

عيناها .. قالت :

ـ قبل أن تجالسنى كنت تكتب بطاقة لشخص ما ؛ اكانت لزوجتك ؟؟

ـ ليست لى زوجة . . . . . .

ـ حبيبة اذن ؟؟

ـ صـديقة

مسكت معصمي تنظر الى الساعة :

ـ يمكنك الآن اكمالها ، يجب أن أعود الى عملى فورا

ـ وبعد العمل ؟؟

ـ ان كنت تعني ان نلتقى بعد ذلك فأنا غير مرتبطة

مضت .. وتسكعت وقتـا دون هدف ، الناس من حولى مسرعون ، عدا ثنائيات المحبين ، بالنضـارة والصفاء ، وشابة عند الناصية حائرة النظرة بين سـاعة المعصم والترقب فى اتجاه معين ، لاح منه صديقها اليافع ، فاندفعت تقبله ، متدفقـة وهو واثق .. لاحظت اننى الوحيـد الذى يراقبهما ، فشعرت بالخجل والبلاهة ، واستدرت منصرفا ، ورحت انتشى بالحسن والتناغم ، والتلاؤم بين النـاس والأشـياء ، جاءت على ذهنى شوارع القاهرة فأبعدتها على الفور .

مع اقتراب الموعد توجهت الى مكان اللقاء ، جلست انظر الى سـاعتى مشتاقا ، وعندما مددت يدى الى جيبى وجـدت البطاقة الناقصة ، فقلت املأ الوقت باكمالها ، قرأت المكتوب :

« خطيبتى العزيزة ، اكتب لك بمجرد وصـولى ، كمـا وعدتك .... » .

أمسكت القلم افكر ، وتذكرت لقاء الوداع ، وكفى خطيبتى فى صـدرى ، تصدان رغبتى فى تقبيلها ! .. والخيبة فى وجهها

وأنا احدثها عن شقتى ، قالت : « غرفتان فقط ؟ ! هــذا أمر جديد على اسرتنا !! » .. ثم صدت رغبتى الصادقة بكفيها !!

تأكدت من هروب الكلمــات ، ركنت القلم والبطاقــة ، ووجدتنى افكر فيمن انتظرها ، والتى لم أعرف اسمها بعد ، شاعرا بشوق عجيب اليها وحنين !

احمر وجهى مع بســمة مجيئهــا ، ولمحت هى البطاقــة فتمعنت فيها محتارة :

ـ تكتبون من اليمين الى اليسار ؟؟

ـ نعـم

ـ يبدو كالرسم ، هل تأخرت عليك ؟؟

ـ فى موعدك تماما

تأملت الخط :

ـ يبدو انك لم تكمل بطاقة صديقتك ؟ !

ـ خطيبتى

ـ قلت انها صديقتك ؟؟

ـ كذبت

ـ واين الدبلة ، الا تستعملونها ؟؟

ـ مع المفاتيح فى السلسلة

ـ ولمــاذا الكذب ؟ !

اطرقت خجلا . قالت فى سماحة :

ـ هل خشيت الا اقابلك الآن ؟؟

ـ اظن ذلك

ـ لم تكذب اذن ، كنت تحرص على ، وهذه رقة منك

احسست بتجاعيدى الدقيقة تتلاشى

شاهدت رموشــها يرمشا رمشا .. وضعت امامى علبــة صغيرة :

ـ كولونيا لبعد الحلاقة

ـ لى ؟؟

ـ لن تكون لى !!

ابتسمت مأخوذا . قالت :

ـ كم تعجبنى ابتسامتك !!

ـ اشكرك على هذه الهدية الرقيقة

ـ رقيفة وماكرة ، كى تتذكرنى بعد حلاقة كل صباح

تأملت شفتيها ، فاشمت خدى :

ـ وقد تداوم على استعمال هذا النوع

ســألتها :

ـ لماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟؟

ـ كدت افعلها مرتين ، لكنى فشلت

ـ امر مؤسف

ـ لماذا ؟ ! ان تكتشف عدم التوافق قبل الزواج أفضل من ان نفجع به بعده .. أليس كذلك ؟؟

ـ .. .. !!

ـ الا توافقنى ان اكتشاف عدم التوافق قبل الزواج افضل واصدق ؟ !

ـ طبعا طبعا ..

اشاحت بيدها متذكرة :

ـ أوه .. نسيت انكم تهتمون كثيرا بالعشاء !!

بعد العشاء ، بدات الموسيقى بالرقصات الهادئة ، البطيئة .. ومعظم الراقصين من كبار السن وعدد قليل من الصغار ، الكبار منضبطون تماما مع الايقاع ، خطوة وخطوتان حسب القواعد والأصول ، اما رقص الصغار فأربع أياد تحتوى جسدين متآلفين .

دعتنى الى الرقص .. واحتوتنى ناعمة ، النظرة فى النظرة، ثم الخد على الخد ، شمتنى وشممتها وتساوت حرارة جسدينا، الخطوات بطيئة والأحاسيس نشطة ، حلوة متفاهمة .

التهب الايقاع وجن ، فتى أرعن ، فاشتعل جسدها ، واتقدت نظراتها ، وخلت الساحة تماما للشباب ، متقاربين تأججا ومزاجا ، كأنهم راقص واحد وراقصة .. شرد ذهنى الى جلسات المقاهى والشيشة والطاولة ، لكنها أعادتنى هاتفة :

ـ ابتســم

ابتسمت فلثمت خدى .

وجاءت الاستراحة وجلسنا الى المـائدة ، والى احاديث التعارف ، عن حياتها وعن حيـاتى .. وانخطفت السهرة ، من رقص هادىء رزين ، الى لهث صاخب مشحون ، الى جلســات ناعمة هنية ، واخذنا الوقت صدقا وتلقائيا ..

***

جاءتنى من الحمام كالطيف ، وديعــة حانيــة ، مشتاقة كأننى حبيب عمرها ، تؤكد النظرة بلمسة الأنامل .. وفى نفس الاشراقة كان التدفق ، منها ومنى ، ولهفتها فواحة الأنوثة ، وقد نقص طولها بمقدار حذائها المخلوع .

لحظـات وامضــة وزالت ربكتى ، وطـافت هى بى الى أحاسيس عذبة نقية ، خالية من التصنع فأشعرتنى كأننى حبيبها فى لقاء أول ، عشيقها فى تفـاهم متجدد ، زوجها فى شهر العسل ، كأننى رفيق سنواتها الحلوة والمرة .

فى الصــباح الباكر راقبتهــا ترتدى ، وتتزين فى بساطة وخفة . ألقت لى قبلة عبر المرآة ، سألتها :

ـ متى نلتقى ؟؟

ـ فى نفس موعد الغداء

تناولت حقيبتها :

ـ هذا ان شعرت بحنين لى ورغبة

لثمتني :

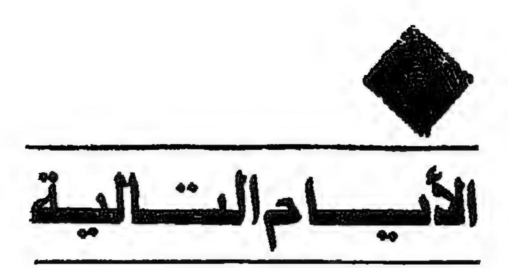
ـ وأنا بدورى سأنتظرك ان شعرت بلهفة اليك وشوق

عند الباب قالت :

ـ اذا لم يجد أحدنا الآخر فلا داعى لأن يجهد نفسه فى البحث عنه ..

انصرفت .. وراقبتهـا من النافـذة تعبر الحديقـة ، وتغيب .. ثم رأيت اما تؤرجح طفلتها فوق الأرجوحة ، ثم الطفلة بدورها تؤرجح دميتها ، لتمضى بعد ذلك فى أعقـاب أمهـا ، ووجدت نفسى أهتف فى أسى : « اين انت يا شـوقى بك ؟؟ يا شاعر النظرة فالابتسـامة فالموعد فاللقاء ؟ ! هأنذا قد عشت تجربة شهورك المبددة فى يوم واحد ، دون افتعال ، دون وقت ضـائع ، دون صد كفين » .

بعد الحلاقة تذكرت هدية الكولونيا .. وعلى مائدة الافطار اكتشفت ان البطاقة مازالت فى جيبى ناقصـة ، واننى لم ادون التاريخ فى بدايتها !! .. سجلته ، ثم رحت أفكر ان كان هنـاك كلام يمكن ان أضيفه ، فلم أجد سـوى ثلاث كلمات : « الناس هنا يعيشون .. »


الأيام التالية

لا يذكر البداية

يلوم نفسه لأنه لم يحدد موعده فى وقت مبكر ، لماذا بعد الظهر واليوم عطلة ؟ !

يعود الى جريدة الصباح محاولا القراءة لكنه لا يقدر على التركيز ، يقرأ طالعه اليوم ويبتسم ، ويركن الجريدة ليتابع خطوات زوجته المنشغلة فى شئون البيت ، لا تعلو بقدميها كثيرا عند السير ، وانبعاجات عديدة أثقلت جسدها ترهلا ..

يسمع صوت « السيفون » ، ثم يرى ابنه الكبير يخرج من دورة المياه وفى يده احدى الروايات ، يتأمل نحافته وابيضاض وجهه ويتعجب . تأتى ابنته الصغيرة لتجلس لصقا به ، تعبث بالجريدة بعض الوقت ثم تترك لخيالها العنان منطلقة فى أسئلتها المحلقة المربكة .. على عكس المرات السابقة لا يستجيب لها ، ويضيق بثرثراتها وبحلولها الغريبة التى تقترحها لأعسر المشاكل العالمية والكونية .

يدخل الحمام ليحلق ذقنه . على غير عادته ينظر طويلا الى المرآة . يطالعه وجه شاحب اللون وأنف مستطيل ، ويكتشف تجاعيد خطية سفيرة تحصر بينها فما لا يعلوه شارب .. وبقعتين سوداوين فوق كل منهما عين جاحظة تحملقان نحوه !!

يخرج الى الطريق ـ حتى اللسان رأى به بعض التشققات المصفرة !! أصبحت مفاصل الساق اليسرى تؤلمه ـ يجد على المقهى شلة العجائز المبكرين فينظر الى ساعته ، ويفكر ان كان يجلس قربهم أم يسرع الى حفلة الصباح للفيلم الهندى ..

سرعان ما يسود الظلام فى صالة العرض ، وتبدأ الجريدة الاخبارية . يخرج علبة السجائر ليشعل واحدة .. **قال له الطبيب : اطمئن أنت بخير ، لكنه أمره بالاقلال من التدخين ،** فيعيد العلبة ، يرى فى الجريدة لقطة لأحد السفراء الأجانب يقدم أوراق اعتماده الى رئيس الجمهورية .. ثم لقطة لصاروخ يهبط فوق سطح القمر ليقلع منه ثانية عائدا ، يدهش جدا ويثنى فى سره على عظمة هذا العمل .. ثم يشاهد فقرة مصورة فى هيئة الأمم المتحدة لم يفهم تماما المقصود منها .. وبعد ذلك تطالعه بعض الوجوه الصفر فيرجح أنهم اما من اليابان أو من الصين ثم يكتشف أنهم من فيتنام ، فيعرب للجالس الى جواره عن شدة اعجابه بكفاح هؤلاء الناس ؛ لكن جاره يهز رأسه فى اقتضاب وعزوف عن الكلام .. ويشعر بضيق شديد عندما ينهض هذا الجار لينزوى فى أقصى الصف ! .. ويجد نفسه يشعل سيجارة رغما عن أوامر الطبيب ورغما عن تعليمات ادارة السينما .

بعد الاستراحة والاعلانات يبدأ الفيلم الكبير . قالوا له فى المكتب : انه فيلم ظريف بالألوان الطبيعية ، وانه من إطول

الأفلام الهندية ، وبه رقصات مسلية وأغان كثيرة ممتعة الى جانب أنه يحكى عن حياة بعض المساكين الشرفاء .. وطوال مدة العرض ، لم يمنعه استمتاعه بتكييف الهواء من أن يحزن فى حرارة وصدق على فقراء الهند حزنا شديدا .

يخرج من السينما وقد قرب موعده المنشود . يستقل احدى سيارات التاكسى مخبرا السائق عن وجهته ، يستعيد السائق اسم المكان فيؤكده له .

فى الطريق يتساءل : متى كانت اول مرة فكر فيها فى هذا المشروع ؟ ! لكنه يأخذ فى مراقبة السائرين : تسبقهم الأقدام اليمنى مع الأيدى اليسرى ، ثم نتبادل معها تلقائيا الأقدام اليسرى والأيدى اليمنى ، يتكرر ذلك دائما طالما هم سائرون!! . يبتسم ابتسامة نصفية تكتمل عند رؤيته لبعض الأطفال يلعبون .. وتمتلىء نظراته بالاعجاب من بعض النساء الصغيرات ، يهمس فى شىء من الحسرة والأسى : انيقات وفتيات ... وبعد قليل يضيق صدره من رؤية بعض الأماكن القذرة البائسة .

يخف ضجيج المدينة .. ثم يحيط الخلاء بالطريق من الجانبين . **وقال الطبيب : وعليك ألا تجهد اعصابك كثيرا ...** ثم يترامى عن قرب المكان المنشود ، خفيضا كالحا مهجورا .. فمتى فكر فى الابتعاد عن مكان الأجداد ؟ !

عند نهاية أسفلت الطريق يتوقف به التاكسى ويسأله السائق ان كان سيعود فيرد فى غضبة مباغتة :

ــ طبعا يا أخى ..

ـ آسف يا سيدى .. أقصد هل ستعود سريعا حتى انتظرك ؟؟

ـ كما تحب .. لن اغيب طويلا ..

وتدوس قدماه فوق التراب .

عند نهاية الحارة الترابية يجد المقاول فى انتظاره مبتسما مرحبا ، يتقدمه ليريه الطريق . لا أحياء غيرهما والشمس حامية والظلال قليلة ، معظم البنايات من حوله واطية لا تعلو كثيرا عن سطح الأرض ، بعضها عال فاخر الى حد كبير .. طليت الغالبية بالجير الأبيض وزركش القليل فى بذخ ظاهر .. يبتسم فى داخله : الفوارق الطبقية حتى الرمق الأخير ! .. يتجهم وجهه فى قسوة : التقطيبة هى المظهر الملائم لهذا المكان .. لكن كيف بدات فكرة هذا المشروع ومتى كانت اول مرة ؟ !

يتوقف المقاول فيسأله :

ـ هنـــا ؟؟

ـ نعم . موقع ممتاز كما ترى .

يتأمل مساحة الأرض الصغيرة الخالية ، تقرب من مساحة غرفة الأولاد .

يندهش :

ـ لكنها لن تكون فسيحة ؟ !

ـ بل فسيحة بما يكفى يا سيدى ..

ربما .. وقد تكون غرفة الأولاد بادية الضيق لازدحامها بالأثاث . المقاول يسأل :

ـ وأى لون تفضل ؟؟

ـ ماذا ؟ !

ـ ابيض ام ازرق ام سماوى ؟؟ .. جارك هنا جعل اللون فى الداخل بنيا ..

ـ البنى كئيب ، انا أرتاح الى لون السماء .

ـ اختيار ينم عن الذوق .

ـ اشكرك .

يدون المقاول ملاحظاته فى نوتة صغيرة ثم يقول :

ـ لكن جارك هذا طلى السقف فقط بلون السماء ..

ـ أريد السقف والجدران ..

ـ فهل تريد أية رسوم على السقف ؟؟

ـ ما الداعى ؟ !

ـ هو رسم بعض النجوم وأربعة ملائكة يبتسمون . مسألة مزاج ..

ـ اريده بلا رسوم .

ـ فهل تريد بعض التماثيل ؟؟

ـ للائكة أيضا ؟ !

ـ يمكن أن تكون للائكة ، ويمكن أن نجهز لك تمثالا نصفيا أو بالحجم الكامل .

ـ لا داعى ...

... فسوف أتواجد بنفسى .. وعندما كان طفلا سمع أخاه الأكبر يقول :

((ماما ماتت ، ماما ماتت)) .. ثم رآه ينتحب باكيا فبكى مثله ، وبعد ذلك صعد الى سطح الدار وطارد الدجاجة الفيومى .. لكنه بعد سنوات انفرد بالبنت فتحية فزنقها فى أحد أركان السطح وأخذ يقبلها ويعبث بثدييها الصغيرين ، وقاومته يومهـا بضراوة ، لكنها صعدت معه فى الأيام التالية .

المقاول يسأل :

ـ وفى الخارج ؟؟ أى لون تفضل ؟؟

ـ الأبيض .

ـ بالزيت أم بالجير ؟؟

ـ الأفضل بالرخام .

ـ يكلف كثيرا .

ـ ابيض بالزيت .

ـ عظيم .. واللافتة ؟؟

ـ اية لافتة ؟ !

ـ لابد أن نضع لافتة بالاسـم . جارك هنـاك كتب عدة آيات على الرخامة وتحتها حفر أسمه ..

ـ فلتحفر الاسم فقط ..

يفاجأ بوجود كلب أسود كبير ، يتودد اليهما بهزات ذيله المتسخ بالطين ، يلقيه المقاول بطوبة ثم يعود ويبتسم ابتسـامة العمـل :

ـ اعطنى الصيغـة من فضـلك حتى أكلف الخطـاط بتجهيزهـا .

ـ فلنقل مثلا .. فليكتب اسمى فقط ، لا أكثر ولا اقل .

متى كانت أول مرة فكر فيها فى الابتعاد عن مكان الأجداد ؟ !

ـ باللون الأسود أم المذهب ؟؟

ـ الأسود اليق .

ـ تريده بالخط الكوفى أم بالنسخ أم بالرقعة ؟؟

ـ بالرقعة .. أعتقد بالنسخ أفضل .

ـ أجمل واسهل فى القراءة ..

ـ السهولة مطلوبة فى هذه الأحوال .

يرمق المقاول وهو يومىء فى جدية ، ثم تتحول عينـاه الى امراة وحيدة فى سواد ، تقف خاشعة فى مواجهـة احد الأبنية : زوج أم ابن أم أخ أم حبيب ؟؟ .. يشرد ذهنـه الى زوجته : من سيكون الأول ؟؟ لا توحى تجاعيدها ونسبة الشيب فى رأسـها بأنها سوف تكون البادية .. يهز كتفيه : العلم فى الغيب ، وعندما كان صغيرا كان يظن أن الموت يأتى للآخرين فقط ، أما الآن ! .. **(فجأة يجد نفسه وقد فارق الحيـاة توا ، وهو مكفن فى ثوب أبيض وزوجته تبكيـه بكاء مرا وهى فى لباس يشبه السـارى الهندى ، بينما العمال فى الساحة يعدون الحطب والوقود استعدادا لحرق جسده ، بينما واحد منهم يتأمل جسد الأرملة الحزينة) .**

يعود الى وجه المقاول ليجد أن ابتسامة العمل قد عادت الى وجهه وهو يقول :

ـ نحن ننفذ بكل دقة طلبات الزبائن يا سيدى ..

ـ هذا واضح ..

ـ فلا تتضايق من كثرة أسئلتى ..

ـ ابدا ابدا .

(ثم يرى زوجته تبكى حزينة امام قارورة صغيرة بها رماد كل جسده) .. الا أن المقاول يسأله :

ـ فهل تحب أن نزرع حوضا صغيرا من الزهور أمام الباب ؟؟

ـ لا يضر .. ولكن من سيرعاه ؟؟

ـ سندبر ذلك .

ـ حسن .

ـ فأى نوع من الزهور تحب أن نزرع ؟؟

ـ لا افهم فى الأنواع ، أريده وردا بألوان جميلة ورائحة عطرة .

ـ هذا له سعر وهذا له سعر ، لكن الفرق ليس كبيرا .

ـ لون جميل برائحة عطرة .

ـ سنفعل لك ذلك ، فهل تريد نباتات متسلقة ؟؟

ـ لبلاب ؟؟

ـ لبلاب أو فضيبة ، فى شهور قليلة يمكن لشجرتين أن تغطى أوراقهما كل البناية .

يومىء فى ملل : الخضرة طيبة . يتابع النوتة وهى تعود الى الجيب .. ويذكر نفسه بالمانجو ، عليه أن يبتاع ــ وهو فى طريق العودة ــ بعضا منها للأولاد ، زاد سعرها كثيرا عن سعر آخر مرة اشتراها ، لكنه سوف يبتاع منها ما يكفى أسرته ، الأولاد يحبون المانجو ، خاصة البنت الصغيرة ذات الأسئلة المربكة ، تظل فى شرفة البيت تراقب الشارع حتى تراه قادما فتهلل بأعلى صوتها : « بابا عاد .. بابا عاد .. » .

يرجع الى وجه المقاول فيجد ابتسامته التى لا تتغير ، وفمه يقول :

ــ سوف ننفذ كل ذلك على أكمل وجه يا سيدى ..

(ومن فوره يتخيل البناء مشيدا مطليا وقد ثبتت اللافتة باسمه واسم أسرته) ــ ورأى قفصه الصدرى وهيكله العظمى فى صورة غريبة ، فلما انزل صورة الأشعة عشى الضوء عينيه ، وعندما استبان له وجه الطبيب رآه يبتسم قائلا : « اطمئن . عليك فقط بالاقلال من التدخين والابتعاد عن الاجهاد وتجنب النرفزة ومناطق الضجيج » ــ فقط !!

يشعر بانقباض قاس وبدوار خفيف . يبادر قائلا :

ــ أشكرك . يمكننى الآن أن أمضى ..

ــ سؤال أخير من فضلك

ــ تفضل ؟؟

ــ القفل ؟؟

ــ ماذا ؟ !

ـ طبعا نشترى للباب قفلا ثقيلا متينا ؟

ـ وما الداعى ؟ !

ـ لصوص هذه الأيام يتاجرون فى كل شىء .

يبتسم مستسلما مزمعا الانصراف :

ـ لن يسرقونى !!

غير أن المقاول يقطب فى جدية :

ـ سيدى .. كلية الطب تقع قريبا جدا من هذا المكان .

نوفمبر ١٩٧٠

الوباء الرمدى

كان ما رايته غريبا حقا !! لم أر مثله من قبل ، رغم أننى رأيت الكثير .

كنت منصرفا عقب أن أنهيت زيارتى للمدرسة الثانوية بالمدينة ، وحدث أن دق جرس الانصراف ، وبدأ التلاميذ يهرولون خارجين من فصولهم صاخبين مهللين .. لكننى لاحظت أن تلاميذ فصل ثانية علمى خامس كانوا أسرع التلاميذ هرولة ، فرادى ، وفى هدوء مريب !! وقد تشاغل كل واحد منهم عن باقى زملائه بترتيب كتبه !! .. وليس هذا هو الأمر الغريب الذى لفت نظرى ، العجيب حقا أن معظم تلاميذ الفصل كانوا يضعون فوق عيونهم نظارات سوداء !!

لأول وهلة ظننتهم مكفوفين الا أنهم كانوا يعرفون طريقهم جيدا .. قلت ربما « وباء رمدى » ، سألت الاخصائى الاجتماعى فقال :

ـ هذا الفصل الآن اهدأ فصول المدرسة ..

ـ وقبل ذلك : هل كانوا يضعون هذه النظارات السوداء ؟؟

ـ على الاطلاق ..

مددت زيارتي لعدة ايام وقد صممت على معرفة الحقيقة ، فتقمصتني شخصية المحقق ..

● ماذا قال الطالب فتحى عمار ؟؟ :

ـ صر البـاب . اندفع النـاظر . كنت أجلس فى الصف الأمامى . وقفنا . رايت خدشـين فى ذقنه حـديث الحلاقـة . جلسنا . قفز بطنه نحوى بشدة (فى البداية قال : قفز كرشـه نحوى بشدة ، ثم استدرك وقال : قفز بطنه) فسمعت صـوته نهرنا فى حدة : « ثانية علمى خامس . كل المدرسين اشتكوا لى منكم » . ارتج بطنـه متذبذبا منتفخا مسحوبـا حسـب عنف التتائم . دار علينا يضربنا بالخيزرانة . واحدا بعد الآخر . أربع ضربات لكل تلميذ . قسمت الضربات ، اثنتين على الكف اليسرى واثنتين على الكف اليمنى . كان فى عنفوان قوته معى لأنه بدأ بى ..

ـ ما سبب هذا العقاب فى رايك ؟؟

ـ لا أعرف

ـ لا تعرف ؟ !

ـ حتى الآن لا أعرف

ـ لمـاذا تستخدم هذه النظارة السوداء ؟؟

ـ لأنها تناسب وجهى .

ـ ألم نحاول أن تسأل عن سبب هذا العقاب ؟؟

ـ لمـاذا اسأل وانا قد عوقبت بالفعل ! .

● **ماذا قال الطالب حامد الأشقر ؟؟ :**

ـ غاظنى أن الناظر يضربنى بلا سبب ، مددت له يدى ؛ وكان قد ضرب صفا كاملا ، ضربنى مرتبن على كفى اليمنى ، وانتظر أن أنقل اليه كفى اليسرى ككل التلاميذ لكنى لم افعل . ضرب الثالثة فلم أغير كفى وظللت مركزا عينى فى عينيه فهبطت الضربة الرابعة عنيفة مفرقعة عصبية ..

ـ آه .. حسن ..

ـ ما هو الحسن فى ذلك ؟ !

ـ لا شىء ، ولكن ما سبب كل ذلك فى رايك ؟؟

ـ قال ان المدسين قد شكونا اليه .

ـ ولمـاذا فعلوا ذلك ؟؟

ـ لا اعرف .. لا أعتقد ..

ـ سؤال اخير : لمـاذا صممت على تلقى الضربات الأربع على كف واحدة ؟؟

ـ قبلى صرخ الولد اشرف حتى من قبـل أن تلمسـه العصا ، تماما كالأطفـال ، واردت أن اثبت للناظر أن هنـاك رجـالا .

ـ هل كنت تستعمل هذه النظارة ؟؟

ـ مـاذا ؟؟

ـ هل كنت تستعمل هذه النظارة من قبل ؟؟

ـ لا ..

ـ لـماذا اشتريتها ؟؟

ـ أعجبتنى ..

ـ الا يوجد سبب آخر ؟؟

ـ ابدا .. اعجبتنى فاشتريتها .

● **الطالب عماد اسماعيل :**

ـ عندما جاء دورى فى الضرب رفضت مد يدى . قلت : ان القانون يمنع الضرب .

التفت الناظر الى المدرس وقال له : « هذا الولد يتحدث عن القانون !! » .. ثم أوقفنى عند السبورة فوقفت . كانت حصة كيمياء عن المركب والمخلوط ..

ـ وهل هناك فرق بين الكلمتين ؟؟

ـ طبعا .. المخلوط يتكون من عدة عناصر ليس بينها تفاعل ، ويظل كل عنصر فيه محتفظا بخواصه دون تغير .. أما المركب فهو نتج من التفاعل الكيميائى بين عنصرين أو أكثر .

ـ فهمت فهمت ، المركب فيه تفاعل أما المخلوط فمجرد تجاور .

ـ شيء مثل هذا . المهم أن الناظر بعد أن انتهى من ضرب كل الفصل أمرهم بالوقوف ثم اختار الخمسة الطوال فيهم واخرجهم الى جوارى .. لكن المدرس همس اليه فعاد واستثنى من بيننا رسمى الديب ، أسمعت عن والده ؟؟

ـ سمعت ..

ـ قلت للناظر : لماذا نحن ؟ ! .. قال : أنتم مفصولون.. قلت له : هل لأننا طوال القامة ؟ ! قال : اخرجوا .. قلت له : ولكن رسمى الديب أطول وأعرض منا !! فصرخ وقال : لا تعودوا الا ومعكم أولياء أموركم .

ـ وبعد ؟؟

ـ خرجنا الى الشارع ..

ـ هل تشعر بمرض فى احدى عينيك ؟؟

ـ لا .. لماذا تسأل ؟ !

● الطالب حسين أحمد سامى :

(علمت فيما بعد أن اسمه الحقيقى : حسين على سراج) .

ـ فى الفصل قلت للناظر : لكننى ضربت دون أن اعترض فلماذا تفصلنى ؟ ! .. وفى الشارع قلت لعماد اسماعيل : لولا سلاطة لسانك لما حدث كل ذلك ، كنا ضربنا وانتهى الأمر .. فغضب عماد واتهمنى بالجبن .. فقلت له أن يكف عن تصرفات المراهقين ..

ـ كم عمرك ؟؟

ـ أكبر منه بعامين .

ـ لماذا تضع هذه النظارة القاتمة ؟؟

ـ عندى حساسية ضد الضوء القوى .

ـ طيب ، نعود لحكايتنا ..

ـ كدنا أن نتشاجر نحن الخمسة . لكننا رأينا أحد تلاميذ الفصل يقفز ما فوق السور . ثم ثانيا ثم ثالثا حتى تجمع معظم الفصل ما عدا اربعة أو خمسة منهم رسمى الديب المستثنى .. اتعرف والده ؟؟

ـ سمعت عنه ..

ـ وعرفنا ان نادر طه مبروك هو الذى أقنعهم بالتضامن معنا ..

ـ ما رايك فى نادر طه مبروك ؟؟

ـ لا احبه .

ـ ولكنه حرض الفصل من اجلكم ؟ !

ـ لا أحبه .

ـ هل هو متفوق فى الدراسة عنك ؟؟

ـ ليس لذلك ..

ـ اذن ؟؟

ـ عندما حدثت الوشاية فيما بعد من بعض التلاميذ لدى الناظر ، حدث أن رآنى نادر آخرج من غرفة الناظر فأشاع فى الفصل أننى جاسوس الادارة ..

ـ لا يبدو عليك ذلك ..

ـ شكراً .

ـ هل من الممكن أن أتفرج على نظارتك ؟؟

ـ تفضـــل ..

ـ عيناك جميلتان ، فلماذا تخفيهما بهذه النظارة القاتمة ؟!

ـ قلت لك عندى حساسية ..

ـ أحقا .. كانت هناك وشاية اذن ؟؟

ـ وأنا أشـــك فى أربعـــة تلاميـــذ أولهم نادر ، ابن الفلاح الخبيث ..

ـ وماذا كنت تفعل لدى الناظر ؟؟

ـ كنت أقدم له طلبا لاعفـــائى من رسوم مجلس الآباء .. والدى فقير .

● **السيد/ طه مبروك :**

(فلاح ـ والد نادر)

ـ لا أحب النزول الى المركز ، ولا استريح الى أهل البنادر. واكره دخول مكاتب الحكومة ، لذلك فقد تضايقت عندما جاءنى استدعاء من ناظر مدرسة نادر . نزلت المركز وتوجهت الى المدرسة الى غرفة الناظر ، فرحب بى الرجل ، وطلب لى القهوة ، ثم الكازوزة ، وظل يمتدحنى قائلا بأنه عرف أننى رجل طيب وفى حالى ، وبأنى أصلى الفرض فى وقته .. فلما دهشت قال انه سأل المدرسين عنى .. زادت دهشتى ، ولكنى سكت ، وقلت فى بالى ربما كان بالمدرســـة أحد المدرســين من أبنــاء قريتنــا ولا أعرف .. ثم كلمنى عن نادر ابنى ، قال انه ولد نبيه ..

قلت له اننى عرفت ذلك من حادثة حصلت له عندما كان صبيا صغيرا ، وكنا فى انتظار القطار على رصيف السكة الحديد بالمركز، ونظر نادر فرأى السلك المجاور للرصيف يهتز فهتف بأن القطار قادم ، نظرت فلم أر شيئا ، لكن بعد قليل جاء القطار بالفعل !! . ومن يومها قررت ادخاله المدارس ، فلما انهى الابتدائى دفعت له اشتراكا فى قطار الركاب حتى يتوجه الى المدرسة الثانوية بالمركز .. ابتسم الناظر — مثلك هكذا — ثم قال لى : انت النموذج الصالح للأب المكافح ، فخجلت من هذا القول .. ثم قال انه استدعانى من أجل مستقبل ولدى . وفى الحقيقة فقد اعجبنى هذا الناظر ..

— هل أخبرت ولدك بما دار بينك وبين الناظر ؟؟

— طبعا . قلت له : عملت زعيما على آخر الزمن فخانك أصحابك ووشوا بك لدى الناظر ، وقالوا له : انك انت المحرض الذى ضحك عليهم !!

— فماذا كان رد فعله ؟؟

— بهت وجهه ، وظل صامتا عدة أيام لا يأكل الا القليل .. حتى عادوا الى المدرسة ليفاجئنى بعد عدة أيام بأنه يريد أن يشترى نظارة سوداء !! .. لم أعارضه ، وقلت لعل ذلك يخفف من أحزانه .

● ولى أمر الطالب حامد الأشقر :

— رغم أنه أضأل اخوانه جسدا ، فقد تلقى الضربات الأربع على كف واحدة .. أنا عمه ، ولى أمره ، توفى والده فصرت

الوصى عليه ، بعد شهور يستطيع أن يستقل عنى ان أراد ...
شاى ام قهوة ؟؟

ــ شكرا .. حدثنى عن مقابلتك للناظر ..

ــ هذه المدرسة من أقدم المدارس بالمحافظة كلها ، كان أول ناظر لها انجليزيا ، كان يسير بعد الظهر فى الشوارع ببنطلون قصير ؛ أحمر الوجه والفخذين لكن كل أهل المركز كانوا يهابونه..

ــ كان ذلك فى المـاضى ..

ــ طبعا . أيام الملك ، ثم جـاء من بعده نظـار مصريون كثيرون ، وشـهادة لله فان النـاظر الحـالى هو افضـلهم ..
كازوزة ؟؟

ــ شكرا .. حدثنى عن المقابلة ..

ــ اكتشف أنه يعرف عنى كل شيء . قال انه سمع من كل الناس عن طيبتى وعن أسرتنا ، وانه يريد مصلحة ابن اخى ..

ــ ماذا قال عنه ؟؟

ــ قال انه فتى مراهق ، وان من فى سنه يكون شغوفا بحب التزعم والمشاغبة ، وان هـذا الكلام هو نفس ما يقوله علمـاء النفس .. ثم أسر لى بكل الوقائع ، وقال ان بعض التلاميذ ممن يتظاهرون بصداقة ابن أخى هم الذين أخبروه بذلك ، سرا .. ثم اخبرنى أيضا بأن البوليس حذره من هؤلاء التلاميذ .

ــ هل ذكر لك الأسماء ؟؟

ــ لم اسأله . وشكرت له ثقته بى ، فهو لم يفعل ذلك مع احد غيرى .

ـ وكيف تصرفت مع ابن أخيك ؟؟

ـ نصحنى الناظر بألا أعامله بالشدة ، وانما بالتفاهم . قلت لحامد : كدت تضحى بمستقبلك من أجل أصحابك فانظر ماذا كان ردهم لجميلك !! .. ثم أفهمته أن كل انسان فى هذا الزمان لا يعيش الا لنفسه ، وكل واحد تكفيه همومه ، فلا أحد يحمل هم أحد .. أليس كذلك ؟؟

● **الطالب أ . س . د . :**

(طلب عدم ذكر اسمه بالكامل) .

ـ من رأى فتحى ان الواشين هم : احمد وعباس ومجدى .. ومن رأى أحمد أن الخائن : اما مجدى أو فاروق .. ويقول حسين ـ وأنا أثق فى آرائه ـ أن الواشين هم : نادر وسامى وعلى .. أما أنا فقد أصبحت أركز شكوكى فى سبعة تلاميذ ، ثلاثة منهم على الأقل هم الجبناء الخونة .. وفى جميع هذه الأحوال فهناك عدد من الواشين غير المعروفين بالتحديد حتى الآن .

ـ ما رأيك فى الناظر ؟؟

ـ سيدى أنا لا أعرفك ..

ـ يمكنك أن تثق بى .. ما رأيك ؟؟

ـ سيدى .. لا رأى لى .

● **الطالب نادر طه مبروك :**

ـ يصل قطارى من القرية الى المركز فى وقت مبكر عن موعد بدء الدراسة ، وبذلك يكون أمامى وقت أقابل فيه عددا

كبيرا من التلاميذ . كنت أسأل نفسى كلما جاءت عينى على احدهم : أهو واحد من الواشين ؟؟ وعندئذ لا تبقى نظراتى فى نظراته .. لذلك تجنبت كل التلاميذ ، ولاحظت أنهم يفعلون المثل .

ـ شىء قاس !

ـ بل فظيع . اختلطنا فى الفناء .. قلنا : « السلام عليكم » ورددنا : « وعليكم السلام ورحمة الله » .. أكثر من ذلك لم نتكلم .. فقط عندما يسأل أحدهم فى ملل بصوت بارد غريب عن موعد انتهاء الحصة . لاحظت أن عيون الجميع تلعب لعبة المراوغة ، لا تتلاقى أبدا .. أبدا .. عاملت بعضهم بمجرد الريبة والشك وبعضهم بيقين قاتل . أصبح جرس الانصراف عندى هو أجمل ما فى اليوم كله . الابتسامات تحولت الى شىء غريب لم أشاهده من قبل يظهر قسرا على الشفاه ..

ـ الم تحاول أن تعاتب أحدهم ؟؟

ـ حاولت مع سمير جارى فى المقعد . أول مرة تكلمت معه هبطت نظراته الى الأرض ، تانى مرة لاذت عيناه بما وراء ظهرى، وفى المرة الثالثة صمد هو لنظراتى .. فتجنبته أنا ..

● الناظر يتكلم :

ـ بعد أن قفزوا كالقرود من فوق السور وخرجوا الى الشارع ، التفوا وجاءوا أسفل حجرتى وظلوا ينادون : « أبو كرش ، أبو كرش » .. ولما اختلست النظر اليهم من وراء الشيش هتفوا : « شايفينك ، شايفينك » .. الملاعين الصغار !! .. لكن النظام استتب حتى النهاية .

ـ الم تتساءل عن سر النظارات السوداء ؟؟

ـ لاحظت ذلك فى البداية . ومن رايى أن هـذه النظارات ضرورية فى مناخ شمسه ساطعة حراقة كشمس مصر ، انا نفسى اضع نظارة سوداء كما ترى . هل انت معى فى ذلك ؟؟

ـ ... ...

ـ وعلى كل حـال فقد فعلت ما فعلت من أجـل صـالح الجميع : النظـام ، وأولياء الأمور ، والمدرسـين .. وابنـائى الطلبـة .

يونيو ١٩٧٠

غمزة العـين

لم نصل الى جواب اكيد ..

وكانت هذه أول مرة نعرف فيها أن فتحية ما زالت بكرا ، وأن أمها فرضت عليها رقابة قوية واصرت على بقائها هكذا حتى تكمل السادسة عشرة ..

ـ وبعد ذلك ؟؟

قال سمير :

ـ وبعد ذلك تنزل الى السوق مثل أمها .

شعرت بضيق :

ـ فكم عمر فتحية الآن ؟؟

قال سمير :

ـ امامها شهران لتكمل عامها السادس عشر .

قال فهمى :

ـ ثلاثة أسابيع فقط .

وقال حسين :

ـ بل عام كامل رغم فوران الجسد .

لم نصل الى جواب أكيد وانتهت الفسحة .

بلحاهم وذقونهم الحمراء وبنطلوناتهم القصيرة ساروا فى الصباح المبكر ، بمخلاتهم فوق ظهورهم يتأملون البيوت القديمة فى جنوب البلدة .. سياح فقراء قال سمير :

ـ وهكذا يجوبون العالم بأقل النفقات ، حتى وصلوا الى بلدتنا هذه التائهة فى مجاهل الصعيد !!

تأملنا البنت النحيفة معهم بصدرها الصغير وشفتيها الرقيقتين ..

ـ حتى الجنس لديهم صار كالمأكل والمشرب ، لا يعقدونه ..

توقفوا طويلا أمام احدى البنايات العتيقة ، يحملقون فيها مبهورين . توقعنا أن يتجهوا الى حيث آثار الفراعنة فى أرض المعابد ، فسحبنى سمير صوب الحارة الضيقة المقابلة :

ـ اليوم نختصر طريقنا الى المدرسة .

سرنا بين صفين من البيوت المفتوحة الأبواب ، مداخلها مساحات من العتمة المطنة . سمير ما زال مبهورا :

ـ لاشك فى أن ذلك يؤثر على شخصياتهم ، طلبة فرنسا مثلا أجبروا حكومتهم على الاستقالة منذ سنوات ، طبعا تذكر ذلك ؟!

لكن الحيوان الصغير عبر الحـارة ركضا فى لونه الرمادى فهتفت :

ــ هل رايته ؟ !

ابتسم سمير وقال :

ــ الا تعرفها ؟ ! انهـا « العرسة » التى تعيش على مص دماء الدواجن ..

ثم ضحك وقال موضحا :

ــ انها « دراكولا الدجاج » ينقض على عنق الدجاجة يعرف جيدا مكان عرقها ، ولا يتركها الا جسدا بلا دماء ..

ــ لنخرج الى أقرب شارع مرصوف ..

ــ هناك مفاجأة ..

ــ لنترك هذه الحارة ..

قـال :

ــ سوف اريك فتحية .

اخذنى من حوار طويلة متعرجة الى أخرى قصيرة متعددة ، وكانت البيوت متشابهة والوجوه متقاربة والرائحـة واحدة ، وصـار الشـمال كالجنـوب والشرق كالغرب ، وضـاعت منى الاتجاهات ، وأحسست بالرطوبة تتسلل الى بدنى ، فمشيت كما يمشى سمير ... فتحية هذه التى تدور من حولها همسـات التلاميذ ، والتى سمعت عن امها الكثير .

فى طابور الصباح انهمك الناظر فى القاء تعليماته اليومية ، لكن حسين همس لى بان « ام فتحية » هـذه خبيرة فى مهنـة

الامتاع ، كل زبائنها من كبار الموظفين وعدد من أثرياء الريف .. وفوق الدرج الصاعد الى الفصل قال فهى انها غالية السعر جدا .. لذلك أكد لنا ممدوح فى معمل الكيمياء أن أحدا منا ـ حتى من تلاميذ السنوات الأعلى ـ لم يضاجعها ، ومن قال غير ذلك لا تصدقه .

لكزنى سمير :

ـ انظر ..

طبق الفول فى يدها وتحت ابطها عدد من الأرغفة ، على عكس كل البنات فى بلدتنا ليست فتحية سمراء أو قمحاوية اللون وانما شديدة البياض نظيفة ، قفازة النظرات ، تمشى تتضاحك مع المارة .

حملقت نحوها . همس سمير :

ـ رائعة من جميع زوايا الرؤية اليها ، اليس كذلك ؟؟

تسمرت مأخوذا وكانت ترمقنى مبتسمة ، فجذبنى بالحاح :

ـ حذار ، جميلة لكنها شرسة .

فى عذوبة شديدة ـ ولدهشتنا ـ غمزت لى باحدى عينيها . فشهق سمير .. وفى نعومة بالغة ـ وقبل أن تختفى فى عتمة دارها ـ التفتت نحوى وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى ، فدام الصمت لحظات ثم وضع سمير كتبه تحت ابطه ليضرب كفا بكف :

ـ انها تحملق وتبتسم لكل التلاميذ ، لكن ان حاول

أحدهم مغازلتها شتمته هو وامه ومن خلفوه .. لكنها معك انت ــ انت !! ــ لم تفعل ذلك !!

فى فناء المدرسة وأثناء الفسحة الصغيرة خيل الى أن معظم التلاميذ يعرفون واقعة القبزة . فشعرت بالزهو . وامام الباب الخارجى تعجب احمد :

ــ مع أنك لا بالجميل ولا بالوسيم !

وفى الأيام التالية تعودت خطواتى على الوصول قرب دارها فى نفس وقت خروجها لشراء الافطار ــ كما تعودت هى ان تأتينى فى احلامى ــ وصار طريق الحوارى هو طريقى فى كل الأيام، وصرت أعرف تفاصيله بكل دقة :

فى الانشاءة الأولى أجد الدار التى يكشف طلاؤها القديم عن الطوب اللبن ، ثم أسمع الصوت الرجالى الذى ينهر احدى النسوة ولم أسمعها ترد عليه أبدا ، ثم أرى البيت حديث الطلاء الذى « حج صاحبه وزار قبر النبى المختار » .. بعد ذلك أعبر مثلث الشمس المتسال الى الأرض لأقرأ التحذير التالى : « ممنوع لصق الاعلانات بأمر الحكومة » لكن بجواره عدة اعلانات انتخابية لمرشحين عن الفئات المختلفة ، وبخط ردىء : « يعيش فريق الصقر الأسود : الكابتن منصور » .. وتعودت على رؤية العرسة تجرى وتقفز فوق بقع الطين ، ومرة رأيت قطا يطارد احداها لكنها اختفت فى جحر ضيق الفتحة .. وكلما رأيت دجاجة ملقاة فى الحارة متخشبة الجسد متقلصة الأصابع زرقاء البشرة عند البطن والصدر ، وكلما رأيت الجرح الغائر فى عنقها وخط الدماء المتجمد حول منقارها تخيلت الموقف : يكون الوقت ليلا وتكون الدجاجة نائمة ، وتستيقظ على عنقها فى فم

العرســة فلا تقدر الا على الصــياح المكتوم ، وفى بطء تتسرب دماؤها فتحس بخدر ووهن وتتقوس أصابعها ويزرق جسدها .

لكنى فى نهاية كل ذلك أجد ابتسامة فتحية . أنظر صوبها فقط ، احيانا تسعدنى بابتساماتها ، أحيانا أخرى لا تشعر بى ، مرات قلائل تخيلت انها ستسبنى فانكمشت فى نفسى ، ومرة شاهدتها تلتقط فردة شبشبها وتجرى مطاردة عرسة رمادية اللون ، فصعدت الدماء الى وجهها لتتضـاعف من حلاوتها مئات المرات ، فيرتنى وجعلت دمائى تنسحب من وجهى ، وظل وجهها يلازمنى طوال الدروس الأولى .

وكلما تخيلت اقتراب عمرها من السادســة عشرة شعرت بحزن غريب مبهم ، كأننى مقبل على فقدان شيء عزيز .. حتى قال سمير ذات يوم هازئا أن شابا اسمه « أشرف متولى » عرض عليها الزواج رغم تحينه من سيرة امها . شعرت بالارتيـاح لكن سمير سخر من كل ذلك فكرهته .

رأيت « أم فتحية » فرأيت الشعر الذهبى واضح الصبغة ، ورأيت التجاعيد وقد غزت العنق الرخامى ، والخطوط الغائرة وقد ظهرت فى الجبهة الناصعة ، ولحم الذراعين وقد ترهل ..

اشترينا السندويتشات من الكنتين وعلق سمير :

ــ لذلك فان زبائنها أخذوا يطالبون بالبنت عوضـا عنها ، لكن الأم قالت لرجالها المتلهفين : « ليس قبل أن تبلغ عامهـا السادس عشر » .

فتوقفنا عن المضغ ، وكانت هذه أول مرة نعرف فيها أن فتحية ما زالت بكرا !

لم نصل الى جواب أكيد .. وتساءلت أنا أن كان من الممكن أن يحدث شيء ما خلال الوقت المتبقي : كأن تفر من أمها وتعمل كأية بنت أخرى ، كأن تتزوج من « أشرف متولى » هـذا ومئات البنات يعشن مع أمثاله فى دعة ، الا أنهم سخروا منى ، قالوا انه ضئيل المرتب نحيف الجسد ضعيف البنية ولن يرضى فتحية من جميع النواحى .. ثم تحدثوا عن ذلك المحظوظ المنتظر ، واتفقوا على حتمية أن يدفع مبلغا عظيما . قال احمد مفسرا :

ـ لا تحدث أول مرة الا مرة واحدة ، سجلوا هذه الحكمة فى كراريسكم .

ونحن نبتعد عن المدرسة صوب النيل رشح سمير لهـذه القطفة نائب المـأمور ، قال ان زواجه ليس دليلا كافيا على حسن سيره وسلوكه .. لكن حسين أصر على طبيب الصحة لأن أمثالها فى حاجة الى نوع خاص من الخدمات الطبية ، فرد سمير المناكف: انيا بالمـال بمكنها استئجار أبرع الأطباء .. وفكر ممدوح فى مهندس المحالج وسيارته الجميلة .. ثم فى سعيد المزارع الذى يمتلك الحد الأقصى من الفدادين .. ولمـا فحصوا وضع مفتش التموين وقدرته على امدادها بما يشح من السوق أكد فهمى أن فتحية لو ترك لها الاختيـار فسـوف تختـار كابتن فريق كرم القدم .

تعالت الأصـوات واحتدت ، وكل واحـد يذكر مميزات مرشحه .. وفى وسط كل ذلك استبعدوا أسماء أخرى اما بسبب كبر السن واما بسبب شائعات عن أصحابهـا بعجزهم الجنسى المبكر واما بسبب نقص المـال برغم الفحولة .

تركنا الشارع ، مخترقين ارض الكلأ اختصارا للمسافة :
وفكرت انا فى صمت : لو فتحية صديقتى لأقنعتها بالزواج من « أشرف متولى » هـذا ـ وقلة الدخل ليست عيبا ـ على أن تنفصل هى عن امها وبنفل هو نفسه الى أية مدينة أخرى بعيدا عن كل هؤلاء الناس .

(فى المساء وقبل ان انام زارتنى فتحيـة الحبيبة ورقدت بجوارى .. وبعد قليل اختطفتها فى آخر لحظـة من بين براثن هؤلاء الرجال الوحوش ولقنتهم درسا قاسيا لن ينسوه .. وبعد ذلك بقليل ايضا تمكنت بطريقة ما من جعل عامها السادس عشر يتأخر ويتأكأ فى المجيء حتى انتهيت أنا من تعليمى فى الثانوى ثم الجامعة وتوظفت وتزوجتها رغم معارضة أسرتى ، وقبلت شفتيها الطريتين فى قبلة ناعمة وعشت معها فى سعادة هانئة لتبدأ عامها السادس عشر ...)

... لكنى فى الصباح عندما فتحت عينى ووضعت راسى تحت ماء الصنبور البارد تمنيت لها ـ آسفا ـ أن تموت .

قرب الامتحان اختفى الكلام تماما عن فتحيـة وعريسها الموعود وعن امها ورجالها . وأثناء الامتحانات كنا نتحدث فى طريق العودة عن افضـل الحلول لكل سؤال . اختلفنـا كثيرا حول اجابات المواد النظرية كاللغات ، لكننا فى الرياضيات والعلوم لم نختلف ، وعقب امتحان الكيمياء وبينما نحن نبحث عن الجواب الصحيح لاحدى المعادلات اذ بسمير يهتف بغتة :

ـ منذ ثلاثة أيام ، أطال الله بقائكم ، بلغت فتحية السادسة عشرة ..

فضول ثقيل . سأل سعيد :

ـ وهل حدث الأمر ؟؟

تحرك فم سمير :

ـ في الليلة التالية مباشرة ..

ـ اكيـد ؟؟

برقت عيناه . التهبت جفوني . سأل سعيد في لهفة :

ـ فمن نالها ؟؟ من الأول ؟؟

شعرت بأناملي مثلجـة وبجسـدي ثقيل فوق سـاقي ، وسمعت صوتي يرتعش في داخلي : وهل تفرق ؟ !

اغسطس ١٩٧٠

المنـــاخ

ولأنها البنت الوحيدة التى انفتح لها قلبى ، فقد كانت رغبتى أن ألتقى بها وحدها ، أن اتحادث معها على حريتى . كنت قد جهزت كلاما كثيرا معظمـه رقيق ، وكله صـدق ودفء . لكنها جاءت ومعها احدى زميلاتها ، فتكونت الجلسة من ثلاثة . ارتبكت . صارت زميلتها بينى وبينها . لم يعد من المناسب ان أقول لها ما كنت أود ، ربما كنت قد نسيته . ما يقال لواحد لا يقال لاثنين ، ويختلف الكلام حسب عدد الجالسين وانواعهم .

جلسنا نثرثر فى أمور عديدة ، وتظارفنا كثيرا ، وقصصنا بعض الملح .. لكننا اكثر من ذلك لم نقل .. وعلمت أن اسـم الصديقة سعاد .

قالت نبيلة انها أصبحت تتعب سريعا من صعود الدرج هذه الأيام ، فردت صديقتها بأن هذه أعراض الشيخوخة .. كانت تظن أن هذه نكتة ، لكننا مع ذلك ضحكنا .

وصفت نبيلة آخر فيلم شاهدته بأنه ليس بفيلم على الاطلاق ، ثم تساءلت عن سبب تدهور السينما لدينا ؟؟

ـ وهل السينما لوحدها ؟ !

قالت الصديقة ، مؤكدة ان العلة تكمن فى مستوانا الحضارى كدولة نامية .. فعلقت أنا بأن سينما العالم الثالث صارت تهز الدنيا الآن .

وحدث خلال الجلسة أن التقت عيناى بعينى نبيلة ، كنت أريد أن أنقل بعضا من شعورى نحوها ـ ان لم يكن باللسان فبالعين ـ لكنها كانت تسارع بالنظر الى صديقتها .. فكنت أعود مهزوما للمشاركة فى الكلام .

مساء اليوم التالى جاءنى أحد الأصدقاء مع زوجته . وأخذانى الى ملهى « ميرى لاند » الليلى فى مصر الجديدة .. وكان هناك قوم كثيرون ، ألمحت زوجة صديقى بأن معظمهم من الشخصيات المعروفة وأبنائهم ، ثم عادت تتابع الفرقة الموسيقية التى تعزف الألحان الغربية .. وكان كل ما حولنا : تأنق فى الثياب تلطف فى تناول العشاء ، وتبسم عند احتساء المشروبات.

بدأ الرقص فوق الدائرة المخصصة لذلك . ذهب صديقى ليراقص زوجته ، وصرت وحيدا ، بينما كل من فى الدائرة : امراة ورجل ، فتى وفتاة ، والموسيقى ناعمة وبطيئة والجمع ملتصقون .

تمتعت برؤية وجوه النساء من فوق أكتاف الرجال ومن جوار أقفيتهم .. وكانت الأرجل منظمة ومقيدة فى حركاتها :

كرهت هذا التماثل ،وكانت كل الخطوات متزامنــة حسب ايقاع العزف البطىء ، ولم يعجبنى هذا البطء .

وعندما انقلبت الموسـيقى عنيفة وسريعــة ، انسحب من الساحة كبار السن ، وتدفق اليها عدد كبير من الشـباب . ادهشنى ذلك فى البداية ؛ فلما تأملت الرقصة لاحظت أنه لا توجد قاعدة محددة لحركاتها ، ولاحظت أن الرافصين لا يلتصقون وانما يواجه الفتى راقصته عينا فى عين ، كل الأجســام تهتز وتتكهرب لكن لم تكن هنــاك قاعدة ، ولم تكن الموســيقى تتســلط على الخطوات ..

أعجبنى كل ذلك ، وقلت ان أى انسان يقدر على هــذا الرقص ، فقط يصعد الى الحلبة ويستسلم للاحساس بالراقصين من حوله .. وتمنيت لو كانت معى نبيلة ـ كنت أجلس وحيدا ـ ورغم حدة الموسيقى كانت الاضاءة خافتة ، وازواج الراقصــين من أمامى باسمين ؛ فهزنى كل ذلك وأنعشنى ، وكان الدخــان يملأ المكان ، وفوق كل ترابيزة شمعة مشتعلة ...

(ولمــا نظرت الى جوارى وجدت نبيلة فى ثوبهــا الأبيض الذى يشبه الفراء ، وكانت تبتسم وكانت أحلى من كل الأوقات ، وصعدنا الى الحلبة واندسسنا بين الراقصين ، وسرعان ما سرت روح الرقص فى جسدينا ـ وكان جسدى خفيفا جدا ـ واندمجنا مع الجميع ، وسممت تنفسهم ولهثهم ، وشممت عرقهم وعطرهم، وشاهدت السعادة فى عيونهم ، ومارســنا الحركة معهم ، وكان هذا عظيما ، وكانت نبيلة تواجهنى وكنت أواجهها ، ولم تغــادر نظراتها وجهى ، وقلت لها كل ما أريده فكانت تنزل بنظراتهــا الى شفتى ..)

غير أن الموسيقى أبطأت وعادت رتيبة ، فانسحب الصغار وصعد العجائز وعاد صديقى وزوجته ، فأفقت ، وكانت الدماء فى وجهيهما . وقبل أن نعود لأحاديثنا الاستطرادية واعدت نفسى بأن أحكى قصة هذا الحلم الى نبيلة ، وذلك فى الموعد القادم . .

... لكنها جاءت ومعها زميل لها طويل اسمه مهدى ، كان يقترب من وجهها عندما يوجه حديثه اليها ، وكان يفعل ذلك بنظرة جسورة وابتسامة صلفة ، وأذكر أنه لما جلس انثنت ساقاه أمامه كأرجل العنكبوت .

كانت نبيلة ترتدى فستانا قصيرا ، فأعجبنى منظر ساقيها ولاحظت خلوهما من الشعر أو آثاره ، وصرنا نتكلم ، ونسيت الكلام اللطيف الذى كنت قد جهزته لنبيلة ، وحتى قصة سهرتى السابقة لما حكيتها اكتفيت بنصفها ، ولم أذكر كلمة واحدة عن حلمى القصير بالرقص معها ، وبدلا من ذلك مضيت أروى قصة ملفقة : فقلت اننى عدت بذاكرتى الى قريتنا بالصعيد ، حيث رأيت نفسى طفلا حافيا وسط العيال نلقى بالطوب الى النخلة ليتساقط بلحها ، ونطارد كل كلب نراه بالعصى والجريد . ثم تذكرت حقن البلهارسيا الكئيبة التى أدمت جسدى الضعيف ، وتصورت أبى جالسا أمام الدار يشرب الشاى الأسود ويشكو من معاملة موظفى الزراعة ومن تغيب طبيب الوحدة ، ويقف احتراما لمرور الضباط .. ورأيت طابور الصباح فى مدرسة المركز ونحن نحيى العلم ونهتف للجمهورية .. وفى مطلع الفجر تصورت أمى وهى تستيقظ لتحمى الفرن للخبيز ، وتخيلت أنها لو رأتنى فى ذلك الملهى لأصابت الدهشة عينيها بالشلل ..

ضحكت نبيلة من ذلك ، وارتعشت ساقا مهدى فى رعشات عصبية ، وقلت له ان هـذه السهرة نموذج مصغر لسـهرات الطبقة الجديدة ، ثم سـألته عن رأيه فيهم فهز كتفيـه دون اهتمـام .

تماكرت نبيلة وسألتنى عمن دفع الحساب ؟؟ فقلت لها :

ـ تعرفين أن راتبى لا يكفى الا لايجـار الشـقة وللأكل الضرورى ..

ولمـا اضفت :

ـ وللاقتراض فى آخر الشهر .

اعتبرا ذلك نكتة فضحكا ، لكنى هـذه المرة لم أقدر على المشاركة .

أذكر أن الصمت تخلل هـذا اللقـاء عدة مرات . يـكون الصمت بين اثنين متوادين صمتا عن الكـلام المسـموع فقط ، أما الصمت بيننا نحن الثلاثة فقد كان انكماشا وعزوفا .

وفى المرات التالية جاءت سعاد مع نبيلة .. وصار الصمت يطول .. ويتعدد .

فى اللقاء الذى جاء بعد ذلك تأخرتا عن الموعد عشر دقائق.. وهـذه المرة لم أكن قـد جهزت كـلاما أريد أن أقوله لنبيلة ، وقصصت عليهما نكتة مهذبة لكنها فى باطنها تحمل معنى بذيئا ؛ فوجمتا برهة ثم نظرتا لبعضهما وانفجرتا ضاحكتين .

وبعد النكتة جاء الصمت .. ثم تكلمت نبيلة .. ثم حدث صمت أطول .. وظلت الملعقة بين أصابعها تدورفى فنجان الشاى حتى بعد أن ذاب السكر ..

وكان النيل من اسفلنا ساكنا كسكون الهواء ، وكانت الضفادع تنق عند جسره .. ولاحظت نبيلة أن المياه تتذبذب فى مويجات ضئيلة . فقالت :

ــ يبدو أن هذه المويجات لا تفارق أماكنها !!

قلت :

ــ لكنها فى الواقع متحركة ، لأن النيل ينبع من أواسط افريقيا ليصب فى البحر المتوسط ، فهو اذن يجرى من الجنوب الى الشمال ، ولابد انه متجه الآن صوب الشمال !!

قلت وأنا امسح عرقى :

ــ ويتضح هذا لو ألقينا اليه بشىء يطفو فوق سطحه .

قالت تسخر :

ــ أنت غزير العلم ، علمتنى ما لم اكن أعرف !!

قلت لها :

ــ شكرا .

ثم قرانا طالعنا فى الجريدة ــ وكانت الضفادع تنق ــ وضايقنى بعض الشىء أن نبيلة ولدت فى برج الدلو ولم تولد فى برج الحوت الذى ولدت أنا فيه ، أما سعاد فأظن أن برجها هو العذراء أو ربما كان القوس .. وبمناسبة التنجيم والنجوم كلمتهما عن مقال قرأته حول غزو الفضاء ، رحنا بعده فى سرحة تأمل طويلة ، تنهدت فيها نبيلة وتوقعت سعاد انه سوف يأتى اليوم الذى يكتشف الانسان فيه أكسير الحياة ويصبح كل الناس من الخالدين ، أردت تصنع الدهشة لكنى فضلت الكسل ..

ثم عادت سرحة التأمل .. وتثاءبت نبيلة ، وذكرت بعض المعلومات عن تاريخ مصر أعتقد أن معظمها كان خاطئا .

تابعت طفلا صغيرا مضى يتعثر من خلف قطة سوداء رافعة الذيل ـ وكان ذلك فى اللقاء الذى كان ترتيبه قبل الأخير ـ تحدثنا قليلا عن الشرق الأوسط وأزماته .. ثم قصت سعاد علينا أسباب فسخها لخطوبتها الثانية ، وكانت قد قصتها فى لقاء سابق لكنى أخفيت .. كذلك حكت نبيلة النكتة الفاترة التى سبق أن أضحكتنا فى أول لقاء ، واستطعت أن أحصى فى جانب رأسها ثلاث شعرات بيض .

وفى اللقاء الأخير : وقفت لهما مرحبا بأقل من نصف الوقفة .. وبعد أن جلستا سألت نبيلة عن أحوالها وصحتها . فصرحت متبرمة :

ـ لا جديد

ثم قالت بأنها صارت تفكر جديا فى الهجرة

وبعد الصمت عادت تتكلم عن أعراض الشيخوخة المبكرة مرة أخرى .. وكنت مسترخيا فى مقعدى ، وكنت أشعر بالخمول يتحرك الى كل رأسى وجسدى .

سألت سعاد عن آخر ما قرأته ، فتمتمت :

ـ لائحة التوظف

وسكتنا .. ثم سألتها عن أحوالها فتثاءبت :

ـ لا جديد .

رحت أتأمل الجالسين عن قرب ، وبعد وقت نسيت نفسي وبدأت أحكي ـ لأكسر الصمت ـ عن ذكرياتي في فصل ثانية علمي خامس ، غير أن سعاد نبهتني في صوت هادىء الى أنني رويت هذه الذكريات من قبل ، فلم أكمل .. وبعد وقت تثاءبت طويلا لدرجة أن الدموع ملأت عيني .

بعد ذلك كان موعد لقائنا هو الصدفة .. وعندما لمحتها سائرة هتفت باسمها ، فنظرت لي وابتسمت .. وحدث اذ ذاك أن كان زميل لها يقف بسـيارته قرب الرصيف ، فضغط على « الكلاكس » ثلاث مرات . تنبهت هي اليه ومن فورها توجهت صوبه وكان وجهها جادا جدا .

واليوم عنـدما رأتني في طريقهـا أقبلت نحوي ، وكنت مستاء جدا ، وحانقا : كيف تجاهلت صوتي البشري واستجابت لمنبه سيارته ؟ !

رغبت أن أرد لها بعض الاهانة ، وبحثت في ذهني عن كلام قاس أوجهه اليها .. الا أنني ـ وفي هدوء مصطنع ، وبعد تحية فاترة ـ تركتها ماضيا بخطوات متكبرة ، شامخا بأنفي راميـا بنظراتي الى الأفق البعيد .. لكن سرعان ما تهدل كل ذلك .

كان من الممكن أن نخلق أشياء جميلة .. معا .

فبراير ١٩٧١

المعدول والمقلوب

١ ـ مهـــاب :

(لكل دائرة مركز واحد ـ حقيقة هندسية) :

ولأن البكاء ليس من طبعي لذلك لم أبك ، حتى يوم أن مات أبي ـ وكنت صغيرا ـ بكته كل الأسرة عداى . ظللت متماسكا ثمانية أيام ، وفي اليوم التاســع ـ ودون أية مقدمات ـ انهرت باكيا . ولو حدث لي البكاء الآن لارتحت ، لكنني كتوم لا أشكو ولا أبكي . أتوقع أن يكون عمري قصيرا .

كان يشغلني دائما ، الحب .. ليس من باب الهذر ولكن قلقا على مستقبل عمري . كنت أمضي حياتي منتظرا أن أصادف البنت التي أوجه نحوها أرق أحاسيسي ، والا فما فائدة هذه الأحاسيس ؟ ! .. وكنت أكلم نفسي أحيانـا وأقـول : انني لو وجدتها فســوف أحفظ من أجلهـا كل ما بقي من وقتي ، وسوف أكف عن التدخين حتى أوفر لها زوجا مناسبا ، وفي محني وأوقات الشدة كنت أسأل المجهول : متي يكون هذا التلاقي ؟!

وكنت أتخيلها فى ذهنى بصورة مشوشة ، ثم اخترت لها من كل فتاة أحلى ما يعجبنى ، مرة الشعر ومرة الصدر والوسط ومرة عودها وشفتيها ، وقبل كل ذلك صوتها وخفة ظلها وحنوها .. ومع مرور الأيام تكونت ملامحها الرئيسية فى صورة فتاة هادئة الجمال ، واعددت نفسى بألا اتركها تفلت منى ان أنا قابلتها .

أحببت أن تكون قمحية اللون : ربما لأنى شببت فى بيت على نيل الصعيد وكان يسحرنى لون الطمى مطعما باشعة الغروب ، واخترت لشعرها ضفيرة طويلة وحيدة : وعلى ما اذكر فقد كان شعر أمى قصيرا أشعث ، وتصورت العينين سمكتى الاتساع : كنت أعبر النيل لأشاهد الأميرة الفرعونية فوق جدار المعبد القديم ، يشدنى اليها جسد رقيق بثديين مشدودين، ووقفة حب من خلف مليكها وعينان واسعتان أخاذتان ، كلما عبرت النيل وجدتها بدفء نظراتها .

وفى احلام اليقظة كنت أستحضرها ، بجمالها الجذاب أصيل الزينة ــ أميرتى انا ــ فأبدأ معها رحلة الحب ، اتخللها بشجار ملىء بالشجن من أجل نهاية هنية ، ان لرضى المحبوب بعد سخطه لذة فى القلب لا تعدلها لذة ــ يجوز أن هذا التفكير من فعل أفلامنا الرديئة ــ لكنى رأيتها دائما مقبلة نحوى فى ايقاع العابدة المتعبدة .

كنت أنتظر أن أصادفها ، أن أجدها يوما ما أمامى ، فجأة ودون مقدمات ، فى الشارع ، فى السينما فى الأتوبيس ، فى مكان عملى ، كنت على ثقة من أنى سأتعرف عليها من أول وهلة ، وعندئذ سيتم التفاهم فى سهولة وتلقائية .

كنت مهيئا للحب .

والعجيب ان شيئا من هذا لا يوجد فى نبيلة !!

شهور عديدة وانا اعبرها دون أن التفت اليها . أحييها أو أبادلها بعض التعليقات أو المجاملات العابرة ، ولاشيء يزيد على ذلك .. كنت أنفر من شدة بياضها ، تزيده بطلاء تسرف فيه ، على الوجه ، وحول عنقها القصير تسرف فيه أحيانا ، شعرها ناعم ذهبى اللون ، جميل حقا لكنها كانت تخفيه تحت باروكة ذات لون سخيف ولم يكن صوتها يعجبنى ، ولم يكن منظرها يوحى بالدعة ، بل بكره للمألوف يصل الى حد التصنع ، وأنا انفر من الافتعال .

لم تلفت نظرى ولم تحاول ، حتى وجدتها تعترض طريقى ، وكنت مسرعا . تركت صديقتها سعاد ووقفت فى سكتى بابتسامة عريضة ونظرة جسور . ابتسمت لها مجاملا ، شاعرا بالنفور من طلاء وجهها ، سألتها :

ـ لماذا تضعين هذا القناع ؟ !

فجاءت فى اليوم التالى ببشرة طبيعية . لاحظت هالتين سوداوين تحت عينيها ، ساءتنى منظرهما فى البداية لكنها مع ذلك راقتنى ، ثم بدأت أتأملها وأعيد النظر .

عيناها ضيقتان لكن النظرات الجميلة تتراقص فيهما بوفرة . لها جبهة عريضة ، فاقترحت أن تترك شعرها يتهدل طبيعيا ، وقلت :

ـ بقى أن تتخلصى من هذه الباروكة !

وجعلها شعرها المنساب فى اليوم التالى تبدو أصغر عمرا ، احاط وجهها بهالة فى لون الغروب ، لكن وجهها كان مشرقا ، وفى خديها انبعثت أزاهير الجمال ، قلت ان ذلك رائع ، فأسعدتنى بأحلى ابتسامة رأيتها ، ثم تركتنى وذهبت الى صديقتها سعاد .

خطر لى أنها أحلى بنت فى المركز القومى للبحوث ، لكننى تذكرت أن المطلق شىء غير علمى وأن أفعل التفضيل لا يستخدم الا فى البلاد المتخلفة ، فراجعت نفسى وقلت : ربما كانت من أحلاهن .

ظلت ابتسامتها فى عينى الى أن ركبت الأتوبيس ، حيث وجدت نفسى اتابع فتى يغازل بنظراته فتاة قريبة ، تأملتهما ، ولاحظت أن الفتى أنيق وسيم بل جميل وأن الفتاة قاسية الملامح لولا ثدياها ! .. لذلك راودنى خاطر غريب : انه لو أطال شعره لصار أجمل منها ! وأنها لو قصرت شعرها وارتدت ملابس الرجال لقلت انها شاب ولاشك .. ودفعنى هذا الخاطر المدهش الى تأمل وجوه الناس : كان الرجل المواجه لى خشن المظهر ، لكنه لما استدار ناظرا الى الشارع ظهر بروفيله رقيقا رقة النساء !! .. وكانت المرأة المجاورة له عجوزا كل وجهها تجاعيد، ورأيت فوق وجنتيها شعيرات بيضا وتحت أنفها شاربا رهيفا أهملت ازالته ، ابتسمت لنفسى وقلت : ها هى تعود الى أصلها حسبما ذكرت كتب السماء ، جاء الرجل من التراب والى التراب يعود ليغلق دائرة الحياة الخبيثة ، أما حواء فقد جاءت ـ كما قيل ـ من ضلع فى آدم فهى فى الأصل رجل ، وهى عند شيخوختها تعود الى أصلها وينبت لها الشارب والذقن ، فهى اذن من الرجل والى الرجل تعود وبعد ذلك تموت وتصير الى التراب .

حسدت نفسى على هذا الاكتشاف الطريف ، ثم وجدتنى أعود بذهنى الى نبيلة ووجهها وصوتها ، وسيطرت على تفكيرى حتى كدت انسى محطتى !

كانت تستشيرنى فى مشاريعها الصغيرة فيحدث أن يتبقى احداها فى ذهنى حتى بعد أن أتركها ، وقد تلازمنى حتى المساء وقبل ان انام ، لأجد نفسى انتقل من المشكلة الى نبيلة نفسها ، ومن فورى أستحضرها أمام عينى ، لتزورنى وتقضى معى فترات طويلة ، بقميص نومها فتكون رائعة ، ويكون لونه أسود ـ مرة رأيت طرفه من تحت فستانها وكان الهواء خماسينيا ـ ويشف سواده عن بياض جسدها الجميل ، وينسال شعرها فوق كتفيها فى اصفرار ذهبى ، ويحدث فى الاضاءة الخافتة أن تترقرق هذه الألوان فى تمازج مدهش .

كانت تأتينى ـ ايضا ـ فوق صفحة الكتاب الذى أقرؤه فوق ورق القطن حيث أجرى أبحاثى على الدودة ، أحيانا تحت المجهر فأتملى فى أعضائها كلا على حدة : العينين ، الأنف ، العنق ، الفم ولم ترحنى ضمة شفتيها كأن فى مذاقها طعم المر .

كانت تدخلنى مع أنغام الموسيقى التى أسمعها ، وأيقنت أن صوتها ليس منفرا كما كنت اظن . قلت ان الانطباعة الأولى غالبا ما تخطىء .

وصرت كلما رأيتها تهل نحوى بكيانها باشعاعات ابتسامتها بايحاءات نظراتها اهتف لنفسى :

ـ سوف تصير هذه الفتاة امرأتى .

وانقلب الاهتمام الى انغماس ، وتغير الحـال ، وصار كل ما تفعله يهمنى ، والشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، تأسرنى رمقاتها الجانبية ، تلقانى مبتسمة فأسعد طوال اليوم تلقانى مهمومة فينشغل بالى ، وكنت أكره التجاعيد الكثيرة التى تظهر فجأة مع تقطيبتها .

أسعدنى تسللها الى جميع ما يشعر أو يفكر فى داخلى ، وصرت أفعل كل ما يسـعدها ، فى الحقيقـة حاولت أن أفعل ما يجعلها تحبنى وتلتصق بى ، كانت حمى .

تبادلنا كلاما كثيرا رقيقا . لم تكن الرقة فى الكلمات نفسها ، وانما فى نطقها ، فى النظرة المصاحبة لها ، وفى خلجة الخدين .. كلمة أحبك نفسها لم أقلها ولم تقلها ، قالتها التصرفات اليومية واللفتات الصغيرة وردود الأفعال العفوية ..

الا أننى كنت أثور على نفسى أحيانا : لمـاذا هذه البنت من كل بنات الدنيا ؟ ! ليست الأجمل وليست الحلم الذى راودنى!! وان كان ما بداخلى هو الحب فأمره عجيب فعلا ، انبساط زائد يعقبه ضيق غير مبرر .. وقلت : لن أتسرع بالارتبـاط بها حتى يواجه هـذا الحب الأيام ويقوى بها ، هى مرة يجب أن تكون واحـدة .

يأتى وقت يتمنى الانسـان فيه أن يسـتريح من حريـة الوحدة .

ومن خلالها تنبهت الى أن الانسان يطمع فيما ليس معه .. وأن التي تشد أنظاره ليست المرأة الأكثر جمالا ، وانما الأكثر

اختلافا وتفردا ، ولأن الشائع فى القاهرة هن السمر والقمحيات من البنات ، لذلك فان رءوس الرجـال كانت تستدير الى نبيلة أينما سارت ، شعرت بالزهو لأنها معي ، وشـعرت بالغيرة لأنى اخشى من فقدها .. ومرة قلت فى بالى : سوف تملؤها هـذه النظرات بالغرور ، ثم اسـتدركت : ولكن من المؤكد أن هـذا ـ بالفعل ـ حدث !!

أخفيت انقباضى ، وبعد أن ودعتها ـ وصديقتها سعاد ـ صار الانقباض دوارا ، كانت دائما محاطة بدائرة من رجال المركز حجبتها عنى فلم أتنبه اليها ، وكانت صديقتها سعاد تقف خارج هذه الدائرة تحاول أن تجد ثغرة لها ، فلما دخلتهـا ظلت كل الأنظار مجذوبة الى وجه نبيلة .. هنـاك حقيقة هندسـية : لا تكون لأية دائرة الا مركز واحد ..

أما أنا فقد شـعرت بنبيلة فقط عندما خرجت من هـذه الدائرة لتقتحم دائرة اهتمامى وتحتل نقطة المركز فيهـا ، لذلك فقد ضايقتنى كثيرا بصديقتها سعاد ، غالبا ما كانت تحضرها معها ! .. حزنت فى البداية لكنى التمست لها العذر : هى فى النهاية سليلة الأم والجدة ـ هكذا التمست لها الأعذار ـ وهى ما زالت تضعنى تحت التجربة والاختبار ، وعندما تتأكد من حبى لها فسوف تتولى من نفسها ابعاد الثالث ، وكنت أعرف أن هناك حيلة للوصول الى ذلك ، هى أن أفتعل الاهتمام الحميم بسعاد كى تشعر بالخطر منها ، لكنى لم ألجأ الى هذا الأسلوب لنفورى من الالتواء ، وفضلت أن أصارحها بعدم ارتياحى الى صديقتها ، وفعلت ذلك تلميحا ثم تصريحا ثم جفاء .

كنت أجلس فى مواجهة نبيلة ، وعندما تتكلم سعاد ـ وهذا غير كثير ـ أجد نفسى أرد فى ابتسـار وجانب جسـدى لها ،

اما نبيلة فكانت تعطيها نصف اهتمامها ، حتى ابتسامتها كانت تقسمها بيننا : تداعبنى بعبارة وصديقتها بعبارة أخرى ، انشطر اللقاء الى نصف لى ونصف — وأحيانا اكثر — للصديقة .. فنفرت منها .

عجيب ان اغار على نبيلة من فتاة مثلها !

الى أن آفلت الزمام ، ووجدت نفسى أعامل سعاد هذه فى غلظة واضحة . ظلت جامدة مكانها ولم تنصرف ، بابتسامة مصنوعة فوق وجه باهت شديد الشحوب — ولم أشعر نحوها بأدنى شفقة — وعندما ودعتنا نبيلة لتنصرف تركت انا سعاد ولحقت بها ، فاستدارت نحوى بوجه متوتر كثير التجاعيد وهمهمت :

— هذا سلوك فظيع ، فظيع ..

وعلى مدى الطريق الى بيتها ، ظللت أداعبها وأحكى لها الطريف من حياتى حتى ابتسمت ، حتى تجاوبت وتركت كفها فى كفى ، لكن قلبى انقبض عندما حدثتنى عن والدها وقالت انها لم تحب رجلا من بعده ، ثم حكت لى عن شغفها القديم برحلات المدرسة . وعن رحلة السنة الثالثة فى الجامعة ، وكانت مخصصة لدراسة التربة فى منطقة أسوان ، وكادت نبيلة أن تكون البنت الوحيدة ، فعاملها المشرف برقة ، وقدم لها كل طالب ألطف ما عنده من ابتسامات وجميع ما يعرف من معلومات وخبرات جيولوجية .

أسفل بيتها هزت كتفيها وقالت بتواضع — لم يقنعنى — أنها كانت ليمونة فى بلد قرفانة ! .. ثم قطعت ابتسامتها فجأة وحملقت فى وجهى طويلا وتفافلت عن اقترابى الشديد منها

وتركتنى أقبل خدها فى لثمة سريعة ، وكان باردا وكانت جفونها ترتعش .

وحددنا موعدا فى اليوم التالى .

غير أنها لم تأت. كانت لثمة الخد هى آخر تقارب بيننا .

رأيتها بعد ذلك فى سيارة زميلنا فريد ـ وهو الذى يبحث فى استخراج المواد الغذائية من البترول ـ وقد عادت الى طلائها وباروكتها !!

وعندما قابلتها فى المركز حيتنى ثم سرعان ما تشاغلت عنى، ولما لم أنصرف نظرت الى وابتسمت ابتسامة حلوة ، أظن ذلك ، ولما لحق بها فريد أعطته الابتسامة الحلوة ، واندمجت معه فى حديث كان من الممكن أن أسمعه بوضوح : اذ أنها أبدت حماستها للون قميصه ـ كان فريد أنيقا فعلا ـ ثم بلمسة سريعة أحكمت وضع ربطة عنقه ، وجعلت لا تنظر نحوى الا برمقات عشوائية لكنها مدققة ، فخطر على بالى أنها تعمل على اغاظتى واثارة غيرتى ، وطاردتنى الحقيقة الهندسية :

بأن أية دائرة لا يكون لها الا مركز واحد .

قلت فى النهاية : هى بنت مصرية نكره الوضوح ، كان من نصيبى أن أراها وهى تتخلص من تنكرها ، وهى تخلع آخر مبتكرات الموضة وهى تلفظ تعليمها الجامعى وحديثها عن الزهور والموسيقى ، وتلقى بكل ذلك لأرى النقيض ، البنت المصرية لها حياتان : حياتها المعروضة للعلانية وأخرى خاصة بها تموت بسرها ، وانها تجعل من التعليم شهادة توظف تعطيها عريسا أفضل !

حتى هذا الرأى لم أرتح له ، ورأيت أنه وليد الغضب ، وراجعت نفسى متمردا على التعميم ، وصرت أختلق الأعذار فى تخلفنا الحضارى .

لكن الأمر المؤكد لى الآن ان نبيلة تعيش حياتين ، بوجهين مختلفين ، ولم يكتب لى التوفيق لفهم أى من الوجهين ، وأكاد أقول كليهما ، وان كانت تريد أن تهجرنى فلماذا تركتنى أقبلها آخر مرة ؟ ! .. مازال حبها فى قلبى ، فما دخل عسيرا لن يخرج يسيرا .

عادت أميرتى — بالأمس — الى زيارتى قبل النوم ، كانت الخمرية واسعة العينين كما هى ، رقيقة الجسد مشدودة الثديين بشبه بسمة على الخدين فيهما الطيبة والوفاء — دائما — طلبت منى الا أحزن لأن هــذه الأمور تحدث فى جميع العصور .. وفى الصباح بينما أدخل دورة المياه بجريدة الصباح فى يدى ، قلت ان هذه الأميرة لا أكثر من نقش فوق حجر لا يتبدل .. وكانت الجريدة مكتظة بكل الأخبار الشاذة من حروب وسرقات وخيانات، ومقالات كلها تدليس ، واعلانات مبوبة لبضـــائع مهربة توحى بسوق سوداء .

٢ — ســـعاد :

(الشاذ يخلق الشاذ)

وحدى على الرصيف ، والأتوبيس يبتعد به وبها ، تركنى كالهارب دون كلمـــة وداع ، من الجائز أن الناس لاحظوا ، كم هو قاس ! شرير ! .. وكنت سأعطيه حنانا بلا حدود .

خدعنى انطباعى الأول . ظننته رقيقا طيبا ثم وجدته مثل الآخرين ، بشعا مثل ملابسه ، كل الباحثين التفوا من حول نبيلة ، حاصروها بغزلهم المكشوف والمستتر ،، وهى ليست الجميلة الوحيدة بالمركز ، لماذا هى بالذات ؟ !

كنت أظن نظرتها العجيبة هى السبب ، تسهم طويلا الى كل رجل كأنها تواعده ، ثم اكتشفت شرى وسوء ظنى ، فهى كليلة البصر وبسبب عنادها ترفض استعمال النظارة ، ويضطرها ذلك أن تقترب من وجه محدثها فى نظرة متفحصة تطول كى تستوعب ملامحه (أظن أن الرجل يفسرها ـ بغروره وسخفه ـ على أنها انجذاب اليه وانبهار به !!)

لكن نبيلة فى مواجهة الرجال أنثى كاملة . بسرعة مذهلة استحوذت على مهاب ، وبدلت حاله وجعلته كالآخرين ! ألم يكفها الجميع ! ؟ .. كان عليها أن تتركه لى ، شريرة مثله .

لكنه هو الذى تمادى فى الالتصاق بها ، وكان رقيقا معى ثم صار فظا ، وكم صبرت عليه الى أن يئست منه . كنت سأغمره بحبى وحنانى ، اننى مليئة بالحنان ! .. المجرم !!

أردت الابتعاد عنه وعنها ، كان عليها أن تختار ، وكنت سأقول لها رأيى بصراحة ، ولم أفعل . حاولت مرات ، ثم رأيت أن تجنبهما أسهل وأجدى ..

أخذتنى جانبا وقالت :

حبيبتى سعاد .

(قالت حبيبتى سعاد !!)

ـ حبيبتى سعاد ، أنا أحبك ، لماذا تبتعدين عنى ؟ !

نكست رأسى ، كنت مصممة على عدم مناقشة الموضوع معها ، قادرة هى على اقناعى ، قالت :

ـ اخمن ما فعلته معى ، وجهت لى تهمة فى سرك ولم تخبرينى بها ، ثم أقمت لى محاكمة فى رأسك ، أنت فيها القاضية وموجهة الاتهام ، وكان حكمك أننى مذنبة فغضبت منى !!

ذكية هى ، حتى فى ابحاثها تعمل قليلا وتستوعب كثيرا .. استطاعت فهم السبب . قالت :

ـ أحبك . ولن ندع أى ثالث يتدخل بيننا .

وكانت رقيقة معى ، قالت :

ـ بيت خالك فى مصر الجديدة بعيد عن المركز . اقضى فترة الظهيرة معى فى الدقى ، بيتى هو بيتك ، وامى هى أمك .

ورأيت صورة والدها فى اطار أسود ، وفى غرفتها كانت له صورة على الحائط وصورة أخرى بجوار كتبها .

ورحبت أمها بى وعطفت على كثيرا . قالت :

ـ أبعيدة عن أسرتك يا مسكينة ؟؟

فأجبتها بأننى اسافر اليهم فى أجازاتى التى تزيد على اليومين ، ثم شرد ذهنى الى مهاب : تعبت من الغربة ومن الانزواء فى غرفة وحيدة ، حلمت بشقة كاملة ، خاصة بى ، أتحرك فى كل مكان فيها بحريتى . أطبخ ، اقلع عارية ، أغنى أو أبكى كما اشاء .. حلمت بشقتى الخاصة بى وبه ، ورأيته معى فى نفس المكان ، أرفع رأسى فأراه يهم بتقبيلى ، أحيانا ينهرنى ، ويأتى

فى بطنى بطفلة جميلة تخفف عنه ماله حينما يقدم بنا الزواج . الغبى !!

ساعة الغداء اطعمتنى أمهـا حتى اتخمت واشتقت الى التمدد ، وعرضت نبيلة أن أرتدى أحد قمصانها ، لكنى تمددت بفستانى (كم هى لطيفـة) .. قبلتنى فى ود ثم استلقت الى جوارى وتنهدت :

ـ لن ندع ثالثا يفرق بيننا .

ثم اخـذت اناملهـا تداعب شعرى (دغدغنى ذلك) حتى شعرت بالنعاس وكدت انام (ومن فوره جاءنى مهاب ، وكان يبتسم ونام بجوارى واخذ يمرر اصبعه حول شفتى وتركته يفعل ذلك وانا منتشية ، ثم اعتدل لأرى الحنين والحب فى عينيه ووجهه يهبط نحوى ليقبلنى ويسعدنى ، ثم نهرته فى دلال كى يلتفت لأناقته وقلت له ان ذقنه يشكشكنى ، فعـادت شفتاه تهبطان فوق شفتى) .

وعندما فتحت عينى وجدت نبيلة ببسمتها المشـعة ودا تقول :

ـ كالطفل الصغير نمت فى حضنى . كنت أسمع تنفسـك منتظما وقريرا .

ثم هبط وجههـا نحوى فى حنو وحب وقبلتنى فشممت رائحتها ..

وتعودت على قضاء ما بعد الظهر عندها ، انتظارا لموعـد عودتنا الى المركز .. ومرة اشتكت لى من الدكتور المشرف على بحثها ، يعاملها بجفاء ويتهمها دائما بالدلع ، قالت أن تخصصه

فى الجيولوجيا طبعه بالتحجر ، وقالت انها تظن أيضا إن الأطباء رقيقو القلب بسبب تعاملهم مع الانســـان . لم أوافقها على هذه النظرية ، فأخذت تكرر تبرمها من الأستاذ ومن كل الرجـال أيضا ، وصرحت بأنها تتمنى لو صارت رجلا لأن الرجل مازال هو المهيمن على المرأة ومازال هو الأقوى فى المجتمع ، قالت :

ـ مهما تحدثنا عن المســـاواة فالكلمة العليا له ، فما بالك ونحن فى بلد متخلف !

ونهضت وأحضرت لى مجلة مطوية الأطراف مفتوحة عند صفحة معينة وقدمتها لى ، فرأيت صورتين متجاورتين : الأولى لفتاة متأنقة مسرفة فى تبرجها ، والثانية لنفس الفتاة بعد أن أجرت جراحة بسيطة حولتها الى رجل فقصت شعرها ونبت الشارب والذقن وكانت ـ أقصد وكان ـ متأنقا أيضا .. فقلت فى سرى ان الفوضى عمت العالم - الرجل ينقلب امرأة ، والمرأة تصير رجلا ، والأخ يقتل أخاه ، إنها دلالات الساعة ، والشاذ يخلق الشاذ .

همست نبيلة :

ـ حقيقة أود أن أصير رجلا ، أسيطر .

ومرة أخرى مكثت صامتة ثم فجأة (ولا أدرى لمـاذا ؟ !) مزحت قائلة : ان الأرض مؤنث والمـاء مذكر لأن المـاء هو الذى يروى الأرض ويجعلها تخرج الزرع ، وعلى ذلك فالعاقر والعقيم تعتبران جنسا ثالثا لأنهما لا تنجبان . لم أوافقها على هـذه الآراء أيضا (ولا أدرى ما الذى جعلنا نفكر هكذا !!) .. الا انها جاءت الى جوارى وجعلها ضيق السرير تلتصق بى ، وأخذت تداعبنى برقتها المحببـــة . كان الوقت صيفا وشممت عرقهـا

ورأيت مسام جلدها الابيض ، وتأملت شعرها الأصفر الناعم ، وقمت بفرده فصار طويلا غطى كتفيها وتهدل فوق صدرها الناهد ، جميلة بالفعل هذه البنت ، أنثى .. ولهم حق ـ الرجل وهذا المهاب ـ فى أن يعشقوها .. أهانني وتجاهل اقبالى عليه وقفز اليها ، وأنا لا استحق ذلك .

قالت نبيلة :

ـ سأقاطعه من أجلك لو رغبت

(لو كنت مكانها لمـا فكرت في هذا الكلام ، ولاخترته هو من غير تردد) .. لكنه أخذ يحايلنى ، من أجلها أخذ يحايلنى . فعدنا نتقابل نحن الثلاثة ، وقالت لى :

ـ سأتركه فورا اذا طلبت منى ذلك .

لو كنت مكانها لتمسكت به ، لكنه تمسك بها ذليلا ، كيف لم يدرك ؟ ! كيف لم يميز التى تحبه من التى تتسلى به ؟ ! مع أن صيته فى المركز انه عبقرى عظيم فى ابحاثه ! فهـل يكون الانسان ذكيا فى العلم مغفلا فى أمور الحب ؟ !

صرت عاجزة عن فهم هؤلاء الرجال مع أنى كثيرا ما حلمت بهم ، من قبل أن ينبت ثدياى وأنا مشغولة بهم ، طالمـا تخيلت نفسى مع فتى جميل أنيق لا أذكر شكله جيدا ، يقابلنى أوقاتا فى الخلاء بعيدا عن أعين النـاس ، ويأخذنى فى قارب يهيم على هواه تحت شمس دافئة وطيور تغرد من حولنا وحمامة بيضـاء تحط على الشراع ، وهو يحدثنى همسا عن حبه لى وكفـه تضغط كفى فى اشتياق ثم يميل لتهبط رغبته نحوى مع شفتيه ليقبلنى فى لهفة .

وكم كنت خجولة عندما رأيت ابن خالى لأول مرة فى البيجامة (وكنت فى بداية قدومى الى القاهرة للدراسة الجامعية، وافرد خالى غرفة لى فى شقته) .. وكم زاد خجلى وحيائى عندما شاهدته يخرج من غرفة نومه مستيقظا فى الصباح وبيجامته مشعثة وشعره مرتبكا فوق جبينه ، كان رجلا ـ ليس أبى أو أخى ـ ينهض من سرير ! .. وكم دق قلبى سريعا عندما رايته يخرج من الحمام !! .. لكنى مع ذلك لم أحلم به رغم انه أجمل من مهاب الخشن الفظ !

وفى الجامعة كنت أتضايق من عيون التلاميذ (وأيضا كنت أسعد بها) .. الا أن الفتى الجميل غير محدد الملامح ظل يراودنى أثناء النوم ، وأحيانا أثناء ركوبى الأتوبيس رغم شدة الزحام وضغط أجساد الركاب على جسدى .

لكنى أحببت سمير بمجرد أن فتح لى باب شقتهم ، سألته عن أخته سميرة فأضاءت عيناه وهو يأخذنى اليها ، ثم ظل يختلق الأعذار ليدخل الينا ويبتسم لى ـ بعينيه الجميلتين ـ ثم جلس معنا وأخذ يمازحنى ، واسترحت اليه ، وصرت أنا أختلق الأعذار لزيارة اخته ، ثم قابلنى مرة عند خروجى من المركز ـ قال انها الصدفة ـ ولم أمانع فى الذهاب معه الى السينما ، وبعد خروجنا تسكعنا فى الطرقات سويا ، وظللت سعيدة باقى اليوم ، لكنى فى المساء تنبهت الى نفسى ، كنت سأحبه ، والله كنت سأحبه وهو ليس من دينى ، وأنا غير مستعدة للدخول فى المشاكل مع أسرتى وأسرته ومع الناس وفضولهم اللزج وتزمتهم المريض ، تكفينى متاعب البحث الذى أعده .. وظللت أياما كثيرة أقاوم عينيه وبسمته ، أطرد صوته من أذنى وتلميحاته الغزلية من وجدانى ، كم قلقت ! .. قبل النوم كنت

أنوح باكية : لماذا يا رب تفعل ذلك ؟ ! لغات متباينة وأديان عديدة والجميع متحفزون !! وكان يمكنك خلق التآخى !! .. صار شذوذ الشيء هو القاعدة !

ابن خالى ايضا حام من حول غرفتى . يتحين هدوء الشقة ويتقرب منى ، مرة جاءنى فى سكينة الليل وكنت اذاكر والجميع نيام وحاول تقبيلى ، رأيت عينيه تحملقان رغبة من وجه شاحب متوتر ، وعندما مد يديه يلمسنى شعرت برجفة أصابعه ، ولما نطق بكلمة أحبك كان الصوت جافا وشاذا ولم يكن صوته أبدا ، ونفرت منه . لمست شفتاه عنقى لكنى هددته بالصراخ ، فسكت ثم عاد الصوت الخائف يقول أحبك ، ثم انسحب (وفى الصباح لم يقم عينيه فى عينى) .. ولو كان دخل غرفتى فى هدوء وجلس بجوارى وهمس واثقا بكلمة أحبك هذه ، لو فعل ما فعل بحس مرهف لربما لنت له ، لو هيأنى نفسيا وأدخلنى فى جو الغزل لربما تركته يقبلنى ، لكنه لم يصل حتى الى رقة الطيور أو القطط (تتبعت يوما قطا مكث يطارد قطة لأكثر من عشر دقائق ، وكنت بشرفة دارنا فى البلدة ، والقط يقترب ويهر ويقفز من حولها ويسبقها ويتخلف عنها حتى رضيت واستكانت له . رأيت أيضا الديك الرومى فوق سطح دارنا ينفش ريشه ويدور حول أنثاه فى دورات غزلية . والحمام والعصافير والماعز وكل الكائنات تفعل المثل ، الذكر يهيىء أنثاه بالأصوات ، بالحركات ، بالرائحة ، فلماذا لم يفعل ابن خالى ؟ !) .. ووجدتنى فى المعمل اترك ملاحظة تجربتى وانوح فى أعماقى بأن هذا الكون قد تم توزيعه بطريقة سيئة وسخيفة ، لماذا لم يكن سمير شقيق سميرة هو ابن خالى ؟ ! اذن لانتهى الأمر وأحببته وتزوجته ولصار هو رب شقتى التي يمكننى أن

اخلع فيها ثيابى دون حياء : والتى يمكننى أن أرتبهـا وانسـق اثاثهـا حسبمـا أريد وعلى هواى ، لكن الحـال يأتى دائمـا مقلوبـا !!

احترت : لمـاذا يضعنى الله فى الوضع المعكوس ؟ ! ولمـاذا يتركنى للمرة الثانيـة أحب رجلا غير مناسب ؟ ! هـذه المرة يحب أخرى لا تستاهله !! رجل شرير قاس رفض توددى وتركنى اتسكع فى الطرقات وحيدة .

لن أعود الآن الى بيت خالى البعيد ، حالتى سيئة ، فأين اذهب ؟ ! .. لن ادخل مرة أخرى شقة نبيلة ، والى أن اموت لن ادخلها ، فلتتزوجه ولتأكله ان شاءت ، ويمكننى قتل الوقت الممل بالسير فى محـاذاة النيل (وكم حلمت بفتاى فى مركب فوق مياهه) .. ذلك النهر هو الذى جعلنى حالمـة ، يمضى فى بطء دون مفاجآت كحية خانعة خاضعة ، لو كانت به الشـلالات والجنادل والتماسيح لاختلفت أحلامى ، لتبدلت من بطيئة ورتيبة واقعية الى أخرى نشطة متحركة ، وربما كنت حلمت بأن الجندل قد شطر قاربى نصفين وبأننى قد صرت وشيكة الغرق لولا فتاى الشجاع يسبح خلفى فى قوة باسلة وينتشلنى من براثن الشـلال الجارف ، فى آخر لحظة ينقذنى ثم يحيطنى بجسده ويهبط حنانه مع شفتيه ليدفئنى ..

يا لخيبتى ! اعود ثانية للأحلام وأنا سائرة فى عز الحر . وحيدة ، بنت حالمـة تتخرج من كلية عملية !! الحـال المقلوب يطـاردنى !!

ويوم أخـذنا قاربا ـ هى وهو وأنا ـ لم تأت العصـافير لتغرد من فوقنا ولم تحط الحمامة البيضاء على الشراع (ولن

يكون فى هذه المدينة الدخانية حمام ابيض فى أى يوم من الأيام القادمة) . وبعد أقل من عشر دقائق كادت الشمس النارية أن تقتلنا (حتى الحدائق تختفى وتتحول الى مواقف للسيارات المزعجة) .. وكان كل خوفه عليها هى ولم يأبه بى ، وحاول بشتى الطرق ان يحجب الشمس عنها (ومرة كدت أختنق من عادمها) .. هذه الملعونة ، لا يعرف أن جسدها ناعم بالصنعة : جسدى أملس بالخلقة ، وقد لمحت الشعر القصير نابتا فى ساعديها وساقيها ، رايت ذلك بنفسى : انهمكت هى أمامى (عصر اليوم الحار) ولأكثر من نصف ساعة فى ازالة هذا الشعر الأصفر حتى صار بدنها خاليا منه .. رأيت بنفسى هذه العملية المرهقة .

ولما لمحتنى فى المرآة احملق دهشة ، قالت فى بسمة شاحبة :

ـ يقول المثل : بارك الله فى الرجل المشعر وفى المرأة الملساء، جسدك ناعم فأنت مباركة .

تفحصت نفسها فى المرآة وضحكت تخفى توترها :

ـ أما أنا فملعونة .

كان صوتها متهدجا فعطفت عليها وقلت بأن هذا مثل فيه تحيز ، اخترعته امرأة ملساء نكاية فى الأخريات !! .. لكنى فى سرى حمدت الله لأن جسدى كله أملس ، لست فى حاجة لفعل ما تفعله ، أما هى فملعونة ، وأنا أكرهها وأكرهه ، ولتفرح به وقد قفز لاحقا بها ، ولن أدخل شقتها ثانية ، مهما اقتربت قدماى من بيتها ، لن أذهب اليها والى أن أموت .. الملعونة ، نبيلة ..

٣ ـ نبيـلة :

(الضحك الزائد يسيل الدموع كالبكاء)

كثير من صخور التربة تتجـاور ولا تتفاعل مع بعضها ، والقليل منها يتحد لينتج مركبا جديدا فيه خواص من الاثنين .

عندما وقف يودعني تركتـه يلثم خدى ، لعـله يظن انه غافلنى :لكنى تركته يقترب منى ، وكنت سأدعه يقبل شفتى ، كانت فـكرة أن أهجره قـد رسخت فى ذهنى ، وكنت أريد ان اختبر أحاسيسى نحوه بصفة نهائية ، فعلت ذلك فى صـدق ، الا أن لثمته لم تتعد تلامس سطحين فى نفس درجة الحرارة ، لم اشعر الا بموقع اللمسة ولم يتعد أثرها أكثر من ذلك ، وظلت نبضات قلبى فى سرعتها المعتـادة وظلت دورتى الدموية فى سيرها الطبيعى ، لم تنحسر الدماء من أطرافى أو تندفع الى راسى ، ولم يأتنى بالدوار اللذيذ ، فقلت لنفسى جسدى لا ينجذب الى جسده ، من المؤكد اننى لا أحبه .

فتحت باب الشقة بمفتاحى ـ سمعت صوت أمى آتيا من المطبخ تئن من روماتيزم ساقها ـ وقررت فى نفسى أن أقـاطع هذا الرجل وانهى علاقتى به . شعرت بدمعى ينسـال فوق خدى ، حزنا على شىء غامض فى داخلى يتخلخل ويتقلص ويموت، حبى لرجولة هـذا الرجل وكان قد بدأ يشـدنى الى عـالم كنت انفر منه !

ولكن كيف حدث أن جذبنى طوال الفترة المـاضية ؟ !

بنظرة من سـعاد تنبهت اليه ، وكان يدخل الى حديقـة المركز . كنا نقف قرب المدخل ، فى وسط مجموعة من الزملاء

ترتفع ضحكاتهم بآراء مرحة ، وكان حسين يقول ان الحب وهم يخلقه خيال مريض ، أوله هزل وآخره غم ! .. ضحكنا وتفاصح سامى : انما الحب اعوجاج هو علة نفسه ، لا يصلح معه نصح أو افتاء .. فعلق عليه عوض : اطلبه لعدوك ، عقرة الحب مثل عقرة الكلب المسعور ! .. الوحيد الذى تكلم فى جدية وأسى كان ابراهيم ، قال ان الحب حالة عاطفيـة لا تعيش فى غير المنـاخ الموضوعى المناسب ! .. ثم لاحظ فريد أن جميع الواقفين غير متزوجين !! ، نظر فى عينى باصرار خبيث وقال :

– ومن واجب البعض أن يتزوج .

لذت بنظراتى الى سـعاد لأجدها فى نظرة متوترة تتـابع بها مهاب الذى عبر الحديقة ثم اختفى فى باب المبنى . قلت لنفسى لحظتها : يكاد وجهه أن يذكرنى بشىء ما أو بانسان ما ..

لذلك اعترضت طريقه بعد الظهر ، ارتبك وتلعثم كطفل صغير وبدا فى لخمة البنت حديثة المراهقـة ، فاستلطفته ، لكنى لم أرحمه وانتقدت طول ذقنه وقلة أناقته وبقع عجيبـة تلطخ أكمام قميصـه : أغلب الظن أنها من فعل المواد الكيماويـة ، ولمـا أخبرته بأن أحد المخترعين قـد ابتكر جهـازا لتصفيف شعر الرأس رخيص الثمن اسمه « المشط » احمر وجهـه ومرر أصابعه بين شعره الأسـود .. وكانت سـعاد معى ، وكانت ترتبك بارتباكه !! وكلمـا تحدث تقلقلت نظراتهـا لتستقر على شفتيه !

وفى اليوم التـالى بدا كأنه نسى كل ملاحظـاتى ، جـاء نعسان وأظنه لم يغسل وجهه فتبعته حتى معمله – دون سعاد – ابتسم فى وجهى ورأيته – ولا ادرى لمـاذا ؟ ! – ساحرا .

حدثني كثيرا عن دودة القطن وتجاربه للقضاء عليها ، وأراني في فخر وزهو دوده العقيم والذى قام بتعقيمه ، شارحا أن تعقيم دود القطن هو السبيل الأمثل للفتك به اذ سينقرض دون أجيال جديدة . حملقت الى هذا الدود فوجدته أقوى وأضخم من المعتاد !!

ضحك وسأل :

ـ هل تعرفين سر قوة البغال ؟؟

هززت كتفي . قال :

ـ ذلك أنه جنس ثالث ، عنين ، لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى .

حملقت في عينيه :

ـ أهي قاعدة ؟؟

ـ ربما ..

ـ أتسرى اذن على الرجال الأقوياء ؟؟

فأبعد نظراته عني ، ومرة أخرى قلت انه يكاد يذكرني بشيء ما ، لكن ما هو ؟؟

وفي الأتوبيس قال انه لجأ الى حيلة التعقيم هذه لأن الدودة ـ بمرور الوقت ـ قويت مناعتها ضد المبيدات . تفلسف قائلا :

ـ هكذا حال الانسان مع سموم مدنيته ، يقلقه الضجيج في البداية لكنه سرعان ما يألفه ، وسرعان ما يتأقلم مع الدخان والزحام ، ويصبح الشاذ مألوفا .

كان يكلمنى بصــوت مرتفع ففوجئت براكبين يدخلان معنا فى الحديث ، لبندمج هو معهما ويكاد ينسى وجودى !! .. لكنه بعد ذلك تعلم كيف بتأنق ، وبانت عليه وسامة الرجال !

اهتم بى ونسى الآخرين ، لكنى لم اكن اريده أن يفعل ذلك مع سـعاد ، كان يتجاهلها بطريقـة مؤلمـة ، وان حدثها ففى اقتضاب واحيانا فى جفاف .. نبهته الى ذلك اربع مرات : المرة الأولى فعلتها فى حرص وبطريقة غير مـاشرة ، والمرة الثانيـة فى كلمات محددة وفى هدوء كبير ، ثم لفت نظره قائلة :

ـ فلتعلم أن الاهانة لسعاد اهانة لى .

كنت حاسـمة ، وعندئذ حـاول ممارسـة الضغط على مهددا بالقطيعة ، حذرته :

ـ أرجوك : لا تضعنى فى موقف المفاضلة بينها وبينك .

الى أن قفز الى الأتوبيس لاحقا بى !! .. مبتعدا عن طفلتى الحبيبة التى وقفت على المحطـة واجمـة ، ومن المؤكد انهـا بكت ، ولولا اسراع الأتوبيس لقفزت انا اليها . كان فظا :

ـ فظيع .

كررتها له ثلاث مرات ، فسكت لمسافة محطة كاملة ثم بدأ يحاول تلطيف الجو ، روى كل ما يعرفه من مفارقات مضحكة ، قال نكتة ضحك لها حتى دمعت عيناه ، والاسراف فى الشىء ينقلب الى الضد ، لذلك لم ابتسم .. وهربت من صـوته الى والدى ، فتداخلت البيوت أمام ناظرى ، ورأيت ابى ، الحبيب الذى .. رحل وتركنى .. أواجه هؤلاء الناس .. الرجال .. وكان قد داعب .. شعرى الأصفر .. وقال :

ـ أنت يا نبيلة أجمل ما جئت به الى الحياة

وعندما مرض ظل كلما جلست الى جواره ينظر الى وجهى طويلا ، وكان اسمى هو آخر ما نطق به قبل أن يرحل ، ويتركنى .. للناس .. الرجال .. وحدى .. بأمى التى لا تغادر المطبخ الا الى السرير لتتأوه من روماتيزم الساق .. أما أبى فكان يبتسم دائما فى وجهى ، حتى لو كان يتألم ، ويهمس :

ـ أنت اللمسة الرقيقة فى حياتى ، الهمسة الناعمة .

وكان يعامل أمى برقة ولا يمل من سماع شكواها ، وكان يحب أن يدفعنى الى البوح بشكواى كى استريح ، قلت له :

ـ أبحاثنا التى نجريها يقتلونها فوق الأوراق ، فتحولنا الى الكسل وشرب القهوة وقراءة الجرائد المملة !

قلت له :

ـ كرهت الفوضى والقناعة بالجهل وسوف أهاجر يا أبى .

صمت طويلا ثم قال :

ـ ما يرضيك يرضينى ، لا أخشى عليك من أى مكان . أنت بعشرة رجال .

فشعرت بالقوة وقلت فى عناد :

ـ بالفعل أنا بعشرة رجال .

نبهنى مهاب الى محطتى فنزلت من الأتوبيس وسرت الى البيت وسار جوارى مكملا حديثا يبدو أنه بدأه فى الأتوبيس .

مد كفه ليمسك كفى فسحبتها ، ثم عدت أتركها له لأجرب .

كنت أريد أن أصير طبيبة ، أدخل كلية الطب بدلا من العلوم ، لكن مجموعى رمانى الى قسم الجيولوجيا والى التربة والصخور والبازلت وطبقات الجير والرمال ، والخوف من آفات الصحراء وضربة الشمس والدفانة ذات اللدغة القاتلة ، ومعرفة العرق وطعم العطش . كنت أتمنى أن أصير طبيبة للولادة . أخرج الأطفال من البطون ، البنات والبنين والتوائم ، لكن رغبتى أجهضت ، ولا أدرى لماذا رغبت فيها ، أما الآن فأنا لا أريد .

أسفل سلم البيت استدرت له مودعة ، وفجأة تذكرت : أن وجهه ظل يذكرنى بصخور الجرانيت التى كنتأجرى عليها أبحاتى ، اللون ، قسوة الملامح ، اتساع الجبهة ، وهذا الصدغ ! .. تفحصت لونه الجرانيتى وكان يقترب من وجهى ، يريد أن يقبلنى ، وأردت أن أجرب تأثير قبلته ، لكنه كان خائفا ، فرميت بنظرى بعيدا عنه ففافلنى وقبل خدى ! ثم حاول أن يلثم شفتى ، فلم أشعر الا بأثر الضغطة ، وكانت حرارته فى مثل حرارتى فلم ينتقل شىء منه الى ولم ينتقل شىء منى اليه ، وأيقنت أننى فيما قبل كنت واهمة معه .. وعلى الفور رأيت دوده العقيم يتلوى غليظا قويا فى عينى !!

كالأمعاء عندما تلفظ الأكل الضار ، كالبدن عندما يطرد الجسم الغريب ، كالجسد عندما يتخلص من الدم الفاسد ، شعرت بهذا الرجل يخرج من وجدانى وبصفة نهائية .

فتحت باب الشقة بمفتاحى ، وكانت أمى فى المطبخ ،

فدخلت مباشرة الى غرفتى مهمومة ، حزينة على سـعاد ، كانت المسكينة كلما تكلم تتنقلت نظراتها لتحط فوق شفتيه ! ..

استلقيت على سريرى ورحت أنظر الى صـورة أبى . كم هو نبيل ، وديع النظرة ، بشارب حليق فوق شفتين جميلتين. كان يعرف امنيتى فى أن أصير طبيبة ولادة .. وقال لى :

ــ ستكونين أجمل تلميذة بكلية العلوم ، أرجو أن تكونى أكثرهم تفوقا أيضا .

وعقب يومى الأول رآنى أعود قرفانة :

ــ انها كلية للأولاد ، ليس هنـاك من بنات غيرى وغير تلميذة اسمها تفيدة .

ــ فهل هى جميلة مثلك ؟؟

ــ بالتدقيق تكتشف جمالها .

ــ أما الاكتشاف معك فيجىء فى الوهلة الأولى .

ثم همس ونحن فى الشرفة وأمى تتأوه فى غرفتها :

ــ أرجو أن تثقى بى يا نبيـلة ، وأن تحـكى لى عن كل ما يطرأ عليك دراسيا .. وعاطفيا .

وبعد برهة عاد يهمس :

ــ لأن معظم التلاميـذ سـيغازلونك ، وهم فى الحقيقـة معذورون .

وهذا ما كان ، وكان تقربهم مسليا ممتعا ، ثم صار مملا مضجرا . وتقربت من تفيدة ، وصـارت ترتـاح لى ، وعند

التخصص التحقنا بنفسم القسم ، وصــار تقاربنا التصاقا .
كانت طيبة مطيعة وكنت أذاكر معها ؛ تأتينى هنا احيانا وأذهب اليها أحيانا ، وقرب الامتحانات كنت أبيت عندها فى غرفتهــا البسيطة ، وكنا ننام معا فوق سريرهــا ملتصقتين ؛ مرتاحــة لقربها .. واحببت كل ما فى حجرتها .

وفى وقت البرد كان حضنها يدفىء حضــنى ، حتى ألفت انفاسها واحسست بمعظم أحلامها ، يقضى الانسان نصف وقته حالمــا ــ وكان يلذ لها أحيانا أن تدفن أنفها فى ابطى فكنت أعطره لها ــ وكنا فى دقائق ما قبل النوم وما بعد اطفاء النور نتحدث عن بعض الأولاد فى الجامعــة ، وكانت هى تحب الحــديث عن الولد عماد المراهق الذى كان يطلق نصف لحيته من باب لفت النظر اليه !!

ثم تخرجنا معا ، وعملت نفيدة بالتدريس وتزوجت ، ولم أرتح لذلك فقد كان زوجهــا غير مناسب لها ، وصدق حدسى ، اذ وجدتهــا تتجنبنى وتبتعد عن لقــائى ــ أنا حبيبتهــا نبيلة !! ــ وعندما زرتها آخر مرة تلقتنى بارتيــاح وحرج ! من بعد أن قابلنى زوجها فى جفــاء غير مبرر ، كان يقول انه لا يطمئن الى الصداقة الشــديدة بين فتاتين ؛ فكرهتــه وتركتهما ولم نتقابل الا مصادفة .. وقاومت حزنى منها حتى كرهتها أيضــا بمثل ما كرهت رجلها .

وصرت أقــوى عزيمتى دائمــا بقول أبى : اننى بمثــل عشرة رجال .

لكن أين هى الآن ــ حبيبتى ســعاد ــ كم أحن اليهــا ؛ لو تأتينى الآن ، لو يرن جرس البــاب وتفتحه أمى لتجىء الى

غرفتي فتنتعش على الفور أحاسيسي ويزغرد كل جسدي وتصير الغرفة جميلة والهواء عطرا ، وأضمها الى حضني أحايلهـا ؛ أدفىء أناملها بكفي ، أريحها من فستانها الضيق ، ويطمئن جسدها الصغير للصقى ، ويجيء أنفها فى صدرى تنهار فيه صامتة كولد صغير وتهدأ رجفتها ، الحبيبة البائسة .

أغلقت باب الغرفة واستدرت صاعدة الى السرير ، الحزن فى وجهها المنكسر ، والدمع يلمع فى عينيها . أنفى يهبط مداعبا أنفها ، تبتسم ، فتغرورق عيناى ، ويبلل الدمع أهدابهـا وترف نظراتها .. المسكينة .. المستكينة .. أحس بحيويتها ، فتاة نضرة ، ممتلئة حنانا .. أداعبهـا بكلمـات عطوفة ، فتتجـه بأنظارها .. الى شفتى .. ثم تغرد بضحكة واهنة .. وتنكمش فى جسدى .. وأشعر بكفيها فوق ظهرى .

نبض الجنـاح

كنت قد أظلمت فوقى ، وأرجعت مسندى حتى آخره ، ثم أغمضت عينى .

رفض النـوم أن يأتينى . عدلت مقعدى . كل المصـابيح مطفأة ، عدا المصباح المجـاور وعدا مصباح قريب جذب أنظارى ، كشف نوره عن شابة جميلة من تحته ، أعجبنى جدا « بروفيل » وجهها . نظرت الى ظلام الخـارج فرأيت صورتها منعكسة فى زجاج النافذة المستديرة ، كانت مستغرقـة فى القراءة . عدت اليها : شقراء ، رقيقة الملامح ، رفيعة العنق ، عالية الجبهة . تذكرت أختى بشعرها الأسـمر القصير وشفتيها الممتلئتين وابى وأمى يلوحون لى بأيديهم فى المطـار .. لكن الراكب الى جوارى نظر الى من فوق نظارته وهمس :

ـ أرى أنك لا تستطيع النوم ؟ !

ـ نعـــم ..

ـ مع أننا تجاوزنا الثالثة بعد منتصف الليل !

ـ نعـــم ..

ـ ومع أن معظم الركاب قد راحوا فى النوم !!

ـ يختلف الناس .

تلفت حوله محرجا فى همس :

ـ انا ايضا لا يأتينى النوم فى الطائرات .

اغلق الملف الذى كان يقرأه ، وحشره فى الشبكة المثبتة بظهر المقعد المقابل ، وهمس :

ـ فهل يضايقك أن نتحدث معا ، همســـا حتى لا نوقظ النيـــام ؟؟

ترددت وقتا ثم همست :

ـ أبـــدا ..

وبكت أمى وهى تودعنى وقـــالت : حـــافظ على صحتـــك وشبابك .. وفهمت أنا أنها تريد أن تحـــذرنى من الاسراف فى مصاحبة البنات .

خلع الرجل نظارته وقدم لى نفســـه ، فعرفت أنه يعمل فى الصليب الأحمر . سألنى :

ـ أنت مصرى ؟؟

أومأت .. لكنى رأيت بيتنا القديم فى أقصى جنوب البلدة ، وشاهـــدت الكبش الصغير يقفز فوق احجـــار المعبد المتهدم ،

وشخللت الشخاليل فى عنقه ، وكانت الفجرية الصغيرة تطارده ، ولم يتوقف الا عند الكلأ .. كنت صبيا .. وبعد ذلك رحلنـا الى القاهرة .

سأل الرجل :

ــ عندكم الهلال الأحمر ؟!

اومـأت ..

ــ كذلك فى تركيا وفى أربع جمهوريات سوفيتية ، أما فى ايران فيحل الأسد الأحمر محل الصليب الأحمر .

ــ اختلفت الرايات والهدف واحد .

ــ طبعا . ومن قبلنا كان الجرحى يتركون فى أماكنهم حتى يموتون ألمـا وجوعا ، ولم يكن هنـاك من يرعى الجندى ان هو وقع فى أسر عدوه ، كانت الأمور سيئة ، وكانت الدنيا فوضى ، ونادرا ما كانت الجيوش تتفق على هدنة لسحب الجرحى من ارض المعركة ودفن الموتى ، وفى أغلب الأحوال لم يكن يحـدث ذلك ، فكانت الجثث تتعفن وكانت الأوبئة تنتشر مثل الطاعون أو الكوليرا .

ــ شىء بشع .

ــ كان ذلك فى المـاضى ، وكان الانسان فى بداية تمدنه ، أما الآن فنحن نستخدم أحدث ما وصـل اليه الطب كى نقوم بدور اليد الحنون للبشريـة ، وذلك فى الحـروب وفى كوراث الطبيعـة .

ــ هكذا يجب أن يسخر العلم .

ـ طبعـا . وان كانت هنـاك حالات لا نستطيع حيالها تصرفا ويقف الطب عاجزا ، كأن تصيب الطلقة أو الشظية موضع القلب فى صـدر الجندى ، كأن تكون حروقه أقوى من طاقـة الاحتمال البشرى ، كأن يعثر عليه وقد نزفت كل دمائه أو فصلت راسه تماما .

سالتنى اختى : لمـاذا تهـاجر ؟ ! قلت لها : تعرفين ان كل الأبواب آغلقت .

وهمس الرجل :

ـ وأسوأ الجنود حظا هو من يتلقى صاروخا فوق نافوخه يقضى عليه فى الحـال ، أو تدوس قدمه على لغم حديث ينثره قطعا فى الهواء ، وفى الحـالتين لن نعثر على أى شىء . أنت تسمع عن مدى فاعلية الأسلحة الحديثة ؟؟

ـ أسمع .

ـ ومن أجل هؤلاء الجنود الذين يتنـاثرون تقيم الدول المتمدنة نصب الجندى المجهول ، عندكم منها ؟؟

ـ عندنـا ..

ـ أنا نفسى شاهدت منها العديد فى الدول التى زرتها ، آخرها كان فى صـوفيا ، فى وسط حديقـة تسمى « حديقـة الأطباء » .. كأنه مسلة فرعونية ضخمة مبتورة الارتفاع ، جدار سميك أصم ، كسا الرخـام الناصع جوانبـه الأربعة ، وغطت الحروف السوداء بياض رخامه ، وقد راعوا عند بنائه أن يكون رصينا بلا زركشة ، وأن يسع سطحه عددا كبيرا جدا من الأسماء المحفورة عليـه .. نصب تذكارى لبعض ضحايا الحرب العالمية

الأخيرة ، من الأطباء الروس ، ماتوا وهم يعالجون المحــاربين ضد جيوش هتلر .

ـ لمسة وفــاء .

وقد رأيت سائحة روسية عجوزا تدور حول النصب : كانت ترتدى بالطو من النايلون الرمادى ولم يكن الجو باردا ، وكانت تتكىء على مظلة مغلقة ولم يكن الجو ينبىء بالمطر ، كان يبدو عليها أنها تبحث عن اسم معين بين هــذه الأسماء . ظلت تدور وتتفحص بعينيها ، وتجاعيد وجهها تتبدل . انتهت من جانب فاستدارت الى الجانب الآخر ، وظللت أنــا مكانى أراقب هذا المشهد ، حتى وجدتها تجمد مكانها فجــأة ـ ربما تكون قد شهقت ـ متسمرة الأنظار عند اسم معين ، وربما تكون قد بكت ولكنى لم أر الدموع .

ـ من الجائز انه كان ولدها ؟؟

ـ أو أخاها ..

ـ أو زوجها ..

ـ أو حبيبها ، لابد انه كان شابا فى ذلك الحين ، ومن الجائز انه تركها على وعد بالزواج عند لقاء العودة ، ولكنــه لم يف بوعده ..

نظرت الى « بروفبل » الوجه الجميل تحت النور ـ لكن البرق فى الخارج شــد انظارى ، لمع بسرعة واختفى ولم أسمع رعدا ، شرخ مضىء فى ســواد كامل على مدى الرؤية ، ومن فوقنا السحب المرتفعة تحجب القمر ، وعندما تتركه ليظهر تقوم أشعته بكشف السحب المنخفضة اسفلنا ، فهل تمطر الآن فى الأرض ؟؟

ارتحت للصمت .. وفى المطار نهرت اختى امى : « لماذا تبكين يا أمى ؟ دعيه يهاجر ، انه وسيم وربما تزوج هناك ابنة احد الأثرياء » .. لكنها قرب موعد الطائرة انتحت جانبا وبكت هى ايضا .

اخذت اتابع لمبات الجناح وهى تنبض فى توتر رتيب ، حمراء ثم خضراء ، ثم حمراء .. وقاستنى فتحية بنظراتها ، ولما رفعت ثوبها اعجبنى فخذاها .. لكنها توافقت وقالت انها تقبض اجرها مقدما .. ثم عاد الرجل يهمس :

ـ تقوم الحروب مع أن كل الشعوب تمقتها ، حتى فى امريكا شاهدت الشباب يتظاهرون ضدها ، وكانت لحاهم طويلة ، لا أدرى لماذا لا يحلقونها ؟ .. سمعت أنهم لا يستحمون ايضا !! .. وكانوا يحملون لافتة كتب عليها : « ارفعوا أيديكم عن الشعوب الصغيرة » .

أردت أن أسأله : هل رفعوها ؟؟ لكنى استسهلت السكوت، ثم قلت فى سرى بأن هناك فرقا كبيرا بين من يعتدى وبين من يدافع عن نفسه ، وقررت أن أخبر الرجل بذلك ، الا اننى لم افعل . وكان الصمت ثوانى ثم عاد الرجل يهمس :

ـ ليس من حقى أن أهمس لك بما همست . أرجوك انس أننى همست لك به .

ـ أذكر انكم هيئة انسانية محايدة .

ـ قد انقذنا الكثير من شتى الجنسيات والملل . اذكر حالات معينة حدثت معى على وجه التحديد .. منها جندى

أمريكى وجدته فى كوريا وقد نزفت دماؤه بغزارة ، اضطررنا الى بتر ساقيه من عند الفخذين ، لكننا نجحنا فى ايقـاف النزيف وفى انقاذه وأعدناه الى بلده ، وهو الآن يعيش فى صحة جيدة .

شعرت بتثلج فى أطرافى . وضعت البطانية الصـوف فوق سـاقى .

ــ هناك أيضا شابة فيتنامية ، أغلب الظن انها بوذية ؛ يبدو ان الغارات الأمريكية افقدتها عقلها ، فهرعت تلقى بنفسها الى النهـر ، وكادت أن تغرق لولا أن تصـادف مرورنا ــ من حسن حظها ــ فانتشلناها وأدخلناها مصحة الأمراض العصبية .

كادت الدماء ان تفر من عروقى .. **سمعت صفارة المحلج ..** وقررت أن انهر الرجل حتى يكف ، وقررت أن أفعل ذلك بصوت جهورى ، لكن ضغط الارتفـاع زاد من صـداع رأسى وضيق تنفسى .. **ولما رأينا البوليس يتقدم نحونا بالعصى والخوذات جرينا ، واحتمينا بسور المدرسـة ونحن نلهث ، لكنهم اقتحموها فعبرنا الملعب ركضـا ، ولما قفزنا من فوق السـور الخـلفى سقطنا منهكين فوق العشب البرى فمزقتنا اشواكه .**

همس الرجل :

ــ وهناك أيضـا شاب أردنى فى منطقتكم أصيب بالنابالم ؛ وجدناه فى حـالة ميئوس منها وقد فقد بصره وتشوه وجهـه قليلا .. فبذلنا معه المستحيل حتى أصبح قادرا أن يتحسس طريقه فى شوارع عمان .

مطب هوائى سخيف ، هبطت الطائرة ثم صعدت ، فجـأة فى المرتين ، فطـارت رأسى منفصلة عن جسدى ثم عادت تنغرز

بشدة ؛ وصعد الثليج الى خدى ، وشعرت بالدوار .. وسألتنى اختى فى عناد : ((لماذا)) ؟ .. قلت لها : سئمت كل شىء . فرصتى أعطيت لغيرى ، وفرصة غيرى ألقيت لى .. اريد ان أعيش قبل أن أشيخ .

نظرت الى مقعد الفتاة الجميلة فوجدت نورها مطفأ ، فلم يعجبنى ذلك ، وتمنيت أن يسكت الرجل وودت لو نصل سريعا . ونظرت الى ساعتى فعاد الرجل يهمس :

ـ الساعة تقول : اننا فى عز الفجر ، ولكن الطائرة تخترق بعض السحب الداكنة لذلك فنحن لا نرى نوره ، وكان من الممكن أن نراه قبل سكان الأرض ، وكان من الممكن أن نرى المحيط الآن عند التقائه بأرض القارة وهو من أجمل المناظر ـ اننى أسافر كثيرا وأعرف كثيرا ـ ولو كان الجو صحوا وزاد ارتفاعنا عن ذلك كثيرا لشاهدنا مساحات أوسع من الأرض ، رواد الفضاء يشاهدون من سفنهم كل الكرة الأرضية .

سكت الرجل فأعطيته نصف ظهرى مستديرا الى الخارج ، ناظرا الى لمبات الجناح النابضة ، وكان الجناح يلج الى سحابة شديدة القتامة .. ورأيت الكبش الأبيض يقفز .. ودخلت حقول القصب .. لكننى حزنت عندما انتهيت من فتحية بسرعة كبيرة .. ولما نطحنى الكبش فى بطنى بقرنيه الصغيرين ضحكت .. وتألمت كثيرا عندما ادمت الأشواك ساقى بالجروح .. وقالت : هذه استقالتى فقبلها الرجل على الفور وكأنه كان ينتظرها وكانت عيناه جاحظتين .. لوحت أختى وبكت امى .. ثم جرى الكبش

الأبيض بعيدا .. بعيدا .. بعيدا .. فلم أر شيئا لكنى سمعت همس الرجل :

ـ وقديما كانوا يرجمون من يقول : ان الأرض كروية !!

ضحك ثم تعجب هامسا :

ـ تصور !! وبالحجارة !!

مارس ١٩٧١

رأسها فوق صدرى

- ١ -

تحتضننى متشبثة بى فى عنف ، تنظر الى وجهى طويلا ، كفاها فوق ظهرى . ذراعاها تحيطانى . تشدنى الى صدرها فى عصبية . وجهها يبتسم فى هدوء . تضحك . تصمت . تبتسم ، حلوة ابتسامتها . تتركنى ، تنزوى جانبا ، تنحبس ضحكتها وتترقرق دموعها . اتبكى ؟ ! .. ابتسامتها لم تختف ..

ـ ذلك من فعل المفاجاة . صدقنى . من فرط سعادتى .

صوتها ، جميل رنينه على اذنى . وراء هـذه التصرفات خوف مكبوتا طوال غيبتى .

صرخ زميلى اشرف ، وكنا فى ملجا الأفراد :

ـ ضرسى يؤلمنى .

- ٢ -

مليئة بالعرق هذه الملابس الصفراء .

ـ صحتك ليست على ما برام !!

البنطلون مغطى بذرات التراب الأصفر .

ـ لون وجهك تغير كثيرا ، ليس طبيعيا !!

لون بطنى اكثر بياضا من ذراعى ووجهى .

ـ كل شيء فيك تغير !!

ـ أمر طبيعى ..

ـ عدا عينيك ..

اتأملها . تبتسم . تقترب منى مدققة . تتراجع :

ـ حتى هما تغيرتا . نظراتك الآن أكثر حدة ، أكثر قلقا !!

صرخت :

ـ حاسب يا أشرف ..

قال :

ـ ... ...

قال :

ـ ... ...

لم يقل .

ـ قلت :

ـ حاسب .

الحياة سخيفة بدون أنثى . أمد لها يدى . تندفع بينهما . رائحة عنقها . لحم المرأة . خدها ناعم على شفتى . شعرها يداعب أنفى ، رائحته . أعود الى عنقها . رائحة البشرة . أغمض عينى مشتاقا :

ـ اجازتى ٣٦ ساعة ..

ـ فقط ؟ !

ـ طوارىء .

ـ لو أعرف أنك قادم لتزينت لك .

ـ ٣ ـ

صوت المطبخ . جميل أن تعد زوجتى الطعام لى . صوت الملعقة يصطدم بالوعاء ، اصطكاك الغطاء به هابطا فوقه : لتكن وجبة حافلة احتفاء بعودتى العابرة .

البيت يحيطنى ، فلأملأ صدرى بهوائه . الجدران كائنة قائمة عمودية . الستائر حية ترتعش مع النسمة . باب الشقة وشرخ فى زجاج الشراعة . المقاعد متواجدة ، ملمسها ناعم على أصبعى ، لونها جميل ، وهذا خط أسود رفيع يلاصق كل خط عريض !! لأول مرة الحظه ، أذكر اللون بصفة عامة . لون عينى أشرف كان بنيا ، أم كان عسليا ؟؟ .. غريبة !! رغم انى أحبه !! أما لون عينى زوجتى فهو عسلى ، جائز جدا ، بل من المؤكد .

أسمع المياه تتدفق من صنبور المطبخ .

- ٤ -

لين ، ناعم ، جسدى مرتاح ، مرتاح فوق هذا الفراش ، ظهرى ، والآن بطنى .. غاصت أنفى فى الوسـادة ، رائحـة زوجتى ، أقدر على تمييزها من بين ملايين الروائح . أسـمع المطبخ .

كنت أتسحب وأنا طفل فوق السرير حتى طرفه ، كنت أحب ان اميل براسى ، كنت ارفع غطـاء الملاءة المنسـاب جانبـا وانظر تحت السرير .. كما افعل الآن .. كما افعل .. الآن .. مرة وجدت برتقالة تحت النملية فى الصـالة ، كان أخى قد خبأها الى حين ، وبعد ساعة بحث عنها .

سـألته :

- عم تبحث ؟؟

احمر وجهه وقال :

- عن فردة الحذاء .

ولمـا رآنى ابتسم فى مكر ، عرف أنها استقرت فى بطنى .. فهجم نحوى بغتة وألقانى أرضا .. الا أننى ضربته ..

والآن ها هو أسـفل السرير بلا برتقـال !! .. به بعض التراب وشبشب قديم .. وصرصار ، كيف أفلت من مطـاردات زوجتى النشطة ؟ ! هل أقتله بالشبشب القديم ؟ ! ليست عندى الرغبة .. ولكن اين القط ؟ ! الملعون يظل نائمـا حتى موعد الأكل فينشط ويعلن عن وجوده ويتمسح !!

أصــوات المطبخ مستمرة ، صوت وعــاء « يشطف » تحت الصنبور .. صوت كوب يمتلىء بالمــاء . لا أشم رائحة الطعام بعد .. الآن وضــع الكوب مقلوبا فوق الرخامة .. وزوجتى مصرة على الحكى .. وهى تحكى بلهجتها الصعيدية المحببة .. منذ أن دخلت المطبخ وهى تقص كل ما حدث ـ وربمــا ما لم يحدث ـ خــلال فترة غيابى .. « طشيش القدحة » : الله ! ها هى الرائحة ، وجميل منها أن تتجنب وبذكاء ، سيرة الحرب .

ـ آى . اى . ضرسى يؤلمنى ..

ولمـا تناولت علبة السجائر لأخرج واحدة تساقطت منهـا حبات الرمال .

ـ ٥ ـ

دورة مياه شقتى ، خاصة بشقتى .. والمرآة .. وماكينة الحلاقة ، وسلة الملابس المتسخة . الجلســة فوق مقعد المرحاض مريحة ـ ذلك أصبح مؤكدا الآن ـ والجريدة فى يدى ، كما فى الأيام الأولى .. عيناى لا تقرأ ، ترى الحــروف ولا تقرأ .. بالفعل أنا سعيد بهذه الجلسة .. ســعيد جدا .. (**وها هو هارون الرشيد قادم عبر الحــائط متلألئا بين جواهره البراقة ، لا لشىء الا ليرمقنى فى حســد وغيرة ! . قلت له : لا تحــاول ، هذه سعادة لن تعرف مثلها) .**

صــوت زوجتى يقترب ، نشرتها الاخبــارية تعلو ، انتقل المؤشر من موجة المطبخ القصيرة الى موجة الصــالة المتوسطة بذبذبة قدرها .. قدرها .. كم ؟؟

ـ كم ؟؟ قلت كم طول الموجة ؟؟ .. هس .. ها هو العدو يتحدث .. يتخابر .. تمكنت من التقاط موجتـه بعد أن غيرها منذ دقائق .. هس .. دعنى أستمع .

لزمت الصمت . كان أشرف يعرف لغـة الأعـداء كواحد منهم ، وكان ضرسه يؤلمـه .

ماء الدش ممتع .. (**نظرة هارون الرشيد تتسع حسدا**) .. الخيوط الهابطة منعشة ، غاية الانعاش ، فوق وجهى ، فوق كتفى ، فوق ظهرى ، وصـدرى .. وطعمها لذيذ ، ولو زاد تساقطها لكانت المتعة أكثر ـ هنـاك الميـاه سوداء بالطين . وأوقاتا صفراء بالرمـال ـ ولن أخرج من هنـا .. لن .. أخرج .. من .. هنا .. خيوط المـاء .. رذاذ المـاء ..

لكن ما دامت رائحة الأكل تتسرب فى اغراء من تحت الباب فهذا معنـاه أن الطعـام قـد نضج ، وقد حان الآن موعـد اغلاق الدش .

- ٦ -

كما كانت أيام فترة الخطوبة : هذه النظرة الجانبية السريعة الممتلئة بالأنوثة وبعض الخجل ! جسدها دافىء ودود .. جـددت فترة الغياب سحرها فى عينى ، ضاعفت أيام الخطر من جمالهـا مليون مرة ، أرى أحلى امرأة فى تاريخ كل الحيـاة ، العين ، الرموش ، الفم ، الشعر ، الذقن والعنق ، والبسمة .. فلتكن لى.

دفعة خفيفة من كفيها :

ـ لكننى لم اتناول حبة منع الحمل .

ساحرة الجمال حتى تكلمت !!

تضغط أسنانها على شفتها السفلى .. نادمة ؟ ! .. تنكس نظراتها بعيدا عن عينى . تحسبين بتسرعك ؟ ! والآن تبالغين فى خجلك .. وشكلك هذا مضحك ، جميل .

ابتسم . تبتسم ، وتدخل نحوى فى عطف وتلتصق بجسدى. آن لجسدى المشدود أن يستريح بين ذراعيها ، ولأنفى أن يستكين فى رائحة شعرها .

- ٧ -

أرذل اختراع فى العالم هو الضجيج ـ مرة انفجرت فى قهقهات عالية ، لكننى لم اسمع صوت ضحكى بسبب الانفجارات ـ الهدوء عظيم ، السكون رائع ، والصمت سعادة ، الا من أنفاسها منتظمة الشدو ، والا من أنفاسى المنتشية بالراحة . يداى تمتدان نحوها تشدها فى يسر .. تميل الحلوة فوق صدرى ، تفتح فمها هامسة بالكلام ، تتولى أصابعى اسكاتها مشيرة فى حزم : فليكن صمتا .. وكان صمتا .

هذه الراحة ، ثقل رأسها فوق صدرى ، مداعبات أصابعها لشعره الغزير واكتشافها عدة شعيرات بيض به ، رمقاتها الهاشة نحوى من لحظة لأخرى ، كل ذلك لم يكن رائعا كما هو الآن ، وأجمل منه فى ليلتنا الأولى .

تمد يدها لتطفىء النور . لا أريد الظلام ، لا أريده ، أحب النور :

ـ دعيــــة ..

تقبلنى فى خدى مطيعــة ، تربت برفق وحنو على ، ثم تستكين : هل كانت كلمتى مذعورة ؟ ! هل كانت جافة ؟ ! .. وهذا الصوت ؟؟ !! تنتفض :

ـ الجـرس .

ـ اهــدئى .

ـ زائر بالباب .

ـ سييأس وينصرف .

ندفن وجهها فى ابطى ، هــذا أفضــل . وهــذه الساعة فلتركن بعيدا ، كم الساعة الآن ؟؟ يا خبر !! .. اركنها بعيدا .. هذا أحسن .. بعيدا جدا بحيث لا أسمع تكتكاتها . وهــذا الترانزستور الصامت : يوحى الى بالأصوات وبنشرة الأخبار .. وبالحــرب .. فليســتقر تحت السرير .. مع الصرصــار .. الشــارد .

ـ ٨ ـ

ضوء المصباح .. يعجبنى النور .. هنــاك الظلام طوال الليـــل .

ـ حاسب . حاسب .

شبكتا عينى مشتاقة الى النور : **لكن نار العدو سقطت على راس أشرف فوق نافوخه . وكان سيخلع ضرسه فى اليوم التالى** كان .. سيخلع .. ضرســه .. فى اليوم التالى . النور فعل مضــاد للظلام .. كل طفل يحب النظر الى النور ، ينام فوق

المهد يحملق فى المصباح .. انا انظر الى المصباح ، أنا أحملق الى الضوء ، انا ارى امى داخل المصباح .. انا طفل صغير .. فى زمن الحرب القديمة .. طفل صغير .. أبكى صارخا بصوت مرتفع مزعج ، يدفع أمى الى السخرية : ـ

ـ ها هى صفارة الانذار تنطلق .. غارة !!

ازداد حملقة الى المصباح .. أنا أغنى منسجما تحت الدش بصوتى الأجش المرتفع جدا ، المزعج .. المراهق .. المزعج المراهق .. أنا أسمع نقرات أمى على باب الحمام .. أنا اسمعها تتساءل فى دهشة شديدة عن الكيفية التى انتقلت بها صفارة مصنع المدينة الى حمامنا لتنطلق فى غير موعدها ـ وكانت قد نسيت الحرب القديمة ـ فقلت لها : اننى انا الذى أغنى وأن ذلك صوت غنائى الرخيم .

ضوء المصباح يتلون ! يخفت ! .. (أشرف ينظر مبتسما) :

ـ صديقى العزيز : كيف دخلت النور ؟ ! .. هل خلعت ضرسك ؟؟

ـ لم أخلعه . استرحت من آلامه . ما رأيك فى الحياة ؟؟

جدران الغرفة تتحول الى لون فوسفورى غريب !! .. السقف يبرق !! عقربا الساعة يقترب أحدهما من الآخر فى اصرار قاتل .. تكتكات الساعة .. عقربا الساعة يتضخمان !! أرى كائنا عجيبا مشعا سخيف المنظر ، ينظر الى زوجتى !! .. اصابعه طويلة رفيعة كثيرة العدد !! يمسك راسى ككرة صغيرة ، لا يرفع نظراته عن زوجتى .. لا .. يرفع نظراته .. عن زوجتى ..

ضرب اشرف فوق نافوخه ـ حاسـب يا اشرف ـ ضرب .. أشرف صديقى .. فوق نافوخه !! .. يضع عنقى بين حدى العقربين المقتربين .. انا اقاومه ، يجب .. أحـاول أن افقـأ عينيه .. العقربان يضغطان على عنقى .. بشـدة .. بشـدة أكثر .. التكتكات .. عيناى تجحظان : « حاسب » .. يقترب من زوجتى .. التكتـكات .. « لتزينت لـك » .. أمى .. اخى .. الصفارة .. البرتقالة تحت السرير .. الحمام هارون الرشيد الحرب القديمـة .. أمى .. التكتكات .. حبـة منع الحمل .. أمى سـوف انهض .. سانهض .. لابد ..

- ٩ -

.... نهضت . ضـوء النهار يتسلل . المصباح مضاء . نظرات زوجتى مضطربة متسـائلة فى انزعاج . اقبلها فى حنـان فوق وجنتها . ابتسم لها مطمئنا وانا اخلع بيجامتي . اثبتت الساعة حول معصمى بعد التاكد من ملئها . أمد يدى الى ملابسى الكاكى المغسولة .

نوفمبر ١٩٦٩

انتـــا نؤجـل

جاءت نحوى فيما يشبه الابتسامة ..

قــالت :

ـ انت أمل أخير بالنسبة لى ..

كان شــعرها ينســاب ناعما طبيعيا من حول وجههــا ، اعجبنى ذلك :

ـ شعرك هكذا جميل .. لمــاذا كنت تخفينه بالباروكة ؟!

لم تبتسم وقالت فى جدية :

ـ هل أستطيع ان اثق بك ؟؟

خفق قلبى دهشة . قلت هذا عبء . نظرت الى وجههــا الجميل ، لم تكن تنظر الى ، وكانت تنظر الى مكان غير محــدد فوق صدرى .. وعندما رايت عينيها لاحظت أن نظراتها بطيئة

حزينة ، وكانت ضمة شفتيها فيها المرارة والاحساس بالغبن وكانت عصبيتها فيها قليل من الاحتجاج .

عادت تسألنى وهو تدنو بفمها من أذنى :

ــ هل أستطيع أن اثق بك ؟؟

كان الضجيج من حولنا . أجبت :

ــ ليس بصفة مطلقة ..

لم تسمعنى . عدت أهتف :

ــ ليس بصفة مطلقة ..

زاد الخمول فى نظراتها ، كانت تنظر نحوى كما لو كانت تنظر الى شىء منبسط على بعد أميال .

عند الناصية قالت لى : انها اصبحت لا تطيق الجلوس مع والدها ، وانها صارت لا تحتمل أحاديثه معها وأن الكلام بينهما صار مفتعلا : سؤال قصير وجواب أقصر .

قــالت :

ــ أجيبه دائما بكلمــات قليلة مثل : ربما أو جائز أو يمكن أو لا ادرى ، كثيرا ما اقول له : لا يهمنى .. وأحيانا تنخفض اجاباتى الى الصـــمت وتتحول الى هزة من راسى بلا أو نعـم أو رفعة حاجبين فى تصنع الدهشة . هل جربت ذلك ؟؟

ــ مات ابى منذ الصبا ، وأنفر من الكبار .

ــ لا تظن اننى اكره والدى . اننى أحبه ، ولكننا لا نجد ما نقوله لبعضنا .. وفى الليل والدنيــا سكون أسمع صـــوت

تنفسه من حجرتى ، وأتذكر أنه شيخ معتل الصحة فتنتابنى الوساوس السوداء من أنه قد يموت فى كل لحظة ، وهذا بشع .

توقعت الدموع فى عينيها ، وقلت لنفسى : تمتلىء صحف هذه الأيام بأسماء الموتى من صغار السن .. لكننى لم أخبرها عن هذه الملاحظة لبداهتها .

فى صالة الشاى الهندى ، كان طفل الموظفة الهندية يبكى فسألتها ان كانت قد لاحظت ذلك . رفعت حاجبيها فى دهشة . قالت :

ـ صوت بكاء الطفل الهندى يشبه صوت بكاء الطفل المصرى ..

قالت :

ـ لأن بكاء الأطفال يتشابه .

وكانت الاضاءة خافتة فى الداخل ، وكنت أرى خيالات المارة تتماوج فوق الزجاج المصنفر .. فأخذت أحدثها عن ذلك اليوم القديم ، حيث لم يكن الوقت مساء ، وانما أقرب آخر النهار والشمس تنتهى من المغيب ، وحيث تتشابه الألوان ويصبح الشىء فى لون الظل ، وحيث تخطىء العين تقدير الأبعاد .. لذلك فانهم عندما ظهروا بغتة فى غرفتى لم أقدر على تحديد المسافة بينى وبينهم بالضبط ، ولم اقدر على تمييز تضاريس وجوههم ـ لكنى حدست أنهم الجاحظون ، ـ الشرطة ـ .. ودق قلبى فى عنف واحسست بثقل فى كل جسدى ، فقيدونى ـ يبدو انهم قيدونى ـ ثم أخذوا يجمعون كل ما هو مكتوب : مسودات اشعارى ـ كنت ساكتب اشعارا ـ وحتى خطابات أبى ورسائل

حبيبتى اخذوها .. توقدتهم آخر الليل وكل الناس نيـام لكنهم جاءوا قرب آخر النهـار ، لذلك فقد ذهلت واظنهم تكلموا ببعض الكلام .. كانوا يقفون مفرودى الطول فى وقفـات متشابهـة ، اصواتهم باردة متلاحقـة كرجع الصـدى ، الأول ثم الثانى ثم الثالث . قالوا :

ـ سوف نقرا هـذه الكتابات بعناية فائقة ، ظاهرها عن الحب ولكن من يدرى ..

وقـالوا :

ـ نحن فطناء وسوف نبحث عن المعانى المخبأة ..

وقالوا .. أيضا :

ـ لدينـا من المواد الكيمائيـة ما يظهـر كل خفى ولدينـا العلماء .. سوف ندخل رأسك ..

لكنى عندما أضأت المصباح الكهربى لاحظت فوقه افرازات البعوض وكانت الغرفة خالية .. الا أن عيونهم كانت جاحظـة وقالوا : « سوف ندخل رأسك » . وصارت هزيمـة الشمس ساعة الغروب تذكرنى بخطابات أبى الضائعـة ورسـائل حبيبتى وارهاصات أشعارى .. لم أكن أتوقع أن تعجب هذه الأشعار كل الناس ، لكنها كانت تعجب حبيبتى ، وهـذا يكفينى ، فلما علمت بفقدها صارت تتجـاهلنى ثم اختفت من حيـاتى بطريقة شبه نهائية .. وقالوا سوف ندخل راسك :

ـ ولم اعد الآن أذكر التفاصيل الدقيقة لوجه حبيبتى ، ربما كانت تشبهك .

سكت الطفل الهندى عن البكاء .

قـالت :

ـ يمكنك كتابة الأشعار ثانية .

ابتسـمت ولم أرد ، وأعجبنى أن صـدرها ممتلىء بثديين كبيرين ، لكنهـا كانت تتنهد .. ربمـا كانت تشبهها ، الا أن ما يمضى لا يعود ، ويومها كنت احب ، أما الآن فلم أعد اثق ، وصرت احاول أن اكون لصا ، اسرق لحظات الصدق .

حركة مفاجئة فى عينيها :

ـ صادقت شبانا كثيرين وكانوا تافهين . ولكنى أحببت واحدا فقط وقررت أن أصارحـه بحبى ، وكنت كل مرة اقابله فيها لا افعل ..

بكى صوتها :

ـ كنت حمقاء ..

ارتعش فنجـان الشـاى بين أصابعها فأعـادته دون أن ترشف .. بكون الندم على ما لم نفعله وليس على ما فعلنـاه ، ونؤجل على أمل قدوم لحظة أفضل لا تأتى .

غطت الدموع عينيها عاكسـة من فوقها الأشـياء ضئيلة متموجة الحواف .

قـالت :

ـ حتى اسمى صرت اكرهه لأن والدى اطلقه على .. هل تحب اسمك ؟؟

فى الشارع مرة أخرى . قالت :

ـ سمعت وانا صغيرة عن امور كثيرة تنتظرنى فى المستقبل؛ والآن تحول مستقبلى الى حاضر ، وأجد أن كل ما قيل كان سخفا .

وكنا نمر أمام محل الزهور فقالت انها تحب الزهور .. وفكرت أن أشترى لها بعضا منها فى الحال ، وفكرت أن ذلك قد يجعل قلبها ينبض بلحظات سعيدة .. الا أننا كنا قد عبرنا المحل فأجلت ذلك .. وشعرت برغبة فى اخذ كفها بين كفى لكنى ترددت .. وفى الصباح عندما خرجت من البيت احسست ـ لسبب مجهول ـ بالحنين البكاء لكنى خجلت من المارة وبلعت ريقى ومشيت اصفر .. واذكر مرة أننى كنت أركب المترو ولسبب لا اذكره كنت سعيدا ، وكان ذلك فى الماضى البعيد ، وكنت أريد ان انطلق مغنيا بصوت عال ، وبالفعل بدأت أدندن فنظر نحوى جميع القريبين منى ، ولذت بالمناظر الخارجية وغنيت فى سرى .. ثم سرعان ما جاءنى صداع سخيف .

قرب محطة الأتوبيس وفى ظل الحائط سألتنى :

ـ قريب انت من سنى فهل أستطيع أن اثق بك ؟؟

ترددت . تهدج صوتها :

ـ لماذا لا تجيب ؟ ! اقول انك قريب من سنى فهل استطيع أن اثق بك ؟؟

قلت وكان صوتى خافتا :

ـ علينا أن نلتقى كثيرا ..

هزت راسها سريعا . قلت فى صوت أكثر خفوتا :

ـ وأن نحاول .

يناير ١٩٧١

الأيــام التالية

تلفت الطبيب حوله حذرا ثم همس فى أذنى أن آخـذها واتوجه بها الى موقع ناء عن الناس ، بعيدا عن المدينـة .. قــال :

ــ يلزمها راحت الأعصاب والهدوء .

قــلت :

ــ أظن ذلك .

همس :

ــ اخفض صـوتك . كما أنها فى حاجـة الى فترة نقاهة محاطة بالسكينة ..

قــلت :

ــ أعرف ذلك .

همس مستاء :

ـ قلت لك ، همست لك أن تخفض صوتك .

جئنا الى هذا المكان على شاطىء البحر . البحر ممتد بعيد جدا ، لا يحده حد ، يبدو مقوس الأفق ازرق باهتا ، صخرى الشاطىء ، صخوره مدببة كأنها الابر كأنها حدود بلط أو أسنان خناجر .

سكنا هذا الكوخ الخشبى ، لا ادرى كيف يفلت من ريح الشتاء !! لكننا فى آخر فصل الصيف والهواء ساكن والأمواج خفيفة الوشيش ، وكنت أعلم الا شىء مضمون فى مثل هذا الوقت من العام ، قد يبدأ اليوم صيفا وينتهى شتاء ، قد ينتقل عبر فصول العام فى خلال ساعات قليلة .

بعد الخطوة الأولى لنا هنا نظرت هى الى البحر طويلا طويلا ، راقبتها ، أخذت عيناها ترقان ثم أخيرا لانت تجاعيدها الخفية وكادت تختفى تماما عندما ابتسمت ، أعجبها البحر وهذا فأل حسن لأعصابها .

قامت بتفحص الكوخ ، اختارت السرير المناسب لها ، ثم جلست على حافته رامية ببصرها الى البحر خلال زجاج النافذة . قلت :

ـ مرتاحة ؟؟

ربما لم تسمعنى . كانت آثار الكدمات ما زالت واضحة فى جبهتها . استدارت الى الجانب المقابل للبحر ، نظراتها الساكنة بدأت تنشط ، ثم بدا انها تكتشف شيئا مذهلا .

هرولت خارجة ثم شهقت واقفة أمام الشريط الحديدى الممتد محاذيا الشاطىء .

قالت منفعلة :

ــ هذا شريط سكة حديد .

كيف لم تره ؟ ! عبرنا فوقه فى طريقنا الى الكوخ وكادت تتعثر فيه !! .. لكنهـا كانت مأخوذة بفساحة البحر وحركته الأزلية الرجراجة .

قـالت :

ــ يمر القطار من هنا .

الشريط قـديم وصـدىء من الجـو الرطب ومن عـدم الاستعمال . فى قديم الزمان كان يمرق القطار من هنا رابطـا ما بين مدن الشاطىء وقراه ، لكنه لم يعد يجرى هذه الأيام ، الفى ولم يرفع الشريط وترك للصدأ وللأعشاب تنمو من حوله ولبعض السحالى البحرية تمرح من أسفله .

قـالت :

ــ ما دام هـذا شريطا حديديا فمن المؤكد ان القطـار يمر من هنا .. هل تعرف مواعيده ؟؟

ــ لا توجد مواعيد لقطار لا يمر !!

ربما لم تسمعنى ، استدارت الى البحر وقالت :

ــ ومن المؤكد أن السفن تعبر من هنا أيضا ..

ثم اتجهت الى باب الكوخ لكنها توقفت فجأة وهتفت :

ـ وها هى سفينة هناك .

ـ أين ؟؟

ـ هنـاك ..

ـ ... ... ؟ !

ـ هناك .. عند حافة الأفق .

نظرت ودققت النظر ، لم أر شيئا . قالت :

ـ ها هى .. عند نهاية الأفق .. والآن تهبط .. هبطت تحت مستوى الأفق ..

ـ ... ... !!

ـ الم ترهـا ؟؟

هززت راسى نفيا ..

ـ رأيتها أنا .. وكانت بلا شك سفينة .

ودون أن تحنى ظهرها او راسـها ، دخلت الكوخ من بابه المرتفع .

صباح اليوم التـالى فتحت عينى لأجدهـا واقفـة قرب سريرى تقول :

ـ لقد مر قطار بالأمس ؛ هل سمعته ؟؟

لم أسمع شيئا ، كنت قد نمت نوما عميقـا ، قام صوت الموج الرتيب بعمل المنوم الفعال .

ـ أردت أن أعرف موعده وبحثت عن ساعتك ولم أجدها.

اخرجتها من تحت الوسادة حيث سبق أن وضعتها لكنها كانت قد انصرفت عنى .

وفى الليلة التالية أيقظتنى فى لهفة . نهضت فزعا وسمعتها تقول :

ـ انصت .

لم أسمع شيئا عدا البحر .. لكنها قالت :

ـ مر القطار توا .. وهو الآن يبتعد ..

خيل لى ـ لدهشتى ـ انى أسمع ضجيجا لقطار مسرع . خرجت الى الشريط ونظرت فى اتجاهيه ولم أر أو أسمع شيئا . قلت لنفسى : « لا شىء مر ولا شىء يمر » .

ثم نمت حتى الصباح فحلمت بالمدينة وبيوتها العالية وطرقاتها المليئة بالأقواس الخفيضة .

فى نهارنا الأول هنا قمت باستكشاف المكان ، وفى النهار الثانى انتهيت من ذلك تماما ، فبدأت أشعر بضيق المكان حيث لا شىء يتغير والحركة ميتة ، حتى البحر بدت تموجاته رتيبة وكأنه مل أبديته .

صباح اليوم التالى قالت فى ثقة مذهلة :

ـ هما قطاران . هذا مؤكد . واحد عند منتصف الليل والآخر قبل الفجر بكل تحديد ..

رأيتها سعيدة باكتشافها فلم أعلق ، ثم خرجت أراقب البحر الكبير ، كانت الأمواج ما زالت تدفع ببعض الأسماك الصغيرة الى الصخور الخنجرية ، فرأيت بعضها يذبح ، وشاهدت نصل صخرة ينغرز فى سمكة صغيرة ، انحسرت الأمواج وعادت

وانحسرت ثانيـــة والسمكة باقية مكانهـــا ، كأنها مثبتة بحربة مقاتل قديم .

سرحت بفكرى الى افواس المدينة .. بناها قزم على مقياس قامته القصيرة فجاءت خفيضة جدا .. كل عدة خطوات قوس واطىء ، وفى جميع الطرقات .. كان على ان انحنى كلما مررت أسفل احداها والا اصطدمت رأسي بسقفه المقوس .. وكلما رأيت انسانا محدوب الظهر قلت لنفسى هـــذا مواطن من مدينـــة الأقواس الخفيضة .

تأملت صـــدا القضيب وتلمسته ، ثم قررت أن أنام وقت الظهيرة حتى أسهر الليل معها . حدثتها عن عزمى هـــذا فلم تتحمس ولم تعترض .. وهى ــ منذ اصابة جبهتها بالكدمات ــ تنام نوما خفيفا وتوقظها أدنى حركة .

نمت والسماء صحو واستيقظت والسماء ســـوداء الغيوم تنذر بليلة هوجاء العاصفة . أغلقت النوافذ باحـــكام ووضعت المصاريع خلفها ووراء الباب . ثم جلست أستمع الى الأمواج التى بدأت تهدر والهواء الذى أخذ يزأر ، متنبها لعل القطـــار يمر كما تقول .

عندما مضى الوقت وجاءت الساعة التى حددتها موعـــدا لمروره أرهفت السمع ولم أسمع .. وبعد حوالى الساعة قالت :

ــ ربما منعته العاصفة .

أخفيت ابتسامتى ، وسرعان ما نمت .. غير اننى تيقظت فزعا على اهتزازة السرير وارتعاشـــة الكوخ .. وكانت العاصفة مخيفـــة ..

قالت بوجه منتصر :

ـ انه القطار ..

من فورى نهضت الى النافذة وفتحتها ، فلطمتنى الرياح الهوجاء بعنف ودفعتنى الى الوراء ، الا اننى أخذت أقاومها حتى تمكنت من اغلاق النافذة .. ومنعنى هذا المجهود من النظر الى الخارج .. وكان السواد يحيط بالكوخ وكان صوت الريح طاغيا على صوت البحر .

فى اليوم التالى نظرت الى الساعة وكانت العاشرة وقليلا ، جلست أمام البحر ولاحظت أن السمكة القتيل غير موجودة ، سرت هنا وهناك ، قذفت ببعض الحصى الى البحر ، غمست قدمى فى مائه .. وعدت الى مكانى الأول ..

فى السماء سكنت السحب من حول القوس المتدرج الألوان ، وقد انثنى فوق البحر .. سبعة أقواس متلاصقة لسبعة الوان طيفية ، قوس قزح .. وفى ذات يوم ـ فى ماضى الأيام ـ قررت هى الا تنحنى أمام أقواس المدينة الخفيضة فامتلأ رأسها بالجروح والكدمات ، ظلت تسير مرفوعة الرأس فتصطدم بسقف القوس حتى سقطت فاقدة الوعى ، فحملوها فوق محفة الاسعاف ، وبهذه الطريقة مرت أسفل عدد كبير من الاقواس . ثم قال الطبيب ـ همس الطبيب ـ بانها فى حاجة الى فترة نقاهة فى موقع ناء عن الناس ..

عدت أنظر الى الساعة ، وكانت لا تزال العاشرة وقليلا تماما ، وكانت هى جالسة فى صمت . تناولت أفطارى وشربت بعض الماء ثم تمددت .. وخرجت الى الشاطىء ونظرت الى الساعة ، وكانت العاشرة وقليلا !!

١٩٦٣

اندهشت وعلمت أنهـا قد توقفت .. لكن متى ؟؟ منذ متى ؟!؟ طبعا منذ الساعة العاشرة وقليل تماما .. ولكن هل منذ الساعة العاشرة الصباحية أم الساعة العاشرة مساء امس ؟ ! منذ عدة دقائق او منذ نصف يوم ؟ ! ربما منذ يوم كامل أو عدة أيام . لم انظر الى ساعتى منذ وقت طويل ، وربما منذ إيام .. ولا اذكر الآن آخر مرة ملأتها فيها .. وهل توقفت نتيجة صدمة أم لأسباب أخرى كعيب فى الآلة نفسها ؟ !

جلست أفـكر فوقعت فى مشـكلة أخرى .. فقد حاولت تذكر اسم اليوم ففشلت وجلست أحسب كل الأيام بالتدريج : اليوم الأول كان خميسـا وفيه حضرنا الى هنا .. والثـانى كان جمعة وفيه سمعت هى صـوت القطار ولم أسمعه أنا .. والثالث كان السبت وفى ليله سمعت هى صـوت قطارين ولم أسمعهما لثقل نومى .. ثم جاء اليوم الرابع فماذا حدث فيه وهو لابد الأحد ؟ ! .. رأينـا المركب ، رأت هى المركب ولكنى لم أره .. ولكن هل كان ذلك فى اليوم الثانى أم الرابع أم السابع ؟ لو كان الثامن لكان هو الخميس ..

كان البت فى ذلك الأمر مشكلة عويصة . نظرت ساهيا الى الساعة فكانت العاشرة وقليلا !! فهل فكرت طويلا ؟؟ دقـائق أم ساعات ؟ !

وجلست أحسبها مرة أخرى .. وسـألتها فضيقت من عينيها مفكرة ولم تتكلم .. ولمـا جاء الليل نمت .

فجأة استيقظت على ضجيج عال جدا ، ولمـا تنبهت الى ما حولى أيقنت ــ بلا أدنى ريبة ــ أن هـذا الضجيج هو صوت

قطار يعبر .. الآن يبتعد .. اللحظة أصبح نائيا .. ولم أحاول أن أخرج لرؤيته فقد كان الصوت من الوضوح الذى لا يقبل أى شك .

مددت يدى وأخرجت الساعة من تحت الوسادة ، كنت أود أن أعرف موعد مرور هذا القطار الليلى ، لكن الوقت كان مازال العاشرة وقليلا تماما ، فتذكرت مشكلة الوقت والمتاعب التى صادفتنا أثناء النهار لنذكر اسم اليوم الذى نعيش فيه .. فما هو اسمه وما هو اسم الغد والأيام التالية ؟؟

فى هدأة الليل كان تفكيرى أكثر صفاء . قلت : ان ذلك لا يهم على الاطلاق .. لكنى عدت وقلت انه من الجائز جدا أن نحتاج الى معرفة اسم اليوم الذى نعيش فيه ، ولا أحد يضمن ما سوف نحتاجه فى المستقبل .

لما أخبرتها بأنى سمعت صوت القطار رقت نظراتها نحوى وابتسمت فى سعادة واقبال ، ثم جلسنا معا وفكرنا أن أحسن حل هو أن نضع لكل يوم علامة مميزة ، فيوم أمس هو اليوم الذى حدثت فيه العاصفة فيصبح يوم العاصفة ، واليوم التالى هو اليوم الذى تنبهت فيه الى توقف الساعة فهو اذن يوم الساعة أو يوم التنبه .. وهكذا .. ولابد أن نختار للغد أبرز أحداثه ونسميه باسمها .. ونفعل نفس الشىء لبعد الغد ولبعد بعد الغد ودواما ...

لكنها فجأة قاطعتنى متسائلة :

ـ لماذا يمر القطاران ليلا ؟ ! لماذا لا يمر أيهما فى النهار ؟ !

كنت أريد أن أسألها نفس السؤال .. وكنت أبغى أن أعرف :

– هل من الجائز أن يتوقف أحدهما ولو مرة واحدة أمام كوخنا ؟؟

قامت من فوق سريرها واقتربت منى .. ثم جلست على حافة سريرى ونظرت الى طويلا :

عتاب فى عينيها . التصقت بى : قلق فى لمسة كفها ، شعرت بحنانها عبر لمساتها .

قالت فى حنو مشوب بالخوف :

– هل تحن الى تلك المدينة ؟؟

كنت انظر فى عينيها ، ولما أردت أن اتأمل جمال وجهها لم تقو عيناى على مفارقة عينيها .. فجذبتها نحوى مستشعرا راحة كبرى . احسست بها تجذبنى .

همست وانفى مدسوس فى شعرها وفمى لصق أذنها :

– ليكن يوم العاصفة هو أول الأسبوع ..

شعرت برأسها تومىء موافقة .. فوشوشت بفمى فى فمها :

– وليكن هو أيضا أول الشهر .. ومنه نبدأ فى تكوين تقويمنا الخاص .

سبتمبر ١٩٦٩

هجرة الضحاك

١ ـ الأب

سمعت أمى تحكى عن أبى بأنه كان يملك بدنا له قوة فحل وحيوية تيس . حكت أمى : لذلك جعل من النساء متعته الكبرى.

عاد لها ذات ليلة ليجدها غاضبة .. قالت له :

ـ عليك أن تختار : اما أن تكتفى بى انا زوجتك أو إتركك وأعود الى عشيرتى ..

قال :

ـ هل منعت عنك مالا طلبتيه ؟؟

ـ لا ..

ـ هل قصرت فى حق جسدك على ؟؟

ـ أعطيتني أكثر مما حلمت به ، لكنك لا تترك الأخريات !!

حكت أمي للجارات أن أبي تجهم قليلا ثم قال :

ـ عجيب أمرك يا امرأة ، في جسدي هـذا ما يكفيك ويكفي الأخريات فلم أحبس نفسي ؟ !

ثم انه جذبها اليه نحو المصطبة ولم يتركها الا مع صـباح ديك الفجر .. فلبس ملابسه وخرج الى الحقل . استراحت أمي قليلا ثم نهضت نشيطة مرحة وقضت نصف النهار تعد له غذاء شهيا .. وانتظرته .. ثم ذهبت اليه في الحقل بالطعـام فلم تجده ، ولم يعد بعد ذلك !!

وبعد حوالي الحول رزقت بنا نحن الاثنين في بطن واحدة ، احتارت في البداية .. فكرت وقالت : « خلقت بثديين ، فليكن ثدي لكل منهما .. هـذا له الأيسر وذاك له الأيمن » . كانت تهدهدنا في حجرها ، ثم تلقمني ثديها الأيسر وتلقمه هو الآخر .

ضحكت أمي وقالت لي :

ـ كان الذي يشـبع منـكما أولا يرفص الآخـر بقدميـه الصغيرتين !!

فلما تعلمنا المشي البستنا ذات الثياب بنفس اللون ووضعت فوق راسينا طاقيتين توءمين . وقف أمامي في الحـارة محاكيا وقفتي فرآنا بعض رجال القرية ، عجبوا وهتفوا :

ـ كأنه واحد في مواجهة مرآة !!

لذلك خطرت على باله العاب عجيبة . كان يجمع الأولاد ويوقفهم خـارج حقول القصـب ، ويسحبني داخلهـا لتختبيء

بين الأعواد العالية ، بعد فترة يخرج واحد منا فقط ، وكان على الأولاد أن يكتشفوا من الذى خرج لهم !!

٢ ـ الوشـــم

سارت امى مزدانة بوشم الخطوط الثلاثة فوق ذقنهـا ، مرفوعة الثوب عند الصـدر بثديين قويين ، لم تنظر خلفها ابدا مطمئنــة الى أننا نتبعها حيثما ســارت . كنت اقلدها فى كل ما تفعل ، أما هو فكان يتركنا عند كل انحناءة ويخترق الحقول المجاورة مختصرا الطريق ثم يجلس ينتظرنا ، أو يدور من حولها صاخبا لاهيا . لم تلتفت اليه أبدا ، لكنى رأيت فى وجهها بسمة سعيدة ، ورايت السماء والشمس من فوق راسها .

فى الحقل ذهب يتسلق الآثارات القريبــة ويمتطى اصنام الفراعنــة ، ثم « تشعبط » فى قطـار المصـنع حتى اكتشـفه الحارس فقفز هاربا صائحا بصوت القاطرة المسروع !

توقفت أمى بغتــة عن سقى القصب . زمت شـفتيها ثم امسكت ثديها الأيمن ، الا انها أوقفتنا امامها وانتقت أعوادا قوية مليئة بالبذور ، قالت :

ـ هذ تقاو ..

وقالت :

ـ اذا رقدناها فانها تطرح الأعواد من جديد .

وقالت :

ـ لكن الأعواد الجديدة تنبت فى غير قوة الأعواد الأصيلة .

هززت رأسى مبهورا ، أما هو فمضى يتقافز كالجدى بعد رقدة شبع ، ثم جاء من خلفى وأمسك بذيل جلبابى وحشنى على الجرى أمامه ، وحرك يده حركة دائرية كذراع القاطرة البخارية ، جرينا مخترقين المعبد وحقول القصب ، وانضم الينا فى الطريق كل من قابلنــا من أولاد وبنــات . عبرنا فوق شريط القطـار واخترقنا قطيعا للماعز تفرق على الجـانبين ، واتجهنا الى القرية فكبر الطـابور وتعالت الأصوات صاخبة رفيعة ممدودة . كان صوت القاطرة يشبه عويل البنات الأبكار ، سمعه بغل صغير فترك أمه وركض هائجا مفزوعا .

ولكن اخى لمـا رأى ضاربة الودع الغجرية خرج من قطار الأولاد وحام حولها فى شغف غريب : الترتر الأحمر يملأ طرحتها، عقد الخرز الطويل يتمـايل فى عنقها ، وهلال الذهب المثبت فى أنفها يهتز بشدة كلما ارتفع صـوتها منغمة نداءها : « نضرب الودع ونوشوش الدكر » .

اقترب منها أكثر ، لمس فى خفة ثوبها الخارجى الرقيق الذى يشف عن الملس الأحمر تحته . ازداد اقترابه . تخلخل الطـابور ثم تفـكك وانحل ووقفنـا جميعا نراقب ما سيفعله صامتين .. تسلل ثانية من خلفها ، أمسك بطرف جلبابها وبسرعة رفعه الى قدر ما يستطيع ، فبـان كاحلاها وساقاها وجزء من فخذيها ، وقبل أن تستدير المرأة له كان قد جرى وكان المقطف من فوق رأسها قد سقط فوق الأرض ، فهرب كل الأولاد ، وهربنا معا واحتمينا بالدار . شهقت بعض النسوة وقهقه أحد الفتيـان .

وقفت الغجرية على عتبة الدار شاكية . اهتز هلال الذهب فى أنفها بشدة مطالبة بمعاقبـة مرتكب هذه الفعلة .. كانت أمى

تعرفه بالحدس ، الا أنها صمتت ثم لجأت الى حيلتها المعتادة وأشارت الينا :

ــ ها هما أمامك ، اخرجيه وأنا أضربه لك !

تفرست الغجرية فينا مختارة :

ــ عسير والله يا خالة ، الولدان كفلقتى الفولة !!

رق صوت أمى ونعم :

ــ واحد فقط رفع جلبابك ، أليس كذلك ؟؟

ــ نعــم ..

ــ فيكون الآخر بريئا !!

ــ اضربى الاثنين فتكونى قد عاقبت المذنب فيهما .

ــ أو أعفو عنهما فأكون قد أنصفت البرىء منهما .

زامت الغجرية بكلام لم نفهمــه ، واستدارت لتمضى .. لكن أمى نادتها وهمست لنا بسرعة :

ــ راقبوها جيدا ، افتحوا عيونكمــا . الغجر يسرقون الكحل من العيون .

أنزلت الغجرية مقطفها فى وسط الدار . أخذت بعض المــاء ، خلطته بمسحوق الوشم ، تلت عدة دعوات بلهجــة لم أفهمها ، ثم تناولت ثدى أمى الأيمن فى كف وملست عليــه بكفها الآخر متمتمة بدعوات مدغومة الكلمات ، وبدأت تخزه راســمة فوقه وشــما بوخزات عديدة ملأتهــا بمسحوقهــا المركب فلم أميز الرسم .. أخيرا أعطت أمى جمرانا أخضر لتضعه تحت الوسادة

عند النوم . انتظرت انا أن تفعل نفس الشيء بثديي الذى أنـا رضيعه ، لكنها مضت قائلة لأمى :

ـ شفاء أكيد باذن الله ، وصفة مجربة .

وفى اليوم التالى ظهر وشم يكاد يأخذ شكل الهلال .. الا أن امى ظلت تمسك هـذا الثدى من حين لآخر زامة شفتيها .

لم نفهم لماذا قالت لها : « شفاء أكيد » . وشعرت بالغيرة منه بسبب كل هـذا الاهتمـام بثديـه .. وقبل أن تنصرف الغجرية وقفت تتأملنا فى استغراب : نظرت الى أولا ، ولا أدرى لماذا أشحت بنظراتى عنها ، ثم نظرت اليه فظل محملقـا اليها دون ارتباك ، فأشارت نحوى :

ـ هذا من شلحنى يا خالة .

ضحكت أمى ونظرت اليه ، صمد قليلا لنظراتها ثم انطلق يجرى ضاحكا ضحـكة رفيعـة لكنهـا رنانة وطويلة وسريعـة التصـاعد .

٣ ـ الـزار

انكمشنا معا فوق الكنبـة ملتصـقين بالحـائط مأخوذين بما نرى .. فى البداية شدتنا القوالح المتوهجة وسط الدار ، ولما اختفى لهيبها القت أمى ببعض البخور وبحبات سوداء لها عيون حمراء ، فتصـاعد دخان البخور الى السـقف برائحـة مسكية ، واتسعت حملقة العيون الحمراء فوق النار ، فلما بدأت المرأة الممسكة بالدف الكبير تدق فوقه تحولت عيوننا اليها ثم تركزت على كفها يدق الايقاعات المنتظمة . بدأت أمى تدور حول الموقد من خلف المرائين الأخريين ..

جذبتنا الرقصة . أسرعت حركات الزار لاهثة وراء الدقات. ترنحت النسوة ، وتخلخل دخان البخور عن أشباح مرتعشة راقصة ، كثيفة متموجة الأطراف . وثب فجأة وانحشر بينهن هازا رأسه وجسده مقلدا ، فأبعدنه . عاد الى جوارى ولفت نظرى الى امرأة الدف : إفلت زرار الصدر فبان معظم ثدييها أكثر بياضا من عنقها ووجهها ، تتمايل فيهتزان معها . حملق الى بياض الصدر .

بعد وقت طويل ارتمت أمى فوق مخدعها مجهدة تماما . لمحت حجابا صغيرا فوق ثديها الأيمن . سألت نفسى : لماذا تهتم أمى بالثدى الذى هو رضيعه ؟ ! .. شعرت بالغيرة ، وظللت ناظرا الى القوالح الموقدة ، زاد الرماد من فوقها ، خبت عيون العفريت ، بدا لون النار يختفى تماما ، ومن حين لآخر تحدث فرقعة ضئيلة بين الرماد يختلط صوتها مع نباح الكلاب فى الخارج ونقيق الضفادع ووشيش الهواء يمر بين أعواد القصب فى الحقول . قبل أن أنام سمعت آلة القاطرة مسرعة تنوح كبكور البنات ، وسمعته يهمس فى أذنى :

ـ لامرأة الدف ثديان كاللبن !

وبعد قليل عاد يهمس :

ـ كرمانتين كبيرتين !!

وفى طريق الصباح لما رأى البنت أزهار قادمة نحونا تدفع أغنامها ارتعشت كلماته :

ـ نضجت البنت قبل الأوان !!

ثم تركنى واندفع مخترقا طريقه بين الغنمات . عجبت

البنت ولم تفهم غرضـه . دهشت انا واحترت ، اقترب منهـا فى جسارة عجيبة وقرص ثدييها ! صرخت البنت ، سبته بأفظع الشتائم . ضربت أغنامها بالعصـا لتسرع فى الابتعـاد ، وعندما مرت أمامى قالت :

ــ انت شاهد على ما فعل ..

كان يلهث ووجـه مصفر ، لكنـه استرد سكونه بسرعـة غريبة . نظرت له معاتبا فأعطـانى ظهره وسبقنى سائرا ، وبعد برهة رأيت جسده يهتز ثم سمعت ضحكته ، كانت رنانة تتصاعد غطت كل حقول القصـب فسكتت العصـافير عن زقزقتها .. التفت الى :

ــ هل ستشهد ؟ !

تكلمت البنت مع أمى فى اشـياء مختلفة لكنها لم تشكه ولم تدعنى للشهادة .. كل الذى فعلته انها أشاحت بوجهها بعيدا عنه فى غضب .

٤ ــ العشـب

سألتها ان كان شىء يؤلمها فانكرت ، وتغطت بقطعة الصوف وعادت تتحسس ثديها الأيمن :

ــ اخرج وابحث لى عن ورقة صبار .

دهشت . تقلص وجهها المـا :

ــ بعد الأصنام وعند حافة الوادى توجد شجرة الصبار . اذهب وانتق لى احدى أوراقها . اخرج ولا تسأل .

اختصرت الطريق فلم أعبر الحوارى الملتوية . سرت بين الحقول .. وبعد قليل رأيت أعواد القصب تهتز ، خرجت من بينها « خمرية » امرأة نجار السواقي المشوفة ، جاءت ناظره الى وجهى متسائلة العينين . لم آصدق ، اندهشت : فى عينيها الجرأة والحياء معا ، عندما أرتبكت أنا ترددت خطواتها ، وعندما ابتسمت هى واقبلت نحوى مطمئنة تتأمل ملامح وجهى. زدت ابتسامتى فواجهتنى فى ثقة ، لكننى لما تكلمت ودخلت نبرات صوتى الى اذنيها ، جفلت المرأة وشحب وجهها وضاعت جرأة عينيها وبقى الارتباك وحده ، ثم استدارت مهرولة .

واصلت سيرى فى مرارة .. **منذ أيام تركنى أعمل وحدى فى الحقل واختفى ، كان العمل مرهقا لى .. وساعة العصر أثناء عودتى مكدودا قابلنى بعض الرجال فاذا بهم يتعجبون :**

ـ أمرك عجيب حقا !! كنت منذ قليل ضحاكا مهزارا ، ما بالك الآن عبوسا مكدرا ؟ !

عبرت الشريط الحديدى . أقتربت من المعبد فسمعت بعض الأصوات . اتجهت الى ما بين صنم الفرعون والجدار الغربى . لمحت ظهر امرأة ممشوقة القد ، جرت متوارية وراء الجدار ـ لم المح وجهها ـ حاولت أن أتبعها فنبت لى من حيث لا أعلم ووقف فى طريقى بابتسامته العجيبة . انحرفت يمينا فانحرف يمينا ، سرت يسارا فسد الطريق أمامى ، كشرت فى وجهه فبادلنى التكشيرة . زمت حانقا فزام كأنه الصدى ، ثم ضحك ضحكته الطويلة الرنانة سريعة التصاعد .

عند حافة الوادى تناثرت عن بعد خيام الغجر . لحقنى وقال :

ـ لا تغضب من امرأة نجار السواقى ، هى قريبتك بالدم !

عبست . قال :

ـ منسوبة ابنتها لدى الحكومة الى اسم النجار ، لكنها فى الحقيقة وبالدم انت عمها توءم أبيها !!

زاد العبوس .. صرخت :

ـ أبعد عنى .

صهللت ضحكته وأشار الى خيام الغجر :

ـ ولى رفيقة أيضا بين هؤلاء . تعرف ذلك .

ـ داعر ..

فى المرة الأولى ترك الحقل وتبعها وعاد بعد قليل .. وفى المرة الثانية لحقها ثم عاد ساخطا وقال :

ـ تجيد الغجرية لعبة الدلال !

وفى المرة الثالثة تركنى أعمل وحدى وهرع من خلفها وهو يقول ان « الثالثة ثابتة » .. غاب بعض الوقت ثم عاد منشرح الوجه ، وأقبل على العمل فى همة عالية مدندنا ببعض الأنغام . ولما عبرت عائدة الى الصحراء سارت ولم ترفع نظراتها عن الأرض .. ضحك وقال :

ـ تعرف أن الأعواد الطويلة ستارة .

شعرت بغيرة شديدة ..

ـ داعر .

أخرجت مطواتى بفتة . جفل ، تراجع خوفا !! . احسست بارتياح عظيم .. امسكت ورقة صبار خضراء ممتلئة وبترتها . دهش وسألنى عن السر . تجاهلته .

نزعت أمى الأشــواك عن الورقة ، مزقتها قطعــا صغيرة بالسكين وألقتها داخل الهون ، دقت فوقهــا حتى حولتهــا الى معجون اخضر .. ثم أخرجت من فتحة الصــدر ثديها الأيمن واخذ تدلكه بالعصارة اللزجة لتلفه بعد ذلك بخرقة قديمــه وتعيده الى مكانه ! .

قلت :

ــ خبرينى عما يؤلمك ؟ !

قالت :

ــ كبرت فى السن .

رقدت على المصطبة . تأوهت :

ــ منذ اليوم سأمكث بالبيت وعليكما بالحقل ، رعيتــه وحدى منذ ذهب والدكما ، رفضت مســاعدة الرجال ، خفت ان يميل قلبى الى أحدهم .

لمعت عيناها :

ــ خفت أن يميل قلبى الى رجل غريب ، ليس من أجــل أبيكما الشارد ، ولكن من أجلك ومن أجل أخيك .

ثم طلبت منى الا اخبره بما تفعله بثديه . قالت :

ــ ربما يغضب .

ومكثت بالدار لا تخرج فترة طويلة ، جالسة أو نائمة ، الى أن نهضت ذات صباح خارجة الى شاطىء النيل . انتقت بعناية بعض الأوراق الخضراء النابتة فى جسره ، دققت فى اختيارها ، وعادت بها الى الدار لتضعها فى اناء مع بعض الماء فوق النار ، تصاعد البخار فى لون مخضر فأخرجت الثدى وضغطت عليه الى أن برزت الحلمة بشدة وعرضتها له .

دخل أخى ، جمد ساكنا . لم تشعر به ؛ أدمى البخار لون الحلمة البنى الى الأحمر القانى فاختفت التشققات الكثيرة من حوله . شهق أخى . رفعت رأسها وبسرعة دست ثديها داخل الجلباب .

دام الصمت دهرا داخل الدار ، والماء فوق النار يغلى ويفور .. وعرف الحقيقة .

ـ لابد من طبيبة .

قالت :

ـ أبدا ..

ـ كان عليك أن تخبرينا منذ البداية .

خرج . ناحت :

ـ ناح العصفور على خراب عشه .

ودفنت وجهها فى حجرها . اهتز جسدها ثم صرخت فى :

ـ اذهب خلفه وامنعه ..

قلت فى صوت حكيم :

ـ دواء الطبيبة خير من اعشاب البرارى وأرحم من ابر الواشمة .

٥ ـ الطبيبة

امسكت الطبيبة بالثدى فى كفها : بالحلمة بعض التشققات، تحيطها هالة غامقة اللون كالقمر ليلة اختناقه .. فحصت ثقب الحلمة بالعدسة المكبرة ، قربتها فعظم الثقب . أملت رأسى فرأيته واسعا : من هنا كان اللبن ينسال الى بلعومه ليشبع ويرتوى ، فهل كان ثديه يدر لبنا أكثر من ثديى ؟ ! وهل كان لبنه من نفس النوع ؟ !

كان براد الشاى فوق راكية النار ودائرة الرجال من حولها يتسامرون ، افسحوا لنا مجلسا .. نقلو أبصارهم فى حيرة بيننا ، عوملنا نفس المعاملة ، الند للند .. حتى بدأ هو يتكلم ويتضاحك وينطلق فى قهقهاته فصعدت الدماء الى وجهه الذى أصبح جميلاً أخاذاً .. تيقنوا من شخصيته فتركزت عليه كل الأنظار ولم تفارقه . على الفور شعرت بوجهى بلا دماء أو حرارة ، نهضت منسحبا فلم يشعر بى أحدهم ..

وهذه عروق ثديه زرقاء خفيفة تختفى أحيانا تحت الوشم الأخضر ـ ولون الثدى أنصع من لون وجهها ـ وحول ثقب الحلمة حبيبات صغيرة زالت عندما أبعدت الطبيبة العدسة المكبرة ..

من شقها فى جسر النيل خرجت الحية تتلوى ناعمة ، مطرودة من مياه الفيضان ، سكرانة من رطوبتها، صوبت سلاحى

وبطلقة واحدة بترت رأسها .. رمقنى مبهورا بنظرة اعجاب غريبة فمددت السلاح اليه فى تحد :

ــ اتقدر أن تصيب فى مثل هذه الدقة ومثل هذه السرعة ؟؟

ــ اقدر أن أحملق الى أية امرأة فى القرية وأهمس اليها بعدة كلمات لتصعد الدماء الى وجهها خجلا ! فهل تقدر أنت على ذلك ؟ !

وجمت لحظات . شعرت بالغيظ ، التقطت جسد الحية وقربته من وجهه . تراجع بظهره متوعدا باصبعه :

ــ احذر . لكل حية وليف ، وسيبحث عنها وليفها ..

مضى بضحكته .. شعرت بالغيرة وربما حسدته .

تركت الطبيبة الثدى فلم يتهدل ، ظل متماسكا بارزا الى الأمام . قالت :

ــ تلزمنى بعض التحاليل وصورة بالأشعة حتى أقول حكمى .

صاحت صفارة المصنع . وبعد عدة أيام قالت الطبيبة فى جمود :

ــ الأمر الآن واضح تمام الوضوح .

ابتسم هو لأمى . داعبته بعينيها . قالت الطبيبة بعد حين :

ــ عليل بمرض خبيث !

أصابنى الذعر . همس أخى :

ــ لا .

قالت الطبيبة :

ـ بترا يبتر .

قالت أمى :

ـ لا .

قالت الطبيبة :

ـ بترا يبتر .

نظرت أمى اليه وقالت :

ـ محـــال .

قالت الطبيبة :

ـ وهذا هو سبيلك الوحيد الى الراحة .

لم تترك عينا أمى وجهه . قال صوتى للطبيبة :

ـ الا يوجد علاج بالدواء ؟؟

ـ العلاج الوحيد بالجراحة .

التصقت أمى بأخى وناحت :

ـ كيف أسمح ببتره وولدى هذا رضيعه ؟ !

جمعت الطبيبة عدتها . قالت أمى :

ـ مازلت أحس أنامله الصغيرة فوقه !!

اتجهت الطبيبة الى الباب . همست أمى :

ـ وأشعر عضاته المحببة فوق الحلمة !

ضاع لون وجهه ، حملق الى الهواء . قالت الطبيبة لأمى من عند الباب :

ـ يبس ثدياك ، وولدك هذا كبر وشب ولم يعد يرضع .

٦ ـ البتـــر

قال صوتى لأمى :

ـ فرحت الدار بعودتك .

وقال صوت أخى مبحوحا :

ـ المهم الا تتألمى بعد ذلك .

طرحتها السوداء تخفى صدرها ، خلعتها فنظر الى صدرها: ثدى واحد ، هبط الثوب عند مكان ثديه حتى صدر الكتف .. **كانت ونحن صغيران تخرج لنا النقود من هـذا المكان لنشترى الحـلوى ..**

فى نظراته شيء لم اره من قبـــل ، لأول مرة أراه مهزوما ترتعش جفونه .

فى حنان وشوق ملست أمى فوق فرشة مصطبتها المنقوشة ثم تربعت فوقها .. مررت أصبعها فوق خطوط النقوش ، ودون أن تنظر الينا أمرتنا :

ـ والآن اذهبا الى حقلكما .

فى الطريق قابلنا بعض الرجال ، تفرسوا فينا محتارين ، كان هو ساهما مكدودا . قال أحد الرجال :

ـ أريحونا وتكلما أو اضحكا ، من منكما الهزار ؟ !

فقال لى :

ــ أمى وحدها تميز بيننا وبمجرد دخول أحدنا عليهـا وهى قابعة فى ركن الدار .

قــال :

ــ دون أن تلتفت ناحيــة البــاب تنـادى على اســـمى أو اسمك ..

ثم قال :

ــ تميزنا بالخطوات وتعرفنا كما تعرف البقرة الأم أطفالها من خصوصية رائحتها .

قلت :

ــ فلما شببنا أصبحت تعرف كلا منا بموعد عودته : أنــا بعد الظهر مجهدا ، وانت ليلا ودائما فى خطو متعثر ..

ثم قلت فى سرى : أما أهل القرية فينتظرون حتى تنطلق ضحكاته وقفشاته ليلتفوا من حوله ولأجد نفسى خارج الدائرة !!

فى الحقل قال :

ــ كنت أحب اراحة راسى فوق هذا الثدى .

تشاغلت بخلع الأعشاب الدخيلة من حول الأعواد . قال :

ــ كان لينا دافئا وكنت أسمع منه صوت تنفسها .

ــ اعمل ولا تفكر فى ذلك .

ــ حتى دقات قلبها كنت أسمعها منه رغم أنه الأيمن .

كان صوته مهزوزا . قلت فى بالى : طوال عمره ضحــاك مهزار وسوف يتغلب على هــذه المحنة .. وعندما قابلنا ابنــة

نجار السواقى تلعب أردت أن أسرى عنه ، لفت نظره اليها . رمقها فى رفق . حملقت فيه البنت وغمزت له !! لم يضحك . قلت :

ـ تذكر أننى بالدم عمها توءم أبيها .

لم يضحك . جرت البنت مبتعدة ثم عادت الينا محاكيــة مشيته المتخاذلة وحزنه المرسوم فوق سحنته ، ابتسم فانطلقت البنت ضاحكة ضحكة رفيعة لكنهــا رنانة ، فجاوبها بضحكته المصهللة سريعة التصاعد . أصدرا معا ضحكة وصداها .

لكنه عاد الى الدار ونظر الى صدر أمى فاغتم وخرج الى الخلاء ، وصاحت صفارة المصنع وتأوه :

ـ امى هكذا ليست كاملة !

٧ ـ القطـــار

حاولت أن أرد اليه ضحكته . قلت لنفسى : أن يعود مهزارا مرغوبا أغير منه أفضل من أن يظل حزينا مهموما أعطف عليه .

أخذته الى المركز . تفرجنا على المحـلات وعلى نساء البندر فلم يتبدل . انتهينا عند فرقة الغجر وجلسنا نشرب الشـــاى ونشاهد الغازية ذات السنة الذهبية وهى تهز جسدها ، الكحل غامق وحسنة مرسومة على خدها ، ممتلئة البدن لكنها قوية ، هزت جسدها برعشة عنيفة كمن رعبه الجن ، صدرها ممتلىء جدا ، تكشف ثيابها عن جزء كبير من ثدييها ، كانا يهتزان فى عنف ، ويترجرجان مع كل حركة . مالت بجســدها كثيرا الى

الأمام فكشفت عن معظم ثديها فهلل المتفرجون فى عصبية ، ازدادت ابتسامتها ولم تفارق شفتيها . جميلة رغم كبر سنها .

سار صامتا فى طريق العودة . حاولت جره الى الحديث ففشلت . كان يرد بهزة من رأسه . تمنيت لو رأيت وجهه جيدا . كان الظلام يحيطنا . فلما اقتربنا من مصنع السكر تساقطت أضواء نوافذه علينا من خلال الزجاج العالى ـ وأصوات ماكيناته ـ خطوات فى ضوء متسلل من نافذة ، وخطوات أكثر فى الظلام . وجهه جامد . قلت :

ـ هل تذكر لعبنا فوق قطار المصنع ؟؟

أومأ صامتا . قلت :

ـ وقطار الصبية الذى طفنا به فى كل مكان ؟؟

أومأ ولم ينطق . بعد قليل قلت :

ـ وهل تذكر امرأة الطحان ؟؟

فى ضوء النافذة لمحت نصف بسمة وتنبهت الى ضجيج الآلات ..صاحت صفارة المصنع فخرج عمال المواسم بعد تفتيشهم الى الفناء . السور من أمامهم ثم حقول القصب ، وقطار المصنع الخالى . بدءوا يخلصون ((أشولة)) الخيش الملبوسة على اللحم ذات ثلاث الفتحات ، أصبحوا عراة ، مدوا أيديهم الى ملابسهم الفقيرة .. ورأيناها معا ـ امرأة الطحان ـ كانت منزوية فوق عربة القطار الفارغة رافعة جسدها قدر ما تستطيع !! متوارية تظن أن أحدا لا يراها . دهشنا ، لماذا تقف المرأة فوق العربة ؟ ! تابعنا نظراتها .. كانت تتأمل الرجال العراة !

اوقفنى وقال :

ـ المراة تنظر الى أعضاء الرجال !!

كانت مستغرقة لاهية عن كل ما حولها ، فتسلل صاعدا العربة فى هدوء ، وفاجاها من الخلف . جفلت المراة وأرادت الهرب .. وكما ينقض القط عاقرا القطة من قفاها انقضت يده تمسك معصمها . حملقت فيه وهى تقاومه متخاذلة :

ـ ماذا تريد منى ؟ !

دخلت الى صدره لاهثة :

ـ اتركنى فى حالى .

ضحك وسحبهـا الى أرض العربـة ، فهبطت معـه دون كلمة ! .. وبعد شهور سار زوجها الطحان فى طرقات القريـة ينفض ذرات الدقيق عن جلبابه وهو ينظر سـعيدا بما فى بطن زوجته ، وقال الناس حبلت المراة بعد أن كادت تيأس ، كل شىء له أوان .

مرت خطوات الظلام ، وفى ضوء النافذة التالية كان يبتسم ، فضحكت أنا بشدة ، وضحك هو أيضـا ، لكن رنين ضحكته كان مختلفا ! .. قال :

ـ نسيت يومها أنك كنت معى . صدقنى . كانت منفعلة عصبية وجسدها ساخن . ولم تكن نرى من الأرض الا سعف النخيل العالى ودخان المصنع ، كلمـا تقلبنا ، والسماء وأرض العربـة .

٨ – الابـــن

الليالى التالية خرج وحده ، وعاد عند الفجر ، دائما عند الفجر لينام مهدودا ، ليجد أمى سهرانة ، وفلحت حيلته معهـا دائما : ثلاث قبلات فوق وشم الخطوط الثلاثة على ذقنها وينتهى كل شىء ، تبتسم له وتسامحــه غافرة جميع ذنوبه ، أما أنـا فلا أفعل ذلك أبدا ، أقبلها فى قلبى وبعينى واخجل من ابداء شعورى بطريقة صريحة .

بعد أن جمعنا محصول القصب وشحناه الى المصنع ، عدنا الى الدار وكان وقت الغروب . أطعمتنا أمى ، ونمت أنـا من فورى أما هو فقد غسل وجهه وخرج .

فجر اليوم التالى كان وجه أمى شاحبا وعيناها محمرتين ، أخذت تخبط على فخذيها فى رتابة ، ثم همست :

– لم يعد حتى الآن !!

ذهبت الى المركز للســؤال عنه ، بحثت عن خيمة الغجر فعلمت أنهم فكوها ورحلوا الى مكان غير معـلوم ، على الفور تذكرت ليلة أن ذهبنا معا للفرجة على الغازية ذات السنة الذهبية، **لم تفارق عيناه ثدييها . لم ينظر الى وركيهـا العاريين أو الى سرتها المستديرة النظيفة أو حتى الى شفتيها المنفرجتين نصف انفراجة أو حتى الى عينيها ذات الكحل الغزير ، وانما تركزت كل نظراته على ثدييها وهما يرتجـان خلف الثوب الخفيف الواسـع الفتحة عند الصدر .**

عدت الى أمى مخذولا . زاد شحوب وجهها . ظلت صامتة لا تأكل .. وذات يوم شربت بعض المـاء وقالت :

ـ الأب الملعون .

قالتها فى صوت ملىء بالحب .

وقال رجال القرية : غوته الغازية فهرب معها ، ثم قالوا انه يعمل الآن طبالا بعد أن ركب فى فمه سنة ذهبية !!

جاءت أيام شديدة القيظ ، وعاد أحد الرجال من القاهرة ليقول : انه شاهده يتسكع ضاحكا فى ميدان المحطة قرب نافورة تمثال رمسيس !! .. فقال آخر : بل هو يعمل الآن فى فندق الشلال بأسوان !!

وبكت زوجة نجار السواقى ، وحامت امرأة الطحان ببطنها المنفوخ من حول دارنا ثم أخذت تجالس أمى مصطبتها ـ كذلك فعلت بعض النسوة ـ حتى جاء أحد الرجال وقال : انه شاهده يرقد عند جامع السيدة زينب وقد تحول الى درويش بذقن وملابس مرقعة ، وانه كان يتضاحك مع المجاذيب !! ..

الا أن أمى لا تصدق شيئا من كل هذا ، قابعة فى العتمة تنظر الى الباب المفتوح نهارا الموارب ليلا .. واحيانا كثيرة احار : هل تنتظر الأب أم الابن ؟ !

لكنها من حين لآخر تمد يدها الى مكان ثديها المبتور ، فأخرج الى ليل القرية المظلم الكئيب واذناى تفتقدان ضحكتـه الطويلة الرنانة . لم يكتمل البدر منذ أن غاب ، فى ليلة اكتماله جاءت بنات الحور وخنقته ، وفى شهر تال حجبته سحب سوداء داكنة لم تنقشع عنه حتى فارقه جزء من استدارته ، وفى شهر آخر قال الراديو عن القمر : ان أحد الرجال داس فوقه بحذائه..

بدأت إشعر أن عيون الرجـال تغيرت ، تنظر الى فى صمت واصرار كأنها تقول لى : ذهب المهزار وبقيت أنت !!

وكلما رأيت حقول القصـب الخضراء ، وكلما شاهـدت نخلتنا العالية وسعفها المنثور فى السماء كوردة كبيرة .. اتذكر وشم الخطوط الثلاثة فوق ذقن أمى ، وقبلاته الثـلاث فوقها ، ودموعهـا المنسالة فوق خديهـا .. فأسـأل نفسى : الن يعود الضحاك ؟ ! .. وعندئذ أشـعر بالذنب لأننى كنت أحسـده وأغار منه .

نوفمبر ١٩٦٩



خمس جرائد لم تُقرأ

خمس جرائد لم تقرأ

... واخيرا سمعت ساكن الشقة رقم (٧) يقول للبواب ان هنــاك رائحة كريهة تنبعث من شقتى . قال البواب انه أيضا شم هذه الرائحة وتعجب لسببها :

ــ ربما قطة بالداخل وماتت .

لكنه تذكر اننى لا أربى القطط فى شقتى ، وانه لم يسمع صوت مواء . (شعر بأن ذلك عجيب فتعجب) . ورأى الساكن أن الرائحة كريهة فأمر البواب باخطار البوليس لفتح الشقة .

كسروا الباب فى ضجيج عــال ، فاهتز الزجـاج ، وتردد الصدى فى الشقة لقلة الأثاث .

يوم أن تسلمتها أعجبنى فيهــا الهدوء الشامل ، والحديقة المزروعة حول كل بيت . وكنت اريد أن أسكن فى حى السيدة مع أهــالى بلدتى .. غير انه لم يكن هنــاك مكان لى .. وعندما

سألت عن لوكاندة فى شارع هادىء كانت الأسعار فوق طاقتى . ظللت أبحث دون فائدة . (كان ذلك مرهقا فتعبت) .

رغم أن الشارع مرصوف ونظيف دائما فان أحدا لا يسير فيه غير الباعة والبوابين وأنا ، وعدد من السيارات الجميلة ، والأولاد لا يلعبون فى الشوارع (أدركت أن ذلك عجيب فتعجبت) .

نزلت من ترام السيدة . وجدت عيالا كثيرين يلعبون فى الشارع . سألتهم عن شقة الأستاذ محمود ـ بلدياتى ـ فلم يعرفوه .. لكن أحدهم سألنى :

ـ تقصد محمود الصعيدى ؟؟

ـ نعـــم ..

فعرفوه على الفور ، وأرشدنى عدد منهم الى شقته . فكنت أثنى اللحاف وأفرشه فوق الحصيرة وأنام فى الصالة . كان النوم مريحا لولا حرارة الجو ، ولولا أن زوجته البدينة بدأت تشعر بالضجر من وجودى ، فكانت تتعمد الذهاب الى دورة المياه عدة مرات كل ليلة محدثة فرقعات عالية بالقبقاب ، وأحيانا كانت تتعمد أن تدوس على أطراف أصابعى ، فكنت أنام دائما ويداى مضمومتان فوق صدرى ، وسمعتها تقول لزوجها اننى أنام كالموتى ، لكنه لم يرد عليها . ومرة خبطتنى فى رأسى بقدمها فآلمنى ذلك ، وشممت رائحة جسدها اذ مس قميص نومها وجهى (لم تعجبنى رائحتها فتقززت) .

ركنوا الباب المخلوع . اتجهوا فى حذر صوب غرفة نومى . جمدوا فى أماكنهم . اشمأزوا من الرائحة . ارتدوا جميعا

منزعجين .. عدا البواب فقد وقف مكانه فى سكون واجما عدة لحظات ، لانه أعور فقد نظر لى بعينه المبصرة ولمعت دمعة وحيدة فوق خده الأسمر ...

حملقت عينه السليمة حائرة ، وقال لى :

ـ كل ساكن من سكان العمارة يضع فى بيته عددا من التماثيل السوداء الصغيرة لزنوج عراة . ولكلب رابض فى عنقه طوق ! وتمثال لفلاح يعزف الناى !!

وذات مساء لمع العجب فى عينه ، وهمس لى :

ـ كل السكان شغوفون بهذه الأصنام !! والخرزة فى أنف كل زنجى خرزة حقيقية ! والطوق فى عنق الكلب من الصلب اللامع ! والناى فى فم الفلاح من الغاب الأصلى !!

(كان مندهشا جدا لأنه أحس ان ذلك مدهش جدا) .. ثم دخل شقتى وتفحص كل ركن فيها وابتسم وقال :

ـ لكنك لا تفعل مثلهم ..

ولمعت دمعة وحيدة فوق خده الأسمر ...

صعدت فوق برج القاهرة . وقفت فوقه ساعات طويلة . عقدت مقارنة بين حجمى وحجم المدينة . تأملت العمارات العالية وشاهدت الناس مهرولين آتلين وقوفا .. ولما قالت المدينة لزوجها اننى أنام كالموتى انتقلت الى لوكاندة فى شارع كلوت بك لرخص سعرها ، ومنذ اللحظة الأولى حدث أمر غريب : اذ اتسعت أذنى وكبرت ، وجاء العمال ومدوا شريط الترام داخلها ! فسارت العربات بأجراسها بصرير عجلاتها بشتائم سائقيها لسائقى عربات الكارو وبخناقات الكمسارى مع الراكبين،

وظلت هذه الترامات تدخل افواجا الى داخل راسى !! تدخل ولا تعود (علقت لافتة خارج أذنى مكتوب عليهـا : ممنوع الدخول، ولكن ذلك لم ينفع) • وأحيانا كثيرة كانت أسـلاك الكهرباء تتماس فتحدث شرارة وفرقعة صاعقة داخل راسى !! فقلبت وضـع السرير ونمت بحيث كانت أذنى اليمنى جهـة الشارع (ذلك لأنها ثقيلة السمع) •

بعد جهود شاقة علمت أن أحد معارف أبى يبنى بيتا فى حى مصر الجديدة ، فذهبت اليه ووعدنى بشقة من غرفة وصـالة • لم يأخذ منى خلو رجل او مقدم ايجـار • قال ان ذلك لأجل خاطر والدى (رأيت أن ذلك عجيبا فتعجبت) •

مسح البواب الدمعة اللامعـة من فوق خده الأسـمر ـ قالت البدينة لزوجها ان صاحبك ينام كالموتى ـ تحير البواب بسبب حدوث ما يرى وقال :

ـ يوم جاء الى هنا كان يبدو فى صحة جيدة تماما !! ..

يومها أعجبتنى النساء اعجابا طاغيا •• قال رفاق قريتى : ((امرأة المدينة سـهلة المنـال ، والصعيدى له جاذبيـة شـديدة بالنسبة اليها ـ جاذبية الصعيدى عند القاهرية كجاذبية المصرى عند الأوربية •••)) •• وعلى الفور اخذت أتطلع هنا وهنـاك فى كل شرفة وفى كل فيلا • وتذكرت صديقى هاشم : ظل يقترض من كل من يعرف حتى اشترى سـيارة صغيرة تزوج بواسطتها فتاة جميلة ، وبعد ذلك اراد أن يبيعها ليرد ديونه ، فاضطر أهل الفتاة الى تسديدها منعا للفضيحة ، واخذوا يساعدونه بالمـال شهريا ويعربون عن احتقارهم له ، وقال لى ذات يوم انه يأخـذ مالهم ويرفض احتقارهم (شـعرت أن هـذا الكلام مضـحك فضحكت) •

بدءوا يفتشون فى درج مكتبى وأوراقى . لا يهمنى ذلك . ليست عندى أسرار أو رسائل غرامية أخاف من افتضاحها . توجد خطابات من البلدة فيها كلام عن القطن والقمح ، والشعير ، وفيها سلامات كثيرة من أقاربى وبلدياتى ، وكل واحد منهم يرسل لى ألف ألف سلام ... ويصل ويسلم ليد حضرة ولدنا المحبوب .

رأيت طرف السعفة العلوى يتحرك فجريت الى أمى ، كانت أمام الفرن تخبز . صرخت اننى رأيت السعفة . أعطتنى مليمين جريت بهما الى عم حسين ، وكان يدور بالبلح فوق حمارته رافعا سعفة النخيل عاليا فوق الخرج . لا ينادى على البلح ، ويبيعه لنا ((بالدورة)) أى بالأربع بلحات .

فى الخطاب الرابع اراد الضابط أن يضحك (ولكنه لم يضحك) . أبى يقص على أخبار القرية ، ويرسل الألف الف سلام من كل قريب وصديق .. ثم يقول ان شجرة المانجو التى زرعها أمام الدار ذبلت وماتت ..

لكن الضابط الخطاب . كره الرائحة فنظر الى السرير الخشبى كالح اللون ..

قلت فى بالى : لو جاءت هذه المرأة الى سريرى الخشبى لكان ذلك أمرا ممتعا حقا . كانت تبدو لى باهرة فى شرفتها ، وأكثر فتنة عند ركوبها السيارة مظهرة جزءا كبيرا من فخذيها فى حمرة خافتة ونعومة واضحة .. وذات ليلة انقطع التيار الكهربى فجاءت الى شقتى ، وأسرتنى رائحتها العطرة . ولما عاد النور أعجبتنى ملابسها الأنيقة ، لكن نهديها كانا مترهلين ، وسمنة غريبة

فوق ردفيها وتحت المشد المطاط ، ورأيت أسفل انفها وتحت البودرة شاربا خفيفا (كان ذلك قبيحا فاستقبحته) . ومالت لتقبلني ـ وكنت حزينا على ذبول وموت شجرة المانجو ـ ورأيت وجها مطليا بمسحوق برونزي ركض خلفي بسرعة كبيرة جدا فجريت عنه في بطء شديد جدا . أردت أن أصرخ فمد يده وانتزع حبال صوتي ومزقها .. ثم جذبني اليه وأراد أن يقبلني ..

عندئذ نهرتني جدتي . حذرتني بأن حجرة الكرار المظلمة بها عفريت له قدم مسلوخة ويبخ النار من فمه في وجوه العيال . كانت تخاف أن ندخل ونسرق أقراص ((الفايش)) . وكانت أمي تخبز فطلبت منها مليمين . وشعرت بأن ذلك مضحك فضحكت . وكان البواب مدهوشا جدا لأنه أحس أن ذلك مدهش جدا .

تمنيت لو عدت الى صالة محمود بلدياتي . شكوت له من سكني الجديد . سكت ثم قال أن ذلك أفضل من اللوكاندة (كان قوله هذا غير غامض ففهمت) .

في الخطاب الرابع أراد الضابط أن يضحك ولكنه لم يضحك . وفي الخطاب الخامس رفع حاجبيه : أبي مازال حزينا بسبب موت شجرة المانجو ، وقال ان جذورها لم تقبل التربة .. وان الأهل والأصدقاء لا يطلبون من دنياهم شيئا سوى رؤيتي على أحسن حال .. والختام ألف ألف سلام .. ووضعت الطوابع بمعرفتي ، وليس بداخله أوراق مالية .

جاء الطبيب ـ قالت البدينة انه ينام كالموتى ـ وطلب الطبيب من البواب أن يحضر زجاجة كولونيا من أحد السكان ،

ثم أخرج منديله وأغرقه بالكولونيا ولفه حول رأســه بحيث خبأ أنفــه . اقترب من السرير . أخذ يعبث بملابسى ثم بصــدرى وبطنى . شد جفنى عينى الى أسفل ونظر فيهما طويلا (لكن عينى لم تنظره) . خرج وغسل يديه جيدا جدا ، ونظر للضابط وقــال :

ـ هذه الحالة ماتت منذ اربعة الى خمسة أيام ..

عندما كسروا باب الشقة وجدوا على الأرض خمس جرائد لخمسة أيام متتالية لم تمس . فكر الضــابط بغريزته البوليسية وقــال :

ـ اذن هو مات منذ خمسة أيام !!

وقال أحد السكان :

ـ خمس جرائد لم يقرأها .. كم هو سعيد !

ضحكوا .. لكن الرائحة جعلت قرفهم يتغلب .

أكمل الطبيب للضابط :

ـ وعلى الأرجح فان الوفاة طبيعيــة ، ولكن يلزمنى أخذ عينة من امعائه للتأكد .. بكى البواب فى حرقة وقال :

ـ الطيب يذهب !!

ورد الضابط على الطبيب بأن ذلك أمر طبيعى .

كرر البواب فى ألم :

ـ الطيب يذهب !!

ورد أبى قائلا فى حنو :

ـ الطيب الذى يعمل صالحا يذهب الى الجنة حيث انهار من العســل ، اما السيىء الذى يعمـل طالحا فالى جهنم وبئس المصـير .

وحيرنى ذلك حيرة فائقة . فلم اكن اريد ان يبتئس مصيرى واذهب الى جهنم لاننى اكره ان احترق ابدا .. وفى ذات الوقت لم اتحمس للجنة لاننى لا احب العسل .

(والآن اعرف جيدا اين أنا .. واشعر برغبة عارمة فى رواية ما عرفت .. الا اننى أخشى من عاقبة ذلك . فهنا أيضا ...).

الجاحظون

فى هدوء شديد قفزت الى الناحية الأخرى وبدات أهبط بخطوات مصممة ، النيل امامى بمياهه وامواجه وطميه ، والشارع من خلفى بكل ما فيه .

اخذت أهبط المنحدر ، والنيل يأتى الى حتى لامست حافته فسمعت صوت المويجات واضحا . تلفت خلفى ، رايت حجارة الجسر وضفدعين . نظرت الى أعلى فرايت رءوس الناس سائرين .. وكان يقف هناك بعينه شديدة الاتساع شديدة البروز يجحظ بهما ويحملق نحوى ، من ورائه مبنى التليفزيون ببرجه العالى . جاءت الشمس من خلفه وفى عينى فلم أعد أراه الا كشبح أسود يشكل هيكل انسان ، خيال ظل ، ولكننى رغم ذلك — وبوضوح شديد — رأيت عينيه الجاحظتين نحوى .

سرت خطوتين . ابتلت قدماى بالماء وشاهدت بعض الأعشاب النامية المخضرة ، وسحلاية تصطاد بلسانها حشرة

ضئيلة . تقدمت فارتفعت المياه حتى ركبتى حتى فخذى حتى بداية جذعى ، وكان برج القاهرة الشاهق أمامى ، وفوقه سائح يتأملنى خلال المنظار المكبر .

نظرت ثانية خلفى ، كانت هنـاك أشباح الناس وعيونهم جميعا شديدة الاتســاع بارزة الى الأمام ، شــعيراتها الدموية واضحة الاحمرار .

وصلت الأمواج حتى كتفى ، أحاطت عنقى . ولأن المبــاه كانت مليئة بالقش والقاذورات فقد أحسست باتجــاه التيار ، استدرت لأشاهده يسير نحوى فالتصق شيء مبلول فى ذقنى وغطى فمى ، هززت راسى فارتفع وخنق أنفى ثم أعمى عينى ، لذا لجأت الى يدى وجذبته لأجد أنه قطعة من جريدة لم تتمكن المياه من محو كتاباتها .

أعطيت ظهرى للتيــار . كانت الطريق فى أعلى مزدحمــة بالعديد من خيالات الناس ، ظلال أجساد وعيون جاحظة كثر فيها البيــاض المليء بالشــعيرات الدموية القانيــة وصغرت الدوائر السوداء ، اندهشت ان كان باستطاعة جفونهم ان تغمض فوق هذه الكرات المتضخمة ..

اطبقت المياه بعنقى ، تقدمت حتى وصلت الى ذقنى ، فكرت ان كان عندى كلام أخير أقوله ولم أجد رغبــة فى ذلك ، فتقدمت وغرق فمى .

وش الهواء فى أذنى ، لكنى سمعت أصواتا غريبة مختلطة : محركات آلية وقبــلات ومنبهــات صــوت وتنهدات وراديوهات

عالية .. وسمعت أنين انسان مذبوح متداخلا مع تكتكات آلة حاسبة وتأوهات مطربة عجوز .. سكن الهواء لكنى سمعت ايضا مطارحات غرامية وجهاز تسجيل وانفجار ..

اغرقت اذنى فعرفت صوت المياه وصوت أبى وهو يتمخط فى الصباح وطرقعة شبشب امى وصفارة سيد جارنا رفيعة منغمة ، ونبيل ينادى على .. وجرس المدرسة .. « نام يا حبيبى نام وانا اذبح لك جوزين حمام » .

- اننى يا سيدى أطالب باحالتى الى المعاش ..

ضحك :

- نكتة ظريفة ..

- اننى يا سيدى فى غاية الجدية ..

- ها ها ها ....

- يا سيدى اننى فى غاية الجدية ..

« .. وأذبح لك جوزين حمام » فبكيت وكنت رضيعا على حجر امى ..

ضغطت المياه متدفقة على طبلتى الأذنين فتموجت فيهما بذبذبات عريضة ، وأحسست برطوبة ..

- ولكننى يا سيدى تخطيت المائة عام !!

- وهذه ايضا نكتة ظريفة .

- يا سيدى صدقنى اننى فى غاية الجدية ..

ثم صعدت فوق السور الصغير وقفزت الى الناحية الأخرى وبدأت أهبط حتى قاربت المياه عيناى . استدرت ، نظرت الى الشاطيء : كانت هنــاك مجموعة كبيرة من العيون المتضخمة ، تناثرت فوق السور أو تحته أو على تدرج الجسر المنحدر .. رأيت بواحدة منها دمعة غليظة ، انحــدرت نحوى ، تذوقتهــا فاكتشفت أن طعمها كطعم الدموع وأنا أعرف جيدا طعم الدموع .

تموج سطح المــاء أمامى بوجــه أختى يحمر وهى تسمع صفارة « سيد » الرفيعــة الممدودة وكانت تشغل التريكو .. ورأيتنى أمد يدى بالطلب الى رئيسى :

ـ وها هو يا سيدى طلب رسمى لاحالتى الى المعاش مستوفيا لجميع الدمغات القانونية ..

فاحمر وجهه غيظا .. ولمــا رأيتنى اضاجع سميرة الفراش وشاهدت مؤخرتى عاريــة ضحكت من نفسى .. ولعبت الكرة الشراب فى الشارع وسجلت كثيرا من الأهداف التى لم تحتسب بحجة أن الكرة مرتفعــة .. ثم طالعتنى العيون المحملقــة على الشاطيء .. ورأيتنى فى بطن أمى داخل الرحم وكانت به أشياء غريبة : امعاء وخلايا ودماء وافرازات عجيبة الشأن ، وأنسجة وشرايين وأوردة .. وعين جاحظة وندوات سياسية وهدير نفاثات وحمار ينهق وعقل الكترونى .. ثم رأيت حلمــة الثدى اليسرى وكنت أحب أن أضغط بيدى على هــذا الثدى ، وتذوقت طعم اللبن وكانت هنــاك هالة قاتمة تحيط به ، ومرة شبعت وعضضت الحلمة فأبعدتنى أمى بنظرة عاتبــة ، وكان اللبن يتدفق دافئا من الثقب فيطرى حلقى وبلعومى وبطنى ـ لكن أمى ماتت عقب ولادتى ـ وأذكر أن الملائــكة جــاءتنى ذات ليــلة وأكلت معهـــا أرزا باللبن .

فتح رئيسى ملف خدمتى غاضبا وأخرج شهادة ميلادى :

ـ وهذه تثبت انك لم تبلغ الثلاثين من عمرك بعد !! فكيف تريدنى أن أحيلك الى المعاش ؟ !

تقدمت عدة خطوات مرة واحدة ففرقت عينى وشعرى وغطت المياه كل راسى . سرت حتى أعماق القاع . كان داخل رئتى كثير من الهواء زفرته فخرج تدريجيا على هيئة فقاقيع ترتفع الى أعلى .. ورأيت فقاعات الماء بالصابون فى شرفة البيت ، ولعبت مع سوسن فوق السطح وذات مرة لعبت معها لعبة العروسة والعريس وأكلت منها نصف حلواها .

أخذت شهيقا طويلا فتدفقت المياه داخلى . أخرجت زفيرا قصيرا فخرج باقى الهواء منى ، ثم شهقت حتى أصبح كل جسدى مياه .. على الفور رقدت على ظهرى فوق القاع الطينى وكان رطبا وهدهدتنى أمى فوق حجرها وقالت :

« نام يا حبيبى نام » ـ الا أننى شعرت بأن العيون الجاحظة نفذت خلال الماء والطمى واخذت تراقبنى .. وجاءنى بعض السمك الصغير وتطلع الى ؛ فأمسكت أعصابى بصعوبة وتذرعت بالصبر ..

وقلت له :

ـ يا سيدى أنا أدرى بنفسى وأقول لك صدقا فكيف لا تصدقنى ؟

ـ شهادة الميلاد لا تكذب .

ـ لكننى اتكون من لحم وعظم ودماء وخلايا وشرايين وحديد ورئتين وقلب وأذنين ويدين وانف وعينين وفم واملاح .. كيف تكتب كل ذلك وتصدق ورقة صغيرة عليها بعض الحبر ؟

مال لونى الى الزرقـة وانتفخت وبرزت عينـاى . ففرت فمى :

ـ صدقنى يا سيدى ، لست مجنونا .. لم اكن فى حياتى جادا مثل اليوم ..

جحظت عينـاه وهزأ منى .. فكرهت هذا المكان الذى أنا فيه ، وتركت التيار يجرفنى من مكان الى مكان .. وحدث ما بين اليوم الثانى والثالث أن قررت الطفو وتذكرت قانون الطفو لأرشميدس .

كان الوقت فجرا وبدأت الشمس تشرق على فى جمال أخاذ وأعجبنى ذلك .. لكن زرقة الجسد زادت واضحت بطنى كبطن المرأة الحامل .

مررت على عدد من المدن والقرى .. وحدث أمام احداها أن حجزتنى بعض النباتات النيلية الا أن خفيرا نظاميـا لا أعرفـه خلصنى وساعدنى على السير مع التيار .

جاء الليل وجاء النهار عدة مرات .. **وقلت له :**

ـ يا سيدى انا ادرى بنفسى وعمرى الآن فوق المـائة عام .

جحظ واعربت نظراته عن رغبته فى انصرافى ..

واصلت رحلتى .. وذات مرة رآنى عجوز كان يتوضـأ وينوى الصلاة فى زاوية على النيل ، فنظر الى طويلا ثم تلا على عدة آيات من القرآن . دخل بعدها الزاوية ليؤدى صلاة الفجر .

مررت على دميـاط ثم رأس البر . وجدت نفسى فجأة فى مدخـل البحر المتوسـط . سررت جـدا .. أخـيرا ها هو البحر الواسع الرحب بمياهه الزرقاء النظيفة الممتدة فى براح . الا أننى ظللت اتذبذب مع الأمواج من البحر الى الشاطىء والعكس عدة مرات حتى حدث أن انحسرت الأمواج فى جزر كبير فدخلت البحر وبدات أتموج بعيدا عن الشاطىء الى أن اختفت الأرض نهائيـا ..

ذات فجر حامت سمكة كبيرة من حولى ، أيقنت أنها تريد أن تلتهمنى ، لم أبال لذلك . اقتربت منى فى هدوء ، شمتنى ثم تركتنى واستدارت وضربتنى بذيلها وسارت مبتعدة .

وذات مسـاء ألقى مركب صـيد كبير بشـباكه العريضـة فصادنى وصاد الكثير من السـمك ، ولمـا رفعونا الى السطح أخذوا السمك وركنوه جانبـا أما أنا فقد وضعونى فوق حاملة قرب الحافة ووقفوا مصطفين فى صمت رصين حيث قرأ القبطان صلاة مسيحية فوق جثتى ، وبعدها أمالوا الحاملة فانزلقت أنا الى البحر ثانية . هدرت الآلات ودفعتنى الأمواج من خلف المركب الى الاتجاه المضاد .

بت ليلة أخرى فى البحر . رأيت فى السماء جسما مضيئا شاهق العلو أدركت أنه احدى سفن الفضاء ــ ثم سمعت الاعلانات فى التليفزيون عن مسحوق غسيل يقوم بكل العمل لوحده وعجبت:

لماذا لوحده ؟ ! ــ وعلمت ان البحر فى المساء يكون شديد البرودة .

بدأت حوافى تتآكل ، ولم ينقذنى من كل ذلك الا سمكة ضخمة فتحت فمها فدفعتنى الأمواج داخل احشائها مما اضطرها الى التهامى ــ وكان فى أصبعى خاتم ذهبى ــ الا أنها استطعمتنى .. ورأيت داخلها حبل رحم أمى .. ثم بدأت أمعاؤها تفرز سوائل واحماضا غريبة فتحللت تماما ، وامتصنى جسد السمكة فتغذت بى وزادت كمية لحمها وكمية دهونها ، وتكونت لها أنسجة وخلايا جديدة وكثيرة .

ولما صارت السمكة سمكة سمينة ، هدأت سرعتها فصادها مركب صيد كبير ، وعاد بها داخل ثلاجته الهائلة الى الشاطىء وانا متخلل لحمها ودهنها وعظامها ومسامها .. ثم باعوها الى مصنع السردين .. وهناك فتحوا السمكة ونظفوها من الداخل ، ووجد أحد العمال خاتمى الذهبى فأخذه بعد أن غسله من الشوائب ، وكنت قد فشلت فى التخلل الى الذهب .

دخلت فى جسد السمكة الى الآلات الغاسلة ثم المطهرة ثم آلات القطع ، وقسمونا الى قطع وشرائح صغيرة ، وجاءت الآلات بعلب السردين الفارغة ووضعوا فى كل منها جزءا صغيرا منا .. انزلقت العلب فوق سير جلدى طويل ، حيث سكبت آلة بعض الزيت والصلصة فى كل علبة .. ثم سرنا ثانية الى أن اغلقوا العلب علينا ، ولصقت الفتيات الورق باسم الشركة وبنوع السمك .

ــ يا سيدى بالأمس اخذت عينة من بشرة وجهى ووضعتها تحت الميكروسوب ولما نظرت رأيت بها آلاف التجاعيد الغائرة..

فصدق ظنى واستنتجت أن عمرى تعدى المائة .. والعلم يا سيدى لا يكذب ..

فطردنى من مكتبه - وعلى الفور ففزت من فوق السرير وقالت أمى : « نام يا حبيبى نام » ولما أكملت « لأذبح لك جوزين حمام » بكيت ..

صدرونا انا والسمكة بالزيت والصلصة فى مئات العلب الى أماكن مختلفة والى عدد من المدن المتباعدة .. وذات يوم اشترانى رجل بعين جاحظة ، فتح العلبة وسكبنا فى طبق وعصر علينا ليمونا ونثر بعض الملح والفلفل ، ولما تذوقنا استطعمنا وقال لزوجته :

ـ هذا نوع ممتاز جدا لذيذ جدا .

ذاقت الزوجة ووافقته وقالت :

ـ ان صناعة السردين تقدمت جدا .

الغشــاء

« مبروك » ، لم يتمكن من حضــور الحفل ، ارسل برقية ، « زواج سعيد .. » ، هو الآن فى خيمته أو فى طلعة استكشافية . « تخوننى وتتزوج .. » ، فى العراء خلف ســلاحه ، « بالرفــاء والبنين .. » ، أو لعله يتذكر شقاوتنــا أيام زمــان .. « من صديقك صفوت .. العازب الأخير فى الشلة » .

أبيض ــ فستانها ــ طويل . أصابع قدميها تبدو من تحته مطلية الأظافر بلون الورد ، الأصبع الغليظــة دائبة الضغط على الطويلة . داخل حذائى يحدث نفس الشيء ــ قلق لذيذ ممتع ــ ومن الطبيعى ألا نظــل جالســين هــكذا على حافــة السرير ؛ طفنا بعدة محلات حتى وقع اختيارها عليه ، وقالت : « بسيط واقتصادى » .. فنقر أبى بعصاه وقال : « فاكر يا ولد سرير أمك المزخرف بالرســوم الجميلة ؟ » .

أمسكت بكفها فى كفى ..

فى الصباح جاءت أمها وفرشت هذه الملاءة الزرقاء منقوشة حوافها بالورود ، وغطتها بملاءة أصفر منها بيضاء ، ولما سألتها عن السبب حملقت فى مكر ، وداعبتنى بضحكة عالية ، قالت بعدها :

ــ ابنتى ليس عندى أعز منها . عاملها برفق ..

ثم طبطبت على الوسادة وفردت غطاءها وقالت :

ــ أن تملكها الخجل وسيطر ، انتظر عليها الى ليلة أخرى.

ــ الانتظار صعب ..

ــ وصعب عليها أيضا !

أطراف الأصابع باردة ، لكن كفها صغيرة وناعمة .. أما عن صديقى « أحمد » فقد كنا نداعبه باسم « الذئب » لكثرة مغامراته مع النساء ، لكنه لما تزوج لم يضاجع زوجته الا فى الليلة الخامسة ، وقال : « فى كل ليلة من اربعة الليالى الأوليات كانت تبدو سهلة المنال ، ويخيب أملى » ، ثم قال فى عجب :

ــ النساء أنواع !

همست لها :

ــ يدك باردة ..

ــ ويدك أيضا فيها رعشة خفيفة ..

عاد صمت الكلام .. الا أن « عزت » ــ صديقى الخام قليل الخبرة ــ نجح فى الدقيقة السادسة والخمسين ــ هكذا أقسم ــ فرفعنا عنه صفة « الخام » .. وقال فى زهو :

ــ الرجال أنواع ..

ومنذ دقائق جاءت بنا السيارة المزدانة بالورود ، ودخلنا الشقة ، وحرصت على أن أغلق الباب خلفى بالمزلاج .

سمعت أنفاسها ، وعندما تحركت سمعت حفيف ثيابها . قمت وخلعت الجاكتة والقيتها على المقعد ـ كانت تراقبنى فى المرآة ـ قالت :

ـ توجد شماعة فى الدولاب . ضع الجاكتة داخله .

ضحكت وعدت أجلس لصقها . حللت مشبكى الطرحة والقيت بها على حافة السرير ـ ما زالت تراقبنى فى المرآة . لم تتكلم ـ بدأت افك ازرار ثوبها :

ـ كان الحفل مبهجا .

هزت راسها . فككت الزرار الثانى . بدأت المس ظهرها من أسفل العنق . أحسست بسخونة جسدها ، تأملت لونه القمحى . رأيت طرف القميص الأحمر ومن أسفله مشبك السوتيان الأسود الرقيق ، فككت الزرار الثالث :

ـ هل تعرفين عدد الزراير فى ظهر ردائك ؟

ضغطت على موضع كل زرار أفكه ـ دغدغتها الضغطات فرفعت كتفيها لأعلى ـ رأيت فى جسدها مسام دقيقة وجذور شعيرات لم تنبت ، وعددت فقرتين من بسلسلة ظهرها ..

اجابت :

ـ خمسة زراير .. ستة .. ربما خمسة ..

أحسست يدى بصوتها يخرج . ألصقت أذنى فوق ظهرها فلمست نعومته وسمعت ابى يقول ونحن نهبط : « أحسنت

الاختيار ، لكنها نحيفة . كانت أمك تتهادى فى مشيتها كالبطة ، ممتلئة وبضة)) ـ لسعتها برودة أذنى ، ارتجفت وهبت واقفة ـ لكنه عند العشاء مال على أذنى : ((هل تأكدت من أن شعرها طبيعى ؟؟)) .. استرجعت رائحة عطرها ونظرت له دهشا ، فقال بلهجة خبيرة : ((يجب أن تكون حريصا ، الموضة هذه الأيام هى تزييف شعر الرأس)) .. أقسمت له ان شعرها طبيعى، كذلك أسنانها ، وعلى اننى تأكدت من أن صدرها غير مزيف .. فسقطت الملعقة من يده وحملق مذعورا .

تأملتها مبتسما . سمعت صوت المياه فى المواسير ، وصوت محرك ومواء قطة وهدير آلات فى الخارج . نظرت الى النافذة وتأكدت أن زجاجها مغلق فى احكام .

بهرتنى حمرة الخدين وهمسة الشفتين وهى تقدم لى البيجامة الجديدة المعطرة :

ــ اخترتها بنفسى ، أعرف لونك المفضل .

احتضنتها ومددت كفى تحت ثوبها فدفعتنى عنها فى خفة ، لم أصر : ارتديت البيجامة ، وأضجعت فوق السرير ، وقلت لها :

ــ بينما تغيرين ملابسك سأبحث فى الراديو عن موسيقى مناسبة .

أدرت المؤشر الى موسيقى خفيفة ، ثم اخذت أراقبها : خلعت ثوبها ، فكت شعرها فانساب كالحرير ، خجلت وقالت :

ــ ابعد عينيك عنى .

اغمضت عينى : **فجاء ابى وجلس قبالتى ونقر بعصاه فوق الأرض نقرات رتيبة ، وابتسم فى حسرة : ((كان السمن البلدى**

رخيصاً واللحوم متوفرة وأربعة الأرغفة بقرش صاغ ، فجاءت أمك سمينة فى غير ترهل ، وكان ثلاثة رجال يتنافسون على الفوز بهـا)) .

فتحت عينى . قالت :

ابعد عينيك عنى ..

سحبت الغطـاء فـوق وجهى وتركت ثغرة لا تسمح الا لرؤيتها ، لاحظت هى ذلك فابتسمت ولم تتكلم .. (وكانت هى التى حسمت موعد قدوم اول وليد . قالت نؤجل الخلفة عدة سنوات ، فوافقتها بهدوء شديد) . هزت رأسها لتطيح الشعر الى ظهرها ، وقفت حائرة للحظـات ، وضعت اصبعها فى فمها ، زادت حلاوتها فى عينى .. (وقلت لها : ما أرخص حبوب منع الحمل .. ولم تنتابنى السعادة لحظتها ولم تستول على الكآبة) . سمعت صـوت طائرة يقترب فاهتز زجاج النافذة ، وطرقت أذنى أصـوات غريبة لم أستطع تمييزها ، تمنيت لو كان المنزل قد صنع من مادة عازلة للصوت تماما .

انتهت من تغيير ملابسها ، وتشاغلت بضبط وضع المقعد ، وبمسح غبارة وهميـة عالقة بالمرآة ، سارت متباطئة صـوب السرير ، كدت أهتف : « أحلى من القمر » . فصرخ احد رجـال الفضـاء من سفينتـه وهو يقترب من القمـر : ((يا لحماقـة الشـعراء .. ان القمـر كوكب مخيـف ملئ بالصـخور والبراكين !!)) .

سكتت الموسيقى فى الراديو ــ ثم هتف : ((أرى أن الأرض صغيرة ، كرة صغيرة جداً .. لكننى أريد العودة اليها سريعاً)).

قال المذيع :

ــ ســـيداتى ...

قلت له : ليس بعد ..

قال المذيع :

ــ اليكم الآن النشرة ....

أخرسته ، وبحثت عن موسيقى فى مكان آخر ــ تهادت فى قميصها الحريرى صاعدة فوق السرير ــ سألتها :

ــ سعيدة انت ؟؟

ــ نعم .. وانت ؟؟

ــ لابد أن اكون كذلك .

لثمت وجنتها ، مررت بأصبعى فى خفــة حول شفتيها ، هبطت الى الذقن الى الصـــدر ما بين النهدين ــ لم تتحرك ، كنت متلهفا جدا (قال صاحبى ان الرجال انواع) ، الا انهــا أبعدت أصابعى ونهرتنى فى دلال :

ــ لا تكن عجولا ..

قلدت بأصبعها لازمة أبى وحاكته قائلة :

ــ حتى لا تزيد من سرعة دوران الأرض ..

يومها القى أبى بالجريدة فى سخط وقال :

ــ ها هى سرعة دوران الأرض حول نفسها قد زادت بمقدار جزء من مائة الف من الثانية !! ..

ضحكت فنهرنى فى صرامة :

ـ ذلك لأن حياتكم فوق سطح الأرض حياة لاهثة !! ..

التقط أنفاسه وهددنى بأصبعه :

ـ ولكثرة المتفجرات التى اخترعتموها !!

قلت فى براءة شديدة :

ـ أنا لم أخترع شيئا (وقرأت بعد ذلك أنها استردت سرعتها ثانية) . فرفع عصاه ثم خفضها ، وسخر فى تقرير حاسم :

ـ أنتم جيل مهزوز يستمد شخصيته من الاذاعة والتليفزيون والصحف الموجهة والاعلانات !!

مدت يدها نحوى وهزتنى فى لطف ، كانت تبتسم لى . زدت من التصاقى بها . سألتها ان كانت سعيدة ؟؟ فقالت اننى سألتها هذا السؤال منذ لحظات .

ملت فوقها واحتضنتها فى شدة ، قبلتها فى أذنيها وأسفلهما، فى عنقها فى كل مكان ، فى جبهتها ، وهى مستسلمة ، تغمض عينيها ثم ترمقنى فى لهفة واستطلاع ثم تبعدهما عنى فى حياء ، تتفرس فى السقف أو فى شعرى أو أذنى ، الى أى مكان ما عدا أن تلتقى عيناها بعينى .

ارتفعت برأسى متأملا وجهها المليح : رقت ابتسامتها ، عذب الاحمرار فى مقدمة أنفها . احتويت ثديها الأيسر النابض بقلبها فى كفى اليمين ، ضغطت عليه بنعومة فى حركة نصف دائرية ذاهبة آتية ، رحت أسعد بقبلة ، وبدأت الحياة من حولنا تتلاشى وتغيب فى ضباب وردى ، وتضيق لتصبح ذلك الحيز الضيق

الذى يحوى جسدها وجسدى الملتصقين ، واللذين آن لهما أن يمتزجا فى تركيبة واحدة ، وران صمت قدسى الا من انفاسها وانفاسى وموسيقى حالمة تاه مصدرها .. ثم شيئا فشيئا بدأت اتنبه الى صوت رجل يتحدث معى فى الحجرة بجوار السرير ، والباب مغلق والنافذة كذلك ، فبدأ الضباب الوردى يتلاشى ، واخذت اميز الكلمات التى اقتحمت اذنى ، وكانت الموسيقى فى الراديو قد كفت ــ وصوت المذيع يتحدث عن غارة عنيفة وعن مئات الأطنان من المتفجرات : « كما يقدر عدد الضحايا بالعشرات ما بين قتيل وجريح » ..

رفعت كفى ، مددت يدى لأسكت هذا الأخرق ، سقط على الأرض ، بعشرات القتلى ، ارتبكت شفتاى فوق شفتيها ــ رمقتنى بنظرة متسائلة ــ ما بين قتيل وجريح ..

مطارحة غرامية

ـ لمــاذا تظن أن طولك ينقص ؟ !

فتحت زوجتى البــاب . اندفعت داخــلا ، لاهثا مجهدا مذعورا ، وطلبت منها أن تحضر المقياس المترى بسرعة .

اخذت اقيس طولى ، ثم خلعت حذائى حتى اسجل الطول بكل دقة . اندهشت زوجتى .

وفى الصباح لم تخف استنكارها وسألتنى :

ـ الا يوجد غيرك يقوم بهذه المهمة ؟

وطمأنتها الى أنى سأعود قبل حلول الظلام .

عادت دهشة زوجتى تسألنى :

ـ لمــاذا تقيس طولك بكل هذه الدقة ؟

فأجبتهــا :

ـ لأعرف هل نقص عما كان عليه فى الصباح أم لا !

وقسته حتى اقرب ملليمتر ، ثم وجدت نفسى فى مشكلة عويصة : فلم أكن أعرف كم كان طولى فى الصباح ، لم أكن قد سجلته ! .. سألت زوجتى ان كانت تعرفه فأنكرت . فتحت بطاقتى الشخصية وبحثت ان كان طولى السابق مسجلا بهـا ، فلم أجد !

وعندئذ سألتنى ثانية :

ـ لمـاذا تظن ان طولك ينقص ؟ !

لم أجب ، وانغمست بكل طاقتى فى تفكير طويل ، حتى نبهتنى وقالت ان : « الحمام جاهز » . ثم ضحكت ضحكة اعرفها جيدا ، فالليلة ليلة نهاية الأسبوع ، وهى تتوقع أن اطارحهـا الغرام ، من الصباح وهى تلمح بهذا الانتظار .

نظرت الى وجهها : العينان تتفامزان بسرعة داخل المقلتين ، أعرف معنى ذلك ، الدم منحسر عن كل الوجه متركز قان فى الخدين ، الشـعر مهدل من أثر الاستحمـام ، لكن فيه فوضى جذابة محببة .

قالت نظرتها وهى تضغط كفها على كفى : « الليلة تطارحنى الغرام » .

رحبت بالحمام ، على أن أغسل قذارة النهار كله تحت مياه الدش اللذيذة . غير انى من أول لحظـة خامرنى احساس غريب : « احترس من هذه المياه ! » .. شعرت انها مياه غير عادية ، تفرست فى اللون ، كان رائقا كالمعتاد . تذوقت الطعم ، كان الطعم المـألوف ، لكن الاحساس الغريب استولى على تماما .

قلت ان ذلك من فعل الشمس ، فبعد أن أنهيت مهمتى قررت التوجه لالقاء نظرة على الجانب الآخر ، فرأيت إحدهم يقف هناك فى هـذا الجـانب الآخر ، قبيح المنظر لامع العينين . نظر الى من ابتسامـة كريهـة ، لم أكن أعرف اسـمه بالتحديد ، ولا أذكر انى رأيته من قبل ، ومع ذلك شـعرت بآلاف الوخزات فى كل جسـدى ، وكانت الشـمس قد توسـطت السـماء تماما ، مرسلة أشعتها فى آلاف من الابر الملتهبة ، وأصبح جسدى غربالا من نقط « حمراء ــ زرقاء » .

انهالت المياه الباردة بشدة وعنف فى رذاذ قوى ثقيل فوق رأسى ، قلت لعلها تطهر جسدى من قذارة النهـار ، لكنها تبدو وكأنها ليست مياه كل يوم ! وهمست لنفسى : « يجب أن أحلل هذه المياه ، يجب أن آخذ عينة منها فى قنينة وأذهب بهـا الى معمل التحليل الكيميائى ، فالأمر هام وخطير : هل هـذه المياه تتكون من الأكسجين والأيدروجين بنسبة واحد الى اثنين كباقى المياه أم لا ؟ !

فتحت الدش عن آخره ، فرأيت شعر زوجتى المهدل من أثر الاستحمام ، وكان فى فوضى جذابة محببة ، وعندما ضغطت بكفها على كفى تواثبت عيناها قائلة : « الليلة تطارحنى الغرام » .

دعكت وجهى بشدة ، ودعكت صدغى وقفاى بالصابون .. فقد نظر الى من الجـانب الآخر بعينين متبلدتين فيهما غرابة ، ثم فتح فمه : اما ليضحك أو ليصفر أو ليتثاءب ــ لم أستطع التأكد ــ ولكننى عندما شعرت برأسى غارق فى شىء ما كريـه الرائحة قلت : « انما فتح فمه ليبصق » . وعجبت من هـذه البصقة التى طارت غزيرة ، فشعرت باشمئزاز منه ومن رأسى ، وتمنيت لو قتلته أو غيرت هـذا الرأس ، الا أنه عاجلنى ومد

يده فطالت وضربنى بها على صدغى ، فقلت : فور عودتى الى الدار لابد أن اغسل راسى جيدا ، وفكرت ان كان بالمنزل صابون يكفى لذلك ؛ ثم قررت أن أشترى صابونة من البقال المجاور لمنزلى وذلك من باب الاحتياط .

أردت أن افتح الدش حتى آخره ، فاكتشفت اننى فعلت ذلك . وكلما امتدت يدى لتنظيف جزء من جسدى عادت لتدعك راسى وصدغى ، وقلت : « أكيد أن هذه المياه ليست عادية ! » .

طرقت زوجتى باب الحمام تستعجلنى فى الخروج ، وكان صوتها رقيقا مرتعشا .. وقبل خروجى فى الصباح ، وعندما فتحت لها سدادة ــ عجزت هى عن فتحها ــ نظرت الى فى اعجاب، وطلبت منى أن أعود من مهمتى بأسرع ما يمكن ، ثم قبلتنى ووشوشت فى أذنى بعدة كلمات ، فانتشيت ، وظللت منتشيا حتى رأيته ينظر الى من الجانب الآخر ، وحتى حولتنى ابر الشمس الى غربال من نقط « حمراء ــ زرقاء » .. فتسربت منى النشوة .

ذابت الصابونة ، فناديت على زوجتى وسألتها ان كان لدينا صابونة أخرى ؟ فأنكرت ذلك وقالت انه كان على أن أشترى صابونة أخرى وأنا عائد الى المنزل . لكننى لم أنس ذلك : فبعد أن اشتريت الصابونة وسرت فى الطريق قاصدا منزلى ، وأنا مازلت فى غاية القرف ، لاحظت ان عربة سوداء كبيرة من عربات نقل الموتى تتبعنى !! .. دهشت وسألت نفسى :

« كيف تتبعنى عربة سوداء كبيرة لنقل الموتى وأنا لم أمت بعد ؟ ! » .

وهممت بأن أسأل أحد المارة ان كنت حيا أو ميتا ! ..
لكن العربة سارعت وحاذتنى ، وهبط منها عدد من الرجال فى ملابس الحداد وفى وجوه شاحبة بيضاء كوجوه الموتى ، وكل واحد منهم ممسك فى يده بمطرقة كبيرة ضخمة سوداء . أوقفونى والتفوا حولى فى دائرة سوداء ، ثم انهالوا فوق رأسى طرقا وضربا !!

وكنت متأكدا من صلابة رأسى ، وكنت أعرف أنه لن يتهشم مهما كانت ضرباتهم قوية . فوقفت ساكنا . نظرت الى عيونهم : كانت تبحلق بلا أدنى انفعال ! . فكرت أن أصرخ فيهم لكنى لاحظت ان آذانهم مسدودة بالطين ! .. ثم أيقنت للحظة عابرة انهم أصنام تتحرك أيديهم بالمطارق الهابطة فوق رأسى فى عنف وقوة ، وفى اتجاه عمودى !

قلت لنفسى : « لو استمر ذلك طويلا لنقص طولى عدة سنتميترات وزاد عرضى عدة سنتيمترات ، وبذلك يتبعج شكلى واترهل ! » .. وصممت على أن أتأكد من ذلك فور عودتى الى المنزل .. فاندهشت زوجتى وسألتنى :

ــ لماذا تظن أن طولك ينقص ؟ !

وكان الأمر جد خطير : فلو انضغطت وقصر طولى عن طول زوجتى ، فان ذلك قد يؤدى الى التوتر والنفور فى علاقتنا الزوجية ــ وأنا حريص على دوام هذه العلاقة ، وأعرف انه عندما يرتعش صوتها وينحسر الدم من كل وجهها ليتركز فى الخدين فهذا يعنى أنها تريدنى أن أطارحها الغرام ــ ولم يكن يعجبنى أن ينبعج شكلى ، وأصبح كما لو كنت خيالا فى مرآة غير مستوية .

وفى المنزل فتشت عن الصابونة فى جيبى فلم أجدها !

أغلقت الدش . أمسكت بالملابس لأرتديها .. وصعقت : هذه ليست ملابسى ، كان حجمها أكبر من جسدى ، تفحصتها جيدا ، وكانت تشبه ملابسى الى حد المطابقة !!

نظرت فى المرآة .. ذعرت ، وصرخت فى زوجتى أن كانت قد غيرت المرآة القديمة المستوية بأخرى محدبة ، فأنكرت ذلك !

جلست أفكر : « اذن لماذا أرى صورتى منعكسة صغيرة ضئيلة فى حجم عقلة الصباع ؟ ! » .

وتأكدت ان الصورة المنعكسة فى المرآة صورة صادقة !! . نظرت الى الدش : ليست مياهه عادية أذن ، من المؤكد ذلك : لايمكن ان تكون مركبة من الأكسجين والأيدروجين !!

ودقت زوجتى الباب تستعجلنى .. لكننى عدت أفكر فى هذا المحلول الغريب الذى تساقط فوق رأسى فى رذاذ يشبه الماء وكنت تحته كقطعة سكر او كتلة ملح !! .. همست زوجتى تدعونى الى الخروج .. وتذكرت انها فى الصباح ـ بعد أن قبلتنى ـ وشوشت فى أذنى بأنها تريد ولدا ، وكانت تظن أن ذلك يسعدنى فانتشيت .. لكننى عندما تحولت الى غربال تسربت منى هذه النشوة ، وسألت نفسى : « كيف تسرب هذا المحلول المذيب الى ماسورة الدش ؟ ! » .

صممت على عدم الخروج من الحمام الا بعد معرفة الجواب .. غير أنى خرجت تحت الحاح زوجتى وطرقاتها

المتتابعة . وتوقعت أن تذعر وتصرخ وتلم الجيران وهى ترى ان رجلها قد ذاب حتى أصبح عقلة صباع ..

وادهشنى حقـا انها لم تدهش !! . سـألتها ان كانت تعرفنى .. فضحكت الضحكة التى أعرفها جيدا ومدت يدهـا تداعب شعر صدرى ، فسألتها :

ـ الا ترين امامك غربالا فى حجم عقلة الصباع ؟ !

زادت ضحكتها ونظرت الى فى اعجاب كما فعلت فى الصباح ! ثم مالت على اذنى ووشوشت محددة أسم الولد الذى تريده .. لكننى هذه المرة لم أنتش .

سحبتنى من يدى فى خفة الى غرفة النوم ، وأجلستنى فوق السرير ، وعندما مدت يدها لتخفض من اضـاءة الحجرة تحسست رأسى وصدغى وكل جسدى .. الا أنها صعدت السرير وانتظرت منى أن أطارحها الغرام .

أزمــة

ـ بالأمس شعرت باننى يجب أن أروح عن نفسى فذهبت الى المقهى وجلست على الرصيف وأخذت أراقب السائرين .

ـ جميــل .

ـ ولفتت نظرى ســيدة عجوز تجر خلفهــا كلبا من نوع « الوولف » احدى سيقانه مبتورة لكنه رغم ذلك كان يبدو قتبا قويا وهو يسير على ثلاث أرجل فقط .
عجيبــة !

ـ لكننى اكتشفت انه كلما سار عدة خطوات وقف بضعة لحظات ليستريح وليلتقط أنفاسه ..

ـ كنت مخطئا اذن ؟؟

ـ وبعد ذلك لعبت الطاولة مع صديق لى .

ـ والنتيجة ؟؟

ـ تعادل : أربعة أدوار لأبعة أدوار .

ـ خير من الهزيمة .

ـ طبعا وأثناء اللعب توقف صديقى وأشار مبهورا الى الرصيف .. نظرت فرايت جسدا رائعا لامراة هيفاء .

ـ طول عمرك ذواقة .

ـ الا أن صديقى قال انما عيناها هما الباهرتان ، فمددت يدى الى جيبى واخرجت منظارى الطبى وثبته على عينى ، ولما قويت الرؤية كانت المرأة قد عبرتنا فرأيتها من الخلف وشاهدت مؤخرتها بدلا من عينيها فأسفت لذلك .

ـ غيرك كان يسعد بذلك .

ـ ثم تذكرت زوجتى ، فأنت تعرف اننى منذ عدة أعوام كنت قد بلغت الثانية والثلاثين من عمرى ، وكان على أن أتزوج ففعلتها .

ـ أعانك الله يا شيخ ، وأعاننى !

ـ فى البداية كنت أضاجع زوجتى مرتين كل ليلة ، أما الآن فانها لا تثيرنى كأنثى على الاطـلاق ، عدا لحظات القيظ الشديد عندما أشم رائحة عرقها فأمتطيها ، أما فى الأحوال العادية فأنا اتجنبها دائما .

ـ دائمـــا ؟؟

ـ غالبا ، وقد لاحظت أن جارى يفعل مع زوجتـــه نفس الشىء ، فاندهشت لأن زوجته جميلة ومثيرة ولطالمـــا اشتهيتها .

ـ ولكن ما علينا ، خبرنى عن الجديد فى الجريدة .

ـ ككل يوم ، تصريحات ، قلق فى الأمم المتحدة ، توتر ، تكوين لجـان ، تقلبات جوية ، وأخبار عن الأزمة ..

ـ أية أزمة فيهم ؟؟

ـ ازمة المواصلات .

ـ فكرتنى .. فصباح اليوم ، وككل يوم ، لمـا أيقظتنى زوجتى شعرت بصداع شديد وبأن الرؤية أمامى غير واضحة ، وتمخطت مخاطا غزيزا كان يسد بلعومى .. ثم ارتديت ملابسى وذهبت الى محطة الأتوبيس ، وكان الصـداع مازال يزعجنى ، ووجدت الكثيرين غيرى عيونهم نصف مغمضـة تكالبوا على ركوب الأتوبيس ، فنسيت صداعى وكافحت معهم وضـدهم ، لكننى فشلت ، ولازمنى هـذا الفشل لعدة أتوبيسات .. وأخيرا .. عندما وصلت هنا الى الديوان كنت مجهدا ولعلك لاحظت ذلك .

ـ طبعـا .

ـ فقد كان صوتى خافتا تماما عندما قلت لك صباح الخير .

ـ فعلا فعلا .

ـ وصوتك أيضا كان خافتا عندما رددت بصباح النور .

ـ صحيح .. صحيح .. وبالأمس رأيت مثلك سيدة عجوز تسحب خلفها كلبا .

ـ « وولف » بثلاثة أرجل ؟

ـ بل كلب « لولو » مقطوع الذيل ..

مائة مليون نحلة فى الرأس

ذهبت الى مبنى المجمع العالى ، وقفت فى الصالة المستديرة فى انتظار المصعد . نظرت الى أعلى : كانت الطوابق ترتفع فوقى على شكل دوائر ، بئر مرتفعة لأعلى ، دائرة فوق دائـرة فوق دائرة ، أردت أن أعرف عددها بالضبط فلم أقدر ، وبما خمسة عشر أو عشرون طابقا . لكن الذى حيرنى أن هـذه الدوائر كانت كلما ارتفعت ضاقت وصغرت حتى كادت أن تصبح عند الطابق الأعلى سميكة !!

ركبت المصعد حتى الطابق الأخير ، خرجت منه لأجد شرفة مستديرة (ولم تكن نقطة سميكة !) . نظرت منها الى أسـفل ، وكانت بئر السلم تحتى هـذه المرة . وشعرت بالحيرة : كانت الدوائر (بعكس المرة السابقة) تصغر كلما انخفضت ، حتى أن الدائرة الأرضية أصبحت نقطة عريضة !! . قلت لنفسى : « هذا غش ، لابد من التأكد ، ولن الدغ مرتين » . أخرجت المقياس

من جيبى وقست قطر الدائرة فى الطـابق العلوى وكان طوله عشرة امتار . وخمنت أن قطر الدائرة عند الأرض لابد أن يكون مترا واحدا على الأكثر (فيكون مبنى المجمع الحكومى هو أعجوبة الأعاجيب : القاعدة ضيقة والقمة مفرطحة ! .. ويكون مهندس المجمع الحكومى قد صنع ما لم يستطعه سـلفه مهنـدس الهرم الأكبر !) .

شعرت بالأسى ، جلست على حافة الشرفة ، كان حولى ناس كثيرون ، نظروا الى ، وسـاروا كل الى حجرته ، لم يسـألنى احـدهم لمـاذا اجلس على سـور شرفـة فى الطـابق العشرين (أو ربما كان الطابق الثامن عشر) !

صممت على التأكد من طول قطر الدائرة السفلى . ركبت المصعد وهبطت . وعند الأرض مددت يدى لأخرج المقياس من جيبى ، لكنى لم أعثر عليه ، كيف ذلك ؟ ! .. وتذكرت ان راكبى المصعد احتكوا بى وأنا غارق فى التفكير ، ولابد أن أحـدهم سرق مقيـاسى .

لم اقس البعد المطـلوب . حزنت وخرجت الى الميـدان يائسا . كان الصيف حارا (لم يخدعنى مدرس الجغرافيا عندما قال ان مصر مناخها : حار جاف صيفا ، دافىء ممطر شتاء) . اردت عبور الطريق ، ولكن لفت نظرى أمر غريب آخر .

فى وسط الطريق بالضبط (قد لا يكون بالضبط) كان فوق الأسفلت روث بهيمة !! يا للعجب !! غير معقول !!

اندفعت الى رجل المرور ، أخبرته بما رايت فلم يصدقنى ، اخذته الى وسط الشارع وقلت له :

ـ ها هو روث البهيمة ، وهكذا ترى أننى لم أخدعك .

قال فى تعجب (وكان تعجبه رسميا لأنه كان مازال فى ملابس العمـل) :

ـ أين ؟!

ها هو أمامك .

ـ اننى لا أرى الا الأسفلت ، ولأننى شرطى فأنا أفهم فى ذلك خير منك .

سألته ان كان (مع عدم المؤاخذة) ضعيف النظر . فقال فى هدوء :

ـ نظرى سليم ، وأستطيع أن أقرأ رقم السـيارة التى تسير هناك فى نهاية الميدان وأحرر لها مخالفة .

وليؤكد لى قوله كتب رقما فى دفتر المخالفات (ولم أكن وقتها فى حالة تسمح لى بالتأكد ان كان الرقم صحيحا أم انه وضع رقما عشوائيا) .

ثم شرح لى أن البهـائم (وقد أسماها : البطىء) ممنوع مرورها من هنا .

أخذنى الى نهاية الشـارع ، وكانت هنـاك لافتة مكتوب عليها : « ممنوع مرور البطىء » .

ثم سار حتى الطرف الآخر للشارع فرأيت لافتة مكتوب عليها أيضا : « ممنوع مرور البطىء » . وعندئذ نظر الى معاتبا :

ـ من الطرفين ممنوع مرور البهـائم ، فمن أين اذن جاء الروث فى وسط الطريق ؟ !

ثم سألنى ان كان من الممكن وجود بهيمة بجناح طائر ؟ ! ..
ففكرت قليلا ، وترددت ، ولم أرد على هـذا السؤال . فقـال سـاخرا :

ــ أم أن ذلك روث عصفورة او حداة ؟ !

وحتى هذا السؤال ترددت فى الاجابة عنه ، ولم أقل نعم أو لا (على الانسان أن يكون حريصا فى هذه الأيام) . عدت الى وسط الطريق فرأيت روث البهيمة مازال موجودا .

تجمع الناس ، أطالوا النظر الى الأرض ، تلفتوا فى كل اتجاه ، وفكروا طويلا ، لكنهم بعد برهة هتفوا (وكانت نظراتهم جميعا مركزة على الروث) :

ــ حقا انه موجود ، يستطيع الأعمى ان يراه !

وبعد برهة أخرى قالوا (جميعهم أيضا) وفى حنق :

ــ كلا غير موجود ، ولا يوجد الا أسفلت الطريق !

وبعد برهة ثالثـة تركتهم وهم يمعنون فى تدقيـق النظر ولا يستطيعون الثبات على رؤية معينة .

جلست فى وسط الميدان الكبير ، وقلت : « ان هناك شيئا غامضا ، هناك سؤال يحتـاج الى جواب » . وكانت الشمس ساخنة ملتهبة . وتعبت : « الا من حل أو جواب » ؟ !

نصحت نفسى « انس التفكير ، لا تفكر » .. ثم وبخت نفسى : « لا تقف هكذا ــ أو ربما قلت لا تجلس هكذا ــ اشغل نفسك بشىء ، فكر فى أمر آخر » . وفكرت : « فندق عمر الخيام

لصاحبه عمر الخيام ، خطـأ ، فندق عمر الخيام ليس صاحبه عمر الخيام ؟ » . عذبنى ذلك فكففت عنه وسرت .

عند شريط السكة الحديدية استوقفت رجلا وسألته :

ـ من اية جهة سيأتى القطار السريع ومتى ؟

اشـــار الى الجهـــة وقال : « بعد ثلاث دقائق » شكرته ، وجلست فوق أحد القضيبين (لم يكن بمقدورى أن أجلس على القضيبين معا) نظر الى الرجل ولم يسألنى عن سر جلوسى هكذا أو عن سر اهتمامى بموعد وصـــول القطـــار السريع واتجاهه ، ومضى فى طريقه (وقد تنبهت الى أن انفه كبير) .

نظرت الى حيث سيأتى القطار : القضيبان يلمعان تحت أشعة الشمس لمعة سيف . ولفت نظرى أمر غريب : فهما يلتقيان على بعد حوالى ثلاثـــة الكيلو مترات (!!) .. ضـــاقت المسافة بينهما شيئا فشيئا حتى التقيا هناك .

(خدعونى فى المدرسة وأنا صغير ، ففى كتاب المطالعة قرأت أن القطـــار يسير على شريطين متوازيين ، وقـــال مدرس الحســـاب ان الخطين المتوازيين لا يلتقيان ابدا مهما امتدا) .. لكنهمـــا هنا التقيا على مرمى الشوف !!

حزنت : فما دام الشريطان قد التقيا هناك فى نقطة واحدة ، فكيف سيأتى القطار من هذا الاتجاه ؟ ! . نهضت وأنا أشعر بخيبة أمل . سرت مهموما .. وبعد أن ابتعدت سمعت صـــوت القطـــار يعبر (لم أتعب نفسى بالنظر وقلت ان ذلك من فعـــل الوهم) .

عدت ثانية الى الميدان ، ذهبت الى وسط الشارع . رأيت ان روث البهيمة مازال موجودا وبكمية أكبر ، وخيل الى انه حـديث !!

احسست بالعرق يغمرنى (قـال مدرس الجغرافيـا ان الشـمس تكون أقرب ما يمكن من الأرض فى فصل الصيف) . وخطرت لى فكرة رائعـة (ربما تكون غريبة) .. فقمت واحضرت كوبا كبيرا ، اخذت أجمع عرقى فيه ، ولدهشتى امتلأ الكوب حتى آخره وكان مازال هناك عرق فوق جسدى . قلت لأذق طعمه ، أخذت رشفة ، كان مالح الطعم !! وفكرت طويلا حتى تذكرت أن ماء البحر ايضا مالح (وان مدرس الجغرافيا قال ان البحار تشغل مساحـة قدر اليابسـة عدة مرات لا أذكرهـا بالضبط) . رفعت عينى الى قرص الشمس الملتهب ، أعشت عينى فأغمضتها !

ركعت ، ويبدو اننى فعلت ذلك بقصد الصـلاة والتضرع الى الشمس أن تكون رحيمة بى ، وأن تنادى على سحابة ما من اى مكان فى السماء وتختفى خلفهـا (ولو من حين لآخر حتى يعمل فكرى فى صفاء .

غير انى فتحت عينى (لأننى سبق أن اغمضتها) على شىء غريب حقا : زوج أحذيـة اسود ضخم كان يسـير . أخرجت منظارى وتفرست فيه فزاد عجبى ، واذا بهذا الشىء تخرج منه ساقان قصيرتان فوقهما انسان فى حجم عقلة الأصبع ، نظر الى فى استغراب !

وقال : لمـاذا انت فى استغراب هكذا ؟ وأنا واحد أسير فى خطوات منتظمة ككل الناس ؟

ســألته :

ــ ليست ضآلة حجمك التى تدهشنى ، ولكن حذاءك ، أذلك هو الحذاء ذو سبع الخطوات ؟ !

ــ وماذا يكون ؟

ــ انه حذاء الخطوة منه بسبع من خطواتى ، يصــل بك الى غايتك فى سبع الوقت العادى .

ــ ذلك فى الأساطير ، ولكن هذا الحذاء لا يناسبنى .

قلت غاضبا :

ــ قد تكون أنت الذى لا يناسب الحذاء

وضعت المنظار فى جيبى فلم أعد أرى الا الحذاء ، لذلك لم أسمع بقية كلامه ، وسار بخطوات منتظمة .

كان الميدان مليئا بالحركة ، والبنــات فى ملابس زاهية ، وبعض الرجال يتحادثون بأصوات غير مسموعة ! والغموض يلف المشكلة (فكلما بحثت عن أصلها تشعبت منى الأمور وتعقدت) . وعندما نظرت للجالس الى جوارى ــ ويبدو أنه كان يبتسم ــ تنبهت الى أنفه الكبير ، فقلت متذكرا :

ــ الست أنت الذى قابلته عند شريط السكة الحديدية ؟ !

ــ جــائز .

ــ لكن انفك الآن أكبر من المرة السابقة !!

ــ اذن فلابد أن أنفى يكبر ، ولابد أن هذا يدهشك .

داريت خوفى وذعرى . فكرت عدة ساعات وقلت بعد برهه :

ــ اتركنى الآن . أريد أن أصلى .

ابتسم ابتسامة كبيرة جدا (كان عرضها يقرب من المتر لأن قمه كان فى هذا الاتساع) .. ثم تلفت حوله وقال :

ـ اين ؟؟ لأى اله ؟؟

ـ رع ، اله الشمس .

ـ كان ذلك منذ آلاف السنين ، الآن لم تعد الشمس الها .

كان صوته خافتا جدا (ذلك بسبب ضآلة رئتيه) .. ثم كشر وقال :

ـ لم تعد الشمس الها .

ـ ولكنها تحرقنى بلهيبها !!

ـ لم تعد الها !

ـ لكنها عالية ، شاهقة ، فوق من فوق القمة !

تركته وسرت (لا اذكر بالضبط ، فربما يكون هو الذى تركنى وسار) .

وسرعان ما جاء المساء وكان باردا .

قلت أعـود الآن الى وسط الطريـق للبحث فى سر روث البهيمة . لكن الظلام كان شـديدا ، والأضـواء كانت مطفـأة جميعها . كان ذلك من سوء طالعى . غير انى فكرت أن أستعين بضوء النجوم ، فأخرجت منظارى ونظرت الى السـماء باحثا عن نجم مضىء ، فوجدت واحدا ، فرحت به ، وكان يلمع ، وقلت ابحث على ضوئه ، لولا ان الرجل ذا الأنف الكبير جاءنى فجـأة (يبدو انه كان يتتبع خطاى) .. وسألنى :

ـ الى أى شيء تنظر ؟؟

ـ الى ذلك النجم .

ـ اى نجم ؟؟

ـ ذلك الذى هناك . لا يوجد فى السماء غيره .

ـ ولكن ذلك ليس نجما !!

ـ ولكننى آراه !

ـ ليس نجما . فى هذا المكان كان هناك نجم ، ولكنه الآن لم يعد هناك .

وفى برهة واحدة فكرت عدة ساعات ، وبانت الحيرة على وجهى ، فضحك ضحكة قصد أن تكون عالية ، ولكنها كانت خافتة (بسبب ضآلة رئتيه) .. بالكاد سمعتها . أطرقت السمع وكان يقول :

ـ لبعد المسافة ، فحتى يصل الضوء اليك يكون النجم نفسه قد قطع آلاف الأميال .

قلت حزينا (ولا أذكر ان كنت قد بكيت أم لا) :

ـ ما دام ذلك ليس نجما ، اذن فذلك ليس ضوءا ، وعلى أن أبحث عن مصدر جديد .

ـ اسألنى وأنا أساعدك .

نظرت اليه ، خيل الى انه سينفجر .

ـ اسألنى وأنا أساعدك .

أحسست بالخوف . تذكرت أمى . جريت اليها على الفور. طلبت منها المصباح حتى أعود فأبحث عن ذلك السر ، ولأنها تحبنى أحضرته الى ، ونفضت عنه التراب ، ثم سعلت وتثاءبت ونصحتنى بالنوم لأن الجو بارد .

هززت المصباح ، اكتشفت انه فارغ ليس به وقود !

ـ أين الزيت يا أمى ؟؟

ـ جف .

ـ منذ متى ؟؟

ـ من قديم .

ـ الا تذكرين بالضبط .

ـ لا أذكر يا ولدى ، دعنى أنم ، لماذا لا تنام ؟؟

سألتها ان كان قد جف منذ مائة يوم أو عدة سنوات .. او الف عام أو مليون !! لكنها كانت قد نامت . تأملتها فشعرت بالعطف عليها (فهى أمى) .

أخذت المصباح ، لم يكن به زيت ، ولم يكن معى ثقاب ، ولم أكن أملك حجرين اشعل منهما شرارة النار والنور ، رغم ذلك ذهبت أبحث . كان الظلام دامسا . حركت المصباح يمينا ويسارا . لم أكن أرى شيئا ، حلكة شديدة .

تذكرت الرجل الأنف . ولبرهة واحدة فكرت مليون ساعة، غير أنى أحسست بهم يقتربون منى . لم اكن أراهم ، ولكنى كنت متأكدا (ولا أدرى كيف) .. شعرت بهم يتهامسون . تنفسهم المكتوم سمعته . أحسست به يطوق عنقى ويضغط على

العروق بها ، كان رطبا باردا . دعرت : كيف يخرج التنفس باردا من داخلهم ؟ !

أقشعر بدنى . ارتجفت . تهامسوا فى خفوت ، وكان عددهم كبيرا ، فتجمعت الهمسات وخرجت حفيفا عاليا (أغلب الظن انه أصبح صاخبا ، وانهم كانوا يقولون) :

ـ هذا مجنون آخر !

حـكايات الزوايـا

قصة فى اربع حكايات منفصلة

الحكاية الأولى : الزاوية الواحدة :

يقف على باب المنزل ، لا تلتقط اذناه اية ذبذبات صوتية .

الصمت مطبق ، والسكون شامل .

يرسل بنظره الى الجانب الآخر ، فى محطة الأتوبيس : عدد كبير من الناس ، دائما هـذا العدد الكبير ، فى اية سـاعة من ساعات اليوم ، ينبتون فى الصـباح ، ويقتلعون مع موعـد آخر أتوبيس . وذلك الشاب الطويل ، لا يركب الا العربة التى تركبها تلك الفتـاة ذات المعطف الرخيص الأزرق اللون ، لكنهـا اليوم تبدو مكتئبة ، وظلال من القلق فى عينيها .

ينظر الى الطريق أمامه المليء بالحركة . صمت . يمد يده يثبت السماعة فى اذنه .. يتحسس جهاز تقوية السمع الصغير فى جيبه العلوى . يدير مفتاح الصوت . يبدأ يسمع ضجيج الشارع : سيارات تزعق فراملها من حين لآخر ، وتنطلق منبهات صوتها كل حين ، باعة سريحة ينادون على بضائعهم بكل ما ملكوا من صوت عال ، أولاد يتصايحون خارجين من مدارسهم ، راديوهات تصرخ ..

ترتسم على وجهه علامات الضجر ، وتطل من عينيه نظرات الاستنكار :

ـ اللعنة !

يتلفت الى السيارات المتدفقة فى الطريق ، وبخطوات مترددة يبدأ فى عبور الطريق ، يلقى نظرة الى الرصيف الآخر ، ها هى تأتى ، المتصابية ، لا تخدع مساحيقك أحدا ولو مراهقا ، الفستان مبتور الذراعين ، واسع الفتحة عند الصدر والظهر ، البقعة الحمراء على شفتيك مفرطحة ، داعرة .. داعرة تعمل ظهرا !

سيارة صغيرة تكاد تصدمه . يركض خوفا ، السماعة فى أذنه تهتز ، توشك ان تسقط ، يسندها بأصبعه . يصل الى محطة الأنوبيس لاهثا ، رامقا فى غضب العربات العابرة . ينظر الى موطىء قدميه :

ـ اللعنة !

يتراجع الى الخلف عدة خطوات . يتأمل الناس من حوله..
آثار التعب بادية على عيونهم جميعا ؛ الولد الصغير يقف ناعسا يفتح عينيه بصعوبة ، الرجل المتجهم زادت شعيراته البيضاء فى رأسه ، وهذا الكهل الذى لا يضحك أبدا ، يا لروعة رزانته ! وهؤلاء العابثون الضاحكون ، عيال صغار ، وتلك داعرة تعمل ظهرا وزميلاتها يعملن ليلا :

ـ اللعنة !

يأتى الأتوبيس مزدحما عن آخره . تحدث حركة بين الواقفين ولا ينقص عددهم ، يلفت نظره ثلاثة رجال متشابهون ، يهبطون بعد معاناة مع زاحمى الباب ، يتجهون الى الدكان خلفه ، وهم يشتمون ويلعنون كل شيء .

تتقلص عضلات وجهه ، وتغيظه السيارات المنطلقة فى صخب والناس المسرعون .. يمد يده الى مفتاح الصوت ويخفضه .

من الدكان خلفه تنبعث أصوات غاضبة محمومة ، أربعة أصوات ثائرة انفجرت مرة واحدة . يقترب من باب الدكان ، يرى داخله اربعة رجال ، منهم الثلاثة المتشابهون ـ وقد هاجوا فى بعضهم البعض .

يرفع رأسه ويقرأ لافتة الدكان : اخوان الصفا .

ـ اخوان الصفا وبتشاجرون ؟ اللعنة .

يأتى الأتوبيس المتجه الى حلوان ، يراه مزدحما . لا يتحرك.
الفتاة ذات المعطف الرخيص الأزرق تركب ، ومن خلفها الشاب الطويل كظلها .

يتحرك الأتوبيس نافثا دخانه فى وجهه ، يشهق فى حرقة ، يتراجع عدة خطوات ، يجد شابا صغيرا يحوم حول ذات الفستان الواسع عند الصدر والظهر ، يهم بأن يلعنها ويلعن بقعتها الحمراء على شفتيها ، لكنه يشعر بشىء يسقط على كتفه . يلتفت مذعورا ، يرى كرة من المطاط تتقافز على الأرض ، وبسرعة تدب الحياة والنشاط فى الولد الناعس فيجرى ناحية الكرة ، يمسكها ، ينظر الى صاحبها فى الشرفة أعلاه ويعقد معه اتفاقا : أن يرميها له ويعيدها اليه ، يرضى صاحب الكرة .

تزداد أصوات اخوان الصفا هيجانا . تغيظه الكرة الهابطة والصاعدة بين الولدين . تغيظه الابتسامة المتبادلة بين الشاب الصغير وذات الفستان الواسع . تصطك أسنانه :

ـ يا خالق الناس ، كلما تأملت حال الدنيا هتفت : اما ان تقوم ، واما أن يهبط ..

ينظر جهة منزله ، يخفض رأسه ويمضى عابرا الطريق ؛ ناظرا الى موطىء قدميه ، وهو يشوط فى طريقه روث بهيمة عبرت قبله وتركت أثرها على الأرض ، ويكمل :

ـ .. تقوم القيامة أو يهبط الطوفان ...

يصل الى باب منزله . يلتفت خلفا الى الشارع وحركته ، وبحركة غاضبة حانقة تمتد يده تجذب السماعة من أذنه ، فتنقطع الأصوات عن الوصول الى عقله .

الصمت المطبق ، والسكون الشامل .

يدخل منزله ، ويغلق الباب بالمزلاج .

الحكاية الثانية ـ البقعة الحمراء على الشفاه :

الأحمر على الشفاه فاقـع ، والثوب واسع الفتحـة عند الصدر والظهر ، منذا يخطىء مهنتى ؟

تتثاءب ، اجهـدتنى ليلة الأمس ، يأتي الرزق فى آخـر لحظة ، النهار كله خالية ، وعند اليأس يأتى الفرج ، ترى ما حال السوق اليوم ؟ !

تجول بناظريها فيمن حولها . الرجال مجهدون من العمل . ترتاح عندما تشعر بشاب صغير يحوم حولها ، السنارة تغمز . منظره لا بأس به ، ما حال جيبه ؟

تدير نظرها الى الرجل ذى السماعة فى أذنه ، يا ساتر ، يحمل الدنيا فوق راسه ! يقترب الشاب الصغير منها ، ترمقه بنظرة عابرة لا تخلو من تشجيع . يقف بجوارها غير ناظر اليها . تتفحصـه ، يبدو ان ماله ليس كثيرا ، اما الآخـر ، الرجـل ذو السماعة ـ فيبدو اكثر يسرا ، وله ميزة فريدة : عندما يخلع سماعته استطيع ان اسبه والعن اجداده دون أن يسمعنى .

يزداد الشاب اقترابا منها ، على كل حال : خير من انتظار زبائن الليل . ترى كيف سيبدأ الكلام ؟؟

يأتى الأتوبيس ويتحرك ، والشاب لم يبدأ معها حديثـه ، لابد أن تبدأ هى ، تنفخ غيظا وتقول :

ـ مواصلات مقرفة ومزعجة .

عندما يتأكد ان الكلام له يرد عليهـا ، ويتم التعارف ، ويبدأ الاتفاق :

تقـول :

ـ أجرى جنيهان .

ـ مبلغ كبير !

ـ جنيهان ، والدفع مقدما .

ـ اتفقنـا .

ـ هل المنزل بعيد ؟؟

ـ خمس محطات بالأتوبيس .

ـ لا اركب الأتوبيس .

ـ نستقل سيارة تاكسى .

ـ هل تدخن ؟؟

ـ لا ..

ـ اشتر لى علبة سجائر اذن .

يتجه الى البقـالة خلفه ـ بقالة اخوان الصفا ـ ليشترى علبة السجائر .

تقف فى توتر ، يبدو انه موظف مفلس ، سأطالبه بالأجر قبل أن اخطو الى منزله ، مثله من الموظفين لا امان لهم . تبدأ تترقب سيارة أجرة لتوقفها فتقترب من حافة الرصيف .

تفاجأ بوقوف سيارة ملاكى بجوارها ، سـيارة متوسطة الحجم . ينظر لها صاحبها ، فتبتسم له ابتسامة عريضـة ،

يفتح لها الباب فتركب ، وتتحرك السيارة ، فى عودة الشاب الصغير بعلبة السجائر فى يده .

يظل يرمق السيارة وهى تبتعد حتى تختفى تماما وهو مصعوق ، يتلفت حوله باحثا عن امرأة غيرها ، لا يجد .. ينظر لعلبة السجائر ويتحسر على ثمنها ، ويتحسر على الوقت الممتع الذى ود لو قضاه مع المرأة ذات البقعة الحمراء على الشفاه .

يهز كتفيه بلا مبالاة ، ويقول لنفسه ، على كل حال النوم ساعة القيلولة يفيد الجسم ، وراتبى صغير لا يكاد يكفينى ، اعمل كالحمار وأجازى بأجر حمار .

يأتى الأتوبيس ، ويحشر نفسه بين راكبيه ...

الحكاية الثالثة ــ اخوان الصفا :

يافطة الدكان مكتوب عليها : « بقالة اخوان الصفا » .

ومن داخل الدكان انبعثت أصوات غاضبة محمومة ، أربعة أصوات ثائرة ، انفجرت مرة واحدة فى بعضها البعض ، اخوان الصفا ويتشاجرون !!

هب الأخ الأصغر فى الأكبر يتهمه بأنه يعامله كطفل ، وزعق الثانى فى الثالث مطالبا بزيادة نصيبه فى الربح ، فصاح الأخ الثالث يشكو وينوح بأن المحل قائم على جهده ، يعمل فيه طول اليوم ، ويأخذ ربحا مساويا لأى واحد منهم .

يحتد النقاش .

يفقد الأخ الثالث أعصابه ، ويكاد يتهجم على أخيه الأكبر ، لولا ان الأصغر يمنعه ، ويندفع الثانى جهة الأصغر بقصد لطشه

صفعتين ، لكن الأكبر يمسك به ، ثم يقبض على سيخ باب الدكان الحديدى ، ويلوح به صارخا :

ــ كل واحد يلزم حدود أدبه ، كل واحد يقف مكانه !

تقف الأرجل الثمانية مكانها ، وتكف الحركات المتهورة عن الصدور . لكن الألسنة تظل منطلقة ، فيشتم الأخ الثانى كلا من الثالث والرابع ، ويسب الأخ الثالث الأخ الثانى ، ويقذف الأكبر بأقذع الكلام الى أخويه الثانى والثالث ، ويلعن الأصغر اخوته الثلاثة جميعهم .

تزداد الأصوات فورانا ، وتعلو مطالبة بفك الشركة ، وكل حى يذهب لحاله .

لا يسكتون الا على دخول فتاة صغيرة ، تحمل فى يدهـا اليمنى « حلة » معقودة حولها فوطة بيضاء ، وتحت ابطها عدد من الأرغفة الملفوفة فى فوطة أخرى .

تنقل البنت بصرها بينهم وتحتـار ، تنظر الى وجوههم المحمرة ، ثم تسأل والدهشة تتملكها ان كانوا يريدون شيئا ، ازاء نظراتها يلقى الأخ الأكبر بسيخ الحديد من يده فى شىء من الخجـل .

تنصرف الفتاة . يفك الفوطة من حول الحلة ، يرفع غطاءها فتنفرج أسارير وجهه ، ويقول :

ــ ملوخيـــة !!

تبدأ الأرجل الست تتحرك .

يتجه الأصفر ويفك رباط الفوطة الثالثة من حول الأرغفة ، وبلقمة يتذوق طعم الملوخية ، فتنفرج تقاسيم وجهه .

فى اقل من دقيقة تتكون دائرة من الاخوة الأربعة مركزها حلة الملوخية ، وتمتد أيديهم اليها ، ثم تنتقل الى أفواههم ، يد أو يدان ، أو الأربعة مرة واحدة ، تمتد الى الحلة فى نفس اللحظة لتنهل من نفس الوعاء .

الأخ الثـالث هو أول من يشبع ، يقوم حامـدا الله على نعمتـــه .

يتبعه الأخ الثانى ، فينظر اليه الثالث قائلا :

ـ لم لا تأكل الا نصف رغيف !!

ـ شبعت .

يأتى شاب صغير ليشترى علبة سجائر ، يبيعها له الثالث ويدعوه الى الغذاء معهم ، يشكره الشاب وينصرف بعلبته .

ينهض الأصفر هاتفا :

ـ طعم الملوخية ولا طعم السكر !!

يقول الأكبر له :

ـ بالهناء والشفاء .

ويأخذ كل واحد منهم ينظر الى الآخر فى خجل .

الحكاية الرابعة ـ قبل آخر محطة :

فى حلوان ، عندما يقترب الأتوبيس من محطته قبل الأخيرة، كان الشاب الطويل يرمق الفتاة ذات المعطف الأزرق الرخيص قائلا لنفسه ـ تبدو اليوم قلقة وظلال الغضب تلوح في نظراتها .

يقترب منها . تشيح بوجهها بعيدا . يهمس فى أذنها . لا ترد عليه . يقف الأتوبيس ، ويكون الشاب قد اتجه الى الباب وهم بالنزول ، ينظر اليها ، فتتبعه وهى تضم طرفي معطفها الأزرق الرخيص ، وتكشيرة تلح على ان تكسو وجهها .

الشارع طويل ونظيف وخال ، الا من بعض العمال أو العاملات سائرين فى عجلة نحو مصانعهم المنتشرة فى اتجاه حلوان ، أو بعض التلاميذ الى مدارسهم فى فتراتها المسائية .

يسير الشاب بجوار الفتاة . ينظر اليها والى تكشيرتها ، يقول فى معطف :

ـ حتى تكشيرتك جميلة .

لا ترد ..

ـ من أجلك رفضت نوبة المساء ، لأن عملك فى الفترة المسائية ، حتى القاك كل يوم .

لا ترد ..

ـ جميلة فى بسمتك وفى غضبتك .

تمنحه نظرة لا تخلو من احتياج .. وتقول :

ـ من أجل هذا انزلتنى من الأتوبيس ؟؟

ـ أردت أن اشرح لك موقفى .

ـ تريد أن تلعب بى . انت تماطل .

يقف غاضبا ، فتسرع من خطاها ، لكنه يتمالك نفسه ويلحق بها :

ـ يا لك من مدرسة عنيدة !! الا تسالينني عن السبب ؟ !

لا ترد ..

يسالها غاضبا :

ـ الا تريدين معرفة السبب ؟؟

تقف وتواجهه فى عناد :

ـ تكلم . قل . اننى أصغى لك .

ـ بسبب انتخابات المصنع التى تأتى خلال أيام ، وسأدخلها وما كنت انوى ذلك .

ـ اذن تزوج من مصنعك ، واتركنى فى حالى ، ستجعلنى اتأخر عن موعد مدرستى .

ـ اسمعينى جيدا ، الانتخابات تتطلب منى كل جهدى ووقتى ، ولولا أن حسين مسعود دخلها ما كنت رشحت نفسى !!

ترمقه فى عناد ، فيشرح الموقف :

ـ حسين مسعود انسان وصولى ، مخادع ، وقد اختارنى زملائى كى أنافسه فى المعركة ، بقصد هزيمته .

ـ ولا وقت لى انا ؟ !

ـ كنت أظنك ستفهميننى !!

يسيران فى بطء ، وفى توتر . يسود الصمت . تنظر اليه . يمشى شامخا براسه ناظرا الى المدى البعيد ، لكنه متألم .

تسأله بصوت خفيض :

ـ ولماذا انت بالذات ؟ ! وهل أنت المسئول عن اصلاح المعوج فى الكون ؟ !

يقف مصدوما ، يتجه يسارا حيث مصنعه ، قائلا فى استياء :

ـ لكن امى قالت لى نفس الكلام !!

ثقوب فى الأوراق الخضراء

ناحت الأصوات :

ــ كانت لنا طيور جميلة ، فى لون الضــوء الوردى ، تعيش معنا ، تضىء الحياة أمامنا تنشد ، تلأغينا ...

هتف صوت :

ــ طائرى غرد لى : فى ضيعة الكرم سأعمل ، مهر حبيبتى ابتسام سأدخر وأتزوجها وأنجب منها ثلاثة من البنين ونعيش فى سعادة مائة من السنين ، لكن طائرى فى البحر هوى ثم غرق ومن يومها سكت ولم ينطق ..

هتفت الأصوات :

ــ كانت طيورنا الوردية تزقزق ، تتواثب من حلم الى حلم لكنها اختفت ولم تعد تزقزق .

ارتعش صوت أجش :

ـ طائرى انا ، يا لوعتى عليـه ! عذب الشدو ، اذ رآنى مثقلا رفرف جناحيه ونفش ريشه وانشدنى عن ولدى وعن ابنتى، الولد يدير تجارتى والبنت تتزوج وتنجب الأحفاد فينعم بالى ، واجلس مستريحا آمر وأنهى ويقبلون يدى ، لكن طائرى طـار مرعوبا ، وأصابته الرصاصة فسقط فى اليم ، واختلطت الألوان : زرقة البحر ، لون الغروب ، لون طائرى الوردى ، مع لون دمه ، وتكاثفت الظلمة فساد اللون الأسود .

علت الأصوات :

ـ رباه يا رباه ، طيورنا الحبيبة طارت تلتقط الحب فوجدت مكانه الرصاص ، رباه .. طارت ترتوى ماء فوجدت مكانه دمـا ساخنا ، رباه .. فماتت أو اختفت ، لا ندرى لا ندرى .

لوحت أختى بريشة صغيرة :

ـ عصفورى صغيرى ، وشوش فى أذنى : تدرسين وتتفوقين . أشهر طبيبة ستصيرين ، اكبر مستوصف فى المدينة ستفتتحين ، طائرى الحبيب انقضت عليه من الغربان مائة ، ذبحوه نهشوه ، وسقطت فوق رأسى هذه الريشة .. لطيرى الحبيب .

تعذبت كل الأصوات :

ـ طائرها مات ، طائرنا مات .

تفرست فيهم . لم أصدق ، دخلت دائرتهم :

ـ طائرها مات ، طائرنا مات .

تحسست ألسنتهم ، تلمست أذرعتهم . احترت .. كان صوتهم صاخبا بطريقة غير عادية ، مترجرجا فى الهواء بطريقة غير مألوفـة !!

ـ طائرها مات ، طائرنا مات .

ادركت السبب ، فقد طالت السنتهم ، وتطول !! وقصرت ايديهم ، وتقصر ! ذعرت . انصرفت .

تركتهم خلفي وسرت أضرب الأرض بقدمي ، التراب أسمر يميل الى الصفرة .. وذات مرة قص على أبى السبب فى ذلك ، قال ان الأجداد جاءوا بكميات كبيرة من الذهب ، طحنوه حتى أصبح مسحوقا ، ثم بذوره فى كل الوطن ، ومن يومها فان أرض فلسطين تنبت خير زرع ، وأصبح لونها يميل الى الاصفرار . كنت طفلا فدهشت وسألته ان كان الذهب رخيصا الى هذا الحد عند الأجداد ، لكنه لم يرد على ، بل احتضن زجاجته فى حرص وانطلق يغنى ولم يعد معى .

خففت من وقع الخطو ، شعرت بحنين جارف لزيارة قبر أبى . وقفت حزينا . نظرت صوب الشمال : قبر أبى هناك : عندهم .. ناجيته فى رقدته ثم سكت : هل دفنوه وصنعوا له قبرا أو شاهدا ؟ !

امتلأت عينى بالدموع ، وعلى الفور صارت رعود وبروق ، واذا سلم منصوب على الأرض ورأسه يمس السماء ، واذا بشيخ يقف فوقه ويده تعبث بلحيته الرمادية يسألنى :

ـ هل تعرف ان العضو يقوى بالمراس ؟؟

اغمضت جفنى بشدة حتى أطرد الدموع من عينى ، وتذكرت اننى رأيت هذا الشيخ من قبل . فى عينيه حدة وحكمة .

فكرت فى سؤاله طويلا . ابتسم فرايت الطيبة فى تجاعيده . اشار الى ناحيتهم وقال :

ـ اريدك أن تصير صيادا . الآن خذ عدتك وسلاحك واخرج الى هناك وتصيد لى صيدا .

* * *

سرت صوب الشمال . أشجار ذابلة . يمامات قتلى . زهور مدهوسة ، ثم رايت حاجز الأسلاك الشائكة فانغرزت فى عينى الأشواك ، ورأيت غربانا سوداء تقف بينها وداخلها وفوقها ، نظرت لى ونعقت .

تشاءمت ، ولما رفعت بصرى الى المدى البعيد رايت البيوت والخضرة ، رايت الربوة العالية ، وشممت رائحة البحر .. غامت الأشياء من حولى وعدت طفلا واقفا فوق ربوة عالية تطل على البحر مباشرة ، لكننى لم اتمكن من رؤية الماء سمعت هديره ، ورايت رءوسا كثيرة تندفع وتتزاحم الى قوارب الصيد الصغيرة . غرقت بعض القوارب ، سبح من يعرف ، توالت الصرخات فصرخت انا ايضا ، ولما انسابت دموعى ساخنة وانحدرت الى البحر فارت الأمواج وعلت نافورة ماء ، واذا بالشيخ يشد لحيته .

نعقت الغربان من فوق ومن بين الأشواك فرايت الأسلاك ثانية . حملقت فيها طويلا ، ثم عدت أشم رائحة البحر .. ولما حملقت من فوق الربوة رايت الشيخ ، كانت فى عينيه حدة وحكمة ، جذب لحيته وأهال المياه فى وجوه الهاربين وزعق ان عودوا الى دياركم ، فصرخ القوم :

ـ لن نعود . انهم قادمون ، الغربان ، كالموت !

ـ عودوا لدياركم وكونوا صيادين ، فلسطين وطنكم !

ـ لن نعود . فى دير ياسين ذبحوا الرجـال وبقروا بطون الحوامل ، ووأدوا العيال وادوا العيال !!

ارتجفت ، كان عمرى ثمانى سنوات ، جريت صوب البحر . سمعت صوت أبى يغنى . تسمرت مكانى .. ساعة الغروب هى ساعة سكره تحت كرمة العنب .

نعقت الغربان بصوت قبيح . هززت رأسى . أفقت الى نفسى : وكان بيض الغربان قد فقس وراء السور الشائك فخرجت غربان أخرى صغيرة ونعقت الغربان الكبيرة . تألمت وقلت :

ـ ما كان أطيبها رائحة أرض الوطن . ما كان أجمل أصوات الأجراس والآذان وغناء أبى .

كنت أعرف ان ساعة الغروب هى ساعة سكر ابى المفضلة ، فجريت صوبه ، وكان يغنى محتضنا زجاجة الخمر ، وعندما جاءوا اختبأ خلف شجرة الكروم ، وصـوب فوهتهـا ناحيتهم وهددهم بها ، جمدوا فى اماكنهم ثم تراجعوا .

عدت انظر اليهم فادمت عينى أشواك السور . هتفت :

ـ أيتها الغربان القميئة ، انتظرى حتى يجيئك من يحطم هذه الأسوار ، ان العالم لن يسكت على هذا أبدا .

شعرت بشىء غريب يحدث فى فمى . تحسرت :

لو مازلت هناك لكنت جالسا أمام باب الدار مع الأصحاب، نتبادل النكات ، ونمسك سيرة البنات ، واأسفاه !!

تنبهت الى لسانى ، كان قد طال الى الضعف وترهل . ذعرت .. وكأن يدى أيضا قد قصرت الى النصف ثم اضمحلت!! ارتجفت : حتى انا ؟؟

***

ـ طائرها مات ، طائرنا مات .

جذب لحيته الرمادية وقال :

ـ العضو يقوى بالمراس . أريدك أن تصير صيادا حتى يعود لكم الذى لكم .

وبحثت عنه فى كل مكان ليشرح لى معنى : « التناسب العكسى » . وعندما عدت الى القوم وجدتهم يجرجرون السنتهم المتورمة ، ووجدت الهواء يعبث بأكمام جلابيبهم ويطوحها ، وقفوا محنيى الرءوس :

ـ جئنا من نسل الأنبياء ، يا رب انت على الظالم . طردنا من أرض الآباء ، يا رب اسحقهم . تعبنا من خيامنا السوداء تعبنا ..

تشنجت الألسنة فتشابكت ، وعلى حين فجأة ملأت الغربان السماء . نعقت ثم انقضت . ذعرنا . عجزنا عن الهرب . أعاقتنا السنتنا المتشابكة نهشت الغربان ، نعقت مطمئنة .

نحن بلا أيد . فقأت مئــات العيون . نعقت . ثقبت مئــات الآذان . نعقت نعقت ...

تمزقت السنتنا فتفرقنا . وجــدت أختى مفقوءة العينين مكومة على الأرض . فشهقت :

ـ انظر زانية يفعل بأختى !!

***

الشمس القوية الملتهبة . الرمال . الحرارة . الجوع . الضوء القوى . اتكأت على جارى مرهقا . فى الصباح قلنــا يا ليته مساء ، وفى المساء قلنــا يا ليته صباح ... ثم صارت الرعود والبروق ، فارتعدنا ، واذا دخــان يتصــاعد كأنه من أتون ، والصخور تتفتت والرمال تتطــاير ، واذا بسلم أوله فى باطن الأرض وسمته الى السماء ، واذا بالشيخ ـ مجهد هــذه المرة ، مرتعشــة يداه ، مشوبة لحيته الرمادية بالبياض ـ يقول :

ـ يا اغبياء . لم تفكروا أبعد من مواقع أقدامكم فضمرت عقولكم . عودوا ، فلسطين وطنكم !

لجمت السنتنا . كنا مذعورين فتركناه ، وتابعنا هروبنا ، وكانت الشمس ، وكانت الأشواك ، وكان الجفاف .. فثقلت رءوسنا ، ووهنت أقدامنا ، وتحركت الرمــال ، ولاحظت ان جارى كان يفكر عندما عاد صوت الشيخ ينذرنا :

ـ موتــا تموتون . اهربوا ولن يــكون فيــكم الا مظــلوم مغصــوب ، يخطب امرأة ورجل آخر ينــام معهــا ، يبنى بيتا

ولا يسكن فيه ، يغرس كرما ولا يشرب خمرا ، هزأة فى جميع الشعوب يكون .

بدا جارى مفكرا ، ثم تردد ، وفجأة قال : « انى عائد » . وعلى الفور حدث أمر غريب جدا فقد بدأ لسانه يقصر ويداه تطولان . أردت ان اندهش وان احادثه لكنه نفذ ما قاله وعاد ، وعاد لسانه وعادت يداه الى الطول الطبيعى ، وتابعنا نحن هروبنا ، وصوت الشيخ أشد عنفا من حرارة الشمس :

ــ كيف يطرد واحد الفا ، ويهزم اثنان ربوة ؟ !

فتذكرت ابى الذى كان واقفا فى مركز نصف دائرة فى الفوهات الشريرة عندما انهال عليه وابل الرصاص ، فتراقص من الألم ، وكان يحب الرقص ــ ثم تذكرت أختى وفكرت فى جارى الذى عاد ، ووجدت نفسى أستدير عائدا ــ وبعد أن انصرفت الفوهات وساد الصمت تسللت هابطا الى شجرة الكروم : كان ابى فى بركة من الدماء والخمر ، نظرت الى عنبها فوجدته حصرما والى أوراقها فوجدتها مثقوبة من فعل الرصاصات الصهيونية .

ــ وليكن هذا آخر قولى لكم : كونوا صيادين ليعود لكم الذى لكم .. فالعضو يقوى بالمراس . اقتلوا الغربان تعد لكم طيوركم الوردية ...

وعندما تسللنا عائدين قصرت ألسنتنا ، وانتشرنا فى الجبال والمدن والنجوع ، طالت أيدينا واستردت قوتها حتى أصبح فى مقدورها أن تحمل القنبلة والصاروخ .

١٩٦٧

كل الأنهـار

... وعندئذ يرى أن خياله ينعكس مرات لا حصر لها ، يحاول عدها فيفشل ، عددها مثل عدد نجوم السماء أو مثل عدد حبات الرمال . ولكن من وضـع المرآتين فى حالة تواز ؟؟ لابد انها زوجته ، فقد كانت تنظفهما فى الصباح عندما سألته :

ـ هل تذكرت ذلك الرجل ؟؟

رفع عينيه عن الجريدة ونظر اليها فى تراخ وكسل :

ـ أى رجل ؟؟

ـ الجالس عند البحر دائما ، عند اللسان ، ذلك الذى غرق ولده .

ـ غرق ولده ؟؟

ـ اختفى ولده ، فقد فى البحر منذ سنوات .

ـ كـلا ..

ولكن الهواء اللزج يضـايقنى ، أزعجتنى بكثرة أسـئلتها عندما كانت صغيرة ، أما الآن فقد بدأت الأعوام ترهقها .

لكن ابنه التصق به فى الصباح وسأله :

ـ بابا ، كم عدد السموات ؟؟

ـ اخرج واحسب عددها .

ـ جدى قال انها « شبعة » .

ـ تقصد سبعة ؟ !

ـ جدى نطقها هكذا « شبعة » قـال ان عدد السموات « شـبعة » .

ـ هو قال هذا الكلام ؟؟

ـ نعم ، ألم تكن تعلم ؟ !

ـ لم أكن أعلم .

ولكن هذه الذقن يجب أن أنتهى من حلاقتها ، كان أجدادنا قوما عقـلاء ، لم تكن تخجلهم لحاهم ، أما اليوم فيالها من مهمة ثقيلة حلاقة هذا الذقن .

يحملق فى المرآة ، يقترب منها ويبتعد .

(ويكون جسـده عاريا تماما ، ولحيتـه طويلة ، ويصرخ بصرخـة ابن الغاب ، ثم يهجم على النمر ويقتله ويسلخ جـلده ويستر به عورته ، ولو لم يقتله لما ستر عورته) .

ويتأمل شعره طويلا . بدأ المشيب يغزوه . وينظر الى عينيه السوداوين :

ـ آه من عينيـك يا حبيبى ! ليل طويل رقيـق أريد أن أكشف خباياه ..

ـ أما انت يا حبيبتى فزرقة عينيك تخلب الألباب .

ـ بعد سنوات تمل رؤيتهما .

ـ لن يحدث ذلك ، ولا بعد ألف عام .

ـ ألف عـام ؟؟

ـ مليون .. فزرقتهما بحر عميق لا نهاية له ولا قرار .

أكان ذلك بالأمس ، أم منـذ لحظـات أم منـذ مـلايين السنين ؟؟ بحر عميق بلا قرار بدأت شطآنه تتجعد ، آه من هذه السنين !! آه من هذه الانعكاسات !! كم خيالا ؟ ألف خيـال ؟ مائة ألف ؟ مليون ؟؟

ـ وكم عدد الأرضين ؟؟

ـ لا أعـلم !

وسعلت البنت مقلدة جدها :

ـ جدى قال انها « سبعة » أيضا !

ـ حقـا !!

ـ وقال ان تحت الأرض السابعة صخرة مجوفة يحملها ملاك يقف فوق ظهـر ثور ، والثور فـوق ظهر حوت يسبح فى ماء ، والمـاء يحمله الريح ، والريح يحمله هواء وظلمة ...

ـ يا سلام !! وماذا تحت هذا الهواء وهذه الظلمة ؟ !

ـ جدى قال : هنا ينتهى علمى ، ولكن ألم تكن تعرف كل ذلك ؟؟

ـ جدك أدرى منى بهذه الأمور .

يضيف مزيدا من الرغوات ، ويمسك بالماكينة ليبدأ الحلاقة، سبع سموات وسبع أرضين والأسبوع سبعة أيام : لكل يوم سماء وأرض ، هذا هو ما يقصده الجد .

ثم أوضحت الزوجة قائلة :

ـ ذلك الرجل الذى اختفى ولده ومازال ينتظر عودته أمام البحر ، لقد افزعنى بنظراته !

فتهتز يده ، والشفرة جديدة ، وأف من هذا الجو !!

(وتسير مركبة الفضاء فى طريقها المرسوم صوب القمر ، فيرى أن الأرض كرة صغيرة ويرى البحر فى أسفلها ومع ذلك لا تتساقط مياهه ، ويدهشه أن النيل ياتى بمياهه من أواسط افريقيا لتتوه فى زرفة البحر الهادر !!)

واخذوا يقلقوننى باسئلتهم :

ـ بابا كيف يلتقى النيل بالبحر ؟؟

ـ بابا كيف تختلط مياه النيل بمياه البحر ؟؟

وعندما أخذتهم الى هناك شعروا بخيبة الأمل ، وأرادوا العودة سريعا للفرجة على التليفزيون . وقالت الزوجة : الأولاد لهم عذرهم : انا أيضا كنت أتوقع أن يكون اصطدام مياه النيل

بالبحر اصطداما فائرا ، ولكنــه كان كالتقــاء عاشقين ســئم أحدهما الآخر !!

تحدث نقطـة حمراء فوق رغوات الصـابون . ويا له من تشبيه !! فالنيل فى نهايـة رحلته يكون مجهداً لاهثـا . ولكن ذلك لا يمنع القطرات الأخرى من أن تحاول نفس المحاولة لتذوب فى البحر . **وقالت ان عينى سـوداء كليل رقيق وقلت أن عينيهـا زرقاوان كبحر بلا قرار .**

(وتسير مركبة الفضاء فى طريقها المرسوم صوب القمر ، غير ان خطأ ما فى الحساب يجعلها تنحرف ناحية الشمس بسرعة رهيبـة . وهنـاك يرى أن الشـمس كتلة من اللهب فيحترق فيها .. ويسأله المراسل الصحفى :

ـ بصفتك أول من غزا كوكب الشمس : ما رأيك فى الطقس هنـاك ؟؟ ولمـاذا قمت برحلتك هـذه ؟؟ ولمـاذا قمت برحلتك هـذه ؟؟

فقالت الزوجة موضحة :

ـ ذلك الرجل الجالس عند البحر دائما ، عند اللسـان ، لا يرفع نظره عن الموج فى انتظار ولده !!

وسألته ابنته :

ـ وماذا يوجد فى الأرض السابعة ؟؟

(فيأخذ صاروخـه الذى فى لون قوس قزح ويطير الى سيبريا ويسأل العلماء الروس هناك :

ـ لماذا تريدون حفر بئر الى مركز الأرض ؟؟

فيرد مندوب الحزب بصوت جهورى :

ـ من اجل حياة افضل لجماهير قوى شعبنا العامل من الشغيلة والفلاحين والجنود والمثقفين الثوريين ، فى سبيل حزبنا العظيم وحكومتنا الرشيدة .

غير ان رئيس العلماء .. يهمس له جانبا :

ـ نحن نامل ان نجد هناك نوعا افضل من الفودكا !

فيسيل خط احمر فوق رغوة الصابون . أف من الحر والرطوبة واعصابي المرهقة ، وخيالى الذى مازال ينعكس بلايين المرات . وزوجتى التى قالت :

ـ ذلك الرجل الذى طال شعر راسه وذقنه وشاب وغزت التجاعيد وجهه ، وهو مازال ينتظر ولده أمام البحر !!

(ثم يطير فى صاروخه الذى فى لون قوس قزح الى القطب الشمالى حيث يجيبه المتحدث الرسمى باسم العلماء الأمريكيين هناك :

ـ نحفر بئرا حتى مركز الأرض كى نملأ الفراغ هناك ، ونمنع انتشار المبادىء الهدامة .

غير ان رئيس العلماء يهمس له جانبا :

ـ من المؤكد أن البترول فى مركز الأرض يوجد بكميات غزيرة ، وربما وجدنا الذهب ، فهل تريد حجز كتلة أرض هناك بأسعار رخيصة ، وبالتقسيط المريح طويل الأجل ؟؟)

ولكنها لم تعد تنظر الى عينى ، ولم تعد تقول انهما : ليل طويل أريد أن أكشف خباياه !! افهل كشفت خبايا عينى ؟؟

أم أنها فقدت الرغبـة فى الاكتشاف وانشغلت عنى بالأولاد ؟؟ أو شغلها الأولاد بأسئلتهم ؟؟ ثم أوضحت قائلة :

(شفراتنا مصنوعة من الصلب الممتاز النقى ، تجعل الحلاقة ناعمة سهلة ممتعة ، وأعلنت نقابة الحلاقين انه ما دامت الجروح يقل عددها عن الأربعين فليس من حق الزبون أن يطـالب بأية تعويضات مادية) .

ثم أوضحت قائلة :

ـ كيف لا تذكره ؟؟ طويل فارع ، نظراته غريبة نفاذة ، صمد للحر والبرد وهو مازال ينتظر عودة ولده أمام البحر ؟؟

ويسير محاذيا النهر حتي البحر ، فيجد الفنار مرسـلا ضوءه الى ما لا نهاية ، والعيال يلعبون من حوله . وكان الرجل يجلس بعيدا عن الناس بشـعره المسترسل ولحيتـه الطويلة البيضاء ، والمصطافون لا يلحظونه ، يحضرون وينصرفون وهو جالس لا يرفع بصره عن أمواج البحر .

يقول له :

ـ كأنك تحصى الموجات ، كم عددها ؟؟

ـ اين الأولاد ؟؟ وأين جدهم ؟؟

ـ وهل تذكرهم ؟؟

ـ جئت بهم المرة المـاضية ، غير ان أمهم جذبتهم بعيدا عني !!

ـ خافت من نظراتك اليهم وقالت انك كنت تشتهيهم !! . انهم الآن حول جـدهم الذى أصبحت هوايته بناء أهرامات من الرمال ، والذى كره حرف السين فلم يعد ينطقه .

ولم يعد غير الشارب ، وان كانت الذقن قد ذبحت تماما وصبغت باللون الأحمر . ان كانت الشفر قديمة آلمت البشرة ، وان كانت جديدة ملأت الذقن بالجروح .. ولا توجد نسمة هواء واحدة !

ـ وهل حدثك الموج عن ولدك الغريق ؟؟

ـ ذات ليلة سيرتفع ماء البحر فى ليلة قمرية ويحدثنى همسا ان ولدى لم يغرق .. فهو لا يغرق .

الصوت مرتعش مبحوح لكنه ينفذ الى القلب ويسرى مع الدم الى الراس :

ـ ... كانت لنا مركب لنقل المصطافين ، وكان يفرد القلع او يلمه . وكنت اجلس الى الدفة ، ولم أسمح له بالاقتراب منها ، كنا كلما اقتربنا من راس البر وراى اللسان حيث يلتقى النيل بالبحر الكبير نظر الى يدى على الدفة وسأل : « لماذا تكون هنا نهاية الرحلة ؟؟ ماذا يوجد فى البحر الكبير ؟ » . وقلت له ان البحر مخيف ، لكنه غافلنى ذات يوم ، وكنت على اليابسة ، وفك المركب وأقلع بها ، وحول الدفة متوجها الى البحر الكبير !! وناديته : « عد .. عد ، المركب صغير والبحر كبير » ، لكنه لم يستمع لندائى . وحملته الأمواج وجلجل البحر هادرا ، ومن يومها لم أره ، وانا الآن انتظر ليجيبنى عن سؤال عجيب يحيرنى . ذهب ليعرف ، وانا أريد أن أعرف ما عرفه !

ـ وكم تظن عدد قطرات الموج ؟؟

ـ كعدد نجوم السماء ..

ـ وكم عدد نجو السماء ؟؟

ــ وكم عدد نجو السماء ؟؟

وكم عــدد الشــعرات فى رءوس النــاس ؟؟ (وكم عــدد انعكاسات صورتى فى مرآتين متوازيتين ؟؟)

ــ مثل عدد قطرات الموج ..

ــ عدنا للبدء !

ــ نعم . ولكن الســؤال الذى يحيرنى : لمــاذا لا يمتلىء البحر ؟؟ فمنذ بدء الخليقة والأمطــار تهبط فوق الجبال لتنحدر هادره الى الأنهار ، ومنذ بدء الخليقة وهــذه الأنهار تصب فى البحر ، لكنه لا يمتلىء ولا يزداد حجمه ! فقط ترتفع مياهــه استجابة لنداءة القمر ، ويدعوه ان اقترب منى فيرتفع ســطح المــاء ويسيح على الشطآن ، ومتى غاب القمر عــاد كما هو ، مهما كثرت الأنهار وغزرت المياه الصابة فيه !!

يجفف ذقنــه فتمتلىء الفوطة بالبقع الحمراء . وعنــدما اشيخ وتتساقط أسنانى سأكره حرف الســين مثل جدهم . وينظر الى انعكاسات خياله فيضحك : وأيضا كل هذه الذقون مجروحــة مثل ذقنى !! فكم عدد الجروح اذن ؟؟ ولكن هــذا السؤال فرغت من اجابته على ما أظن ، أم ترى أننى لم أفعل !!

(سبع سموات وسبع ارضين والأسبوع سبعة أيام ، لكل يوم سماء وأرض . ولو لم يقتل النهر لما ستر عورته) .

كل الرجال .. كل النساء

سمعت الأصوات .. باب الشقة مفتوح ـ الكتاب في يدى اليمنى ـ وقفت عند المدخل : الصالة ، السفرة منزاحة جانبا ، سواد ، مناديل بيضاء في الأيدى ، عيون تنظر الى حواف المناديل سوداء ، النساء .. صورة المسيح مصلوبا ، مصمصة ، العيون تنظر ، والعذراء تبكى تحت الصليب .

تلفت يمينا : باب حجرة أمى مغلق بالمفتاح والأكرة مكسورة السواد .. الباب أبيض ، أين أمى ؟ .. وجه امرأة تضغط جفنيها بشدة .. رأس المسيح بين الأشواك .. النظرات تأتينى من كل ناحية .. الباب الأبيض ، أمى .. تقدمت اليه .. لم تنزل دموعى .. ولكن أين أبى ؟ ألم يخبروه ؟ ! .. مصمصات :
ـ شد حيلك يا حبيبى .

الكتابة فوق الباب الأبيض بالرصاص : « نبيل بطل العالم ، نبيل معبود الجماهير عاشت ج.ع.م. »

ــ يا نبيل يا مكسور الرقبــة قلت لك ألف مرة : لا تكتب فوق الأبواب والجدران .

نقلت الكتب الى يدى اليسرى ، لمست الأكرة المكســورة ــ النظرات ــ أدرت المفتاح ــ عيون ، شهقات ــ بدأت أزيح الباب . شممت رائحة كولونيا نفاذة .. شعرت بيدين تمسكاننى، تجذباننى بعيداً . دفعت الجسد ، رأيت طرف رداء أسود وعروقا نافرة فوق الكفين :

ــ تعال يا حبيبى ، شد حيلك .

دفعتها بيدى . جذبتنى . دفعتها ، دفعت الباب : الحجرة مضاءة ؛ الدولاب ــ كرهت الرائحة . هدوء ــ المرآة المشروخة :

ــ كسرتها يا مكســور الرقبــة . مرآة بلجيكى من أيام دخلتى !!

دخلت الحجرة : النافذة مغلقة بالشيش ، المصباح مضاء . الحائط ، مسمار ، برواز ، والمسيح يقوم منتصرا على الموت . السرير ، نائمة فوقه مغطاة بالكوفرتة الحمراء ، توقعتها ملاءة بيضاء .. صوت أقدام بجوارى ، صوت ضلفة الباب المغلقــة تهتز ، سمعتها . الكوفرتة منسابة فوقها ، اليدان فوق الصدر ، لابد . الرأس مغطى . الأنف بارز ، سينكتم تنفسها .

اقتربت ، المسيح فوق السحابة بين الملائكة ــ شهقات ــ حراس القبر مندهشــون ، الشهقات . مددت يدى لأســحب الكوفرتة ، التصقت امرأة بظهرى وسحبتنى يداها الى الخلف . استدرت ، رأيت سوادا ، شممت رائحــة النفتالين النفــاذة ، اهتاجت الدموع فى عينى . سرت خطوتين . لابد أنها مغمضة

العينين تحت الكوفرتة (انفلت وعدت وشددت الكوفرتة فرأيت الوجه ، كان مبتسما ـ سمعت بكاء ـ العينان مسبلتان ، كما توقعت .. تبتسم ـ سمعت البكاء ـ ليست ابتسامة كاملة ، شروع بداية ابتسامة) . الوجه مختف ، الأنف مرتفع ، سينكتم تنفسها !!

استدرت . ضممت جفونى بشدة ، ابتلت رموشى ولم تنزل دمعتان فوق الخدين ! .. السواد . الحائط ، رسوم يابانية لنساء فى الحمام .. خرجت من الباب الأبيض .. **« يا مكسور الرقبة »** .

الصالة . السفرة . السواد عند الجدران ، الأهل ، جارتنا ، بعض قريباتنا من القرية وصلوا قبلى ، لماذا لا أبكى ؟!

ـ فلكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار .

طرقات على باب الفصل :

ـ ومضاد له فى الاتجاه .

الباب يفتح ..

ـ قيام .. جلوس .

ـ نبيل حنا يأتى .

ناظر المدرسة بنفسه !! ـ قوانين نيوتن ـ وجهه حزين ، اندهشت . لم ارتكب أى خطأ نقلت السطر الأخير من على السبورة .. « ق = ك × ج » سعل مرتين :

ـ احضر كتبك معك ..

يريد أن يفصلنى !! ربما بسبب هروبى من حصة الاحياء ، لا أحب العبث فى احشاء الضفادع .

ـ اذهب الى البيت ، والدك يريدك .

كلمنى فى اسى فتوقعت .. نظر فى عطف فخمنت وارتبكت .. ولما صعدت السلم سمعت ورأيت السواد .

ـ أين أبى ؟؟

ـ ذهب مع أخيك الأكبر لعمل اللازم .

ـ وميشيل ؟؟

ـ قال أبوك دعوا الولد الأصغر فى مدرسته ، ولا داعى لازعاجه مبكرا .

كانت تحبه .

باب حجرتى .. حجرتى .. سريرى .. مكتبى الصغير ، القمصان ، النافذة .. النافذة المقابلة مفتوحة ، هل عادت « سناء » ؟؟ بالطبع لا ، ما زالت فى مدرستها .. جلست على حافة السرير .. أصوات النسوة ـ تعديد ـ ماذا ستفعل سناء عندما تعلم ؟؟ لم ترد على اشاراتى لها أبدا ، تقف تحملق فى ، أحييها وابتسم لها لكنها لا ترد ولا تخفض عينيها عنى ، نظرتها ثابتة لا ترف ! .. بكاء النسوة ، صوت المعددة :

ـ كنت زهرة وقطفك الموت بدرى يا أختى .

خلعت البلوفر . ارتديت الجاكتة . ليست عندى كرافتة سوداء !! وحتى الآن لم أبك ، ضغطت جفونى بشدة .

ارتفع صوت المعددة ــ فجـأة ! ــ زاد صراخ النسوة . اندهشت ، ميزت صوت خالى فهمت : يرحبون بكبير العائلة ، خال امى ، كلنا نقول له خالى ، أبى يقول خالى ، وامى واخوتى وأنا نقول خالى ، بانى مدفنة الأسرة .. ضحك أبى وقال :

« هذا الرجل سيدفن العائلة كلها ولن يموت .. »

سمعت خالى :

ــ ألم يعد حنا حتى الآن ؟؟

ــ لا ..

ــ أحضرت المفتاح ، مفتاح القفل الجديد ، كسر اللصوص القفل القديم وسرقوا أسنان المرحوم وليم الذهبية ، فاشتريت قفلا جديدا « بيل » انجليزى أصلى . لا أدرى ماذا كانت ستفعل العائلة بدونى ؟ !

ــ ربنا يعطيك طولة العمر .

« هذا الرجل دفن ثلاثة من اولاده واحدى حفيداته وعمك واخاه .. ومن المؤكد انه سيدفننى كذلك .. »

ثم ضحك أبى .. ابتسمت .. خطوات خـالى الحـادة تقترب ، دائمـا يركب حديدة فى كعب حـذائه حتى لا يتـآكل بسرعة .. الباب ، وقف عنده :

ــ انت يا ولد قاعد هنا بدون عمل ؟ ! انزل لتقف مع عمال الفراشة ، ولا تدعهم يفرشون سجاجيد جربانة أو يرصـون مقاعد قديمة .

* * *

انعكاسات صفراء .. برقت آلات النفخ النحاسية تحت أشعة الشمس ، اقترب الأولاد فى صفين : زيهم موحد ، رمادى فى حوافه شريط أحمر .. « ملجأ الأيتام القبطى الخيرى » . جلسوا تحت السرادق . ابتسمت لهم ، لم يبتسموا ، عودتهم على عدم الضحك فى مثل هذه الظروف . تأملتهم : زرايرهم نحاسية لامعة أيضا ، وضعوا الآلات فوق السجادة أسفلهم ، ولد أشقر وولد أحول والسادس عروقه نافرة من نفخ آلته الكبيرة ، والآخرون منظرهم عادى .. أيتام ! .

الفراشة حمراء ، الزخرف أبيض عربى الطراز ملىء بالدوائر المتداخلة .. « فراشة حسن عبد السلام » . الشارع .. الشمس .. عمود النور .. الحائط .. « حاليا بسينما بالاس الكبرى .. » افريز الحائط فى ركنه عش الزنانير الطينى ، حطمته فهاجرت الزنانير .. « ممنوع لصق الاعلانات » .. « حاليا بسينما بالاس الكبرى بالمنيا » .. كيف لا أبكى ؟ !

ــ ابنك نبيل خرج الساعة السادسة ولم يعد الا فى التاسعة والنصف ، ومن المؤكد انه ذهب الى السينما .

فلما عدت سألنى :

ــ أين كنت ؟

ــ اذاكر مع صاحبى حمدى ..

ــ كذاب .. أين كنت ؟؟

ــ لست كاذبا ..

ــ امك تقول انك كنت فى السينما ..

ـ كنت أذاكر مع حمدى ..

ـ اسمع يابنى الذى يحمل قربة مخروقة تخر عليه ..

ـ والله العظيم ما دخلت السينما .

ـ أمك تقول انك كنت فى السينما ..

ـ .. ..

ـ اسمع يابنى .. انا ابوك وتهمنى مصلحتك .. ذاكر وفى الاجازة تفضى للسينما .

الكرافتة السوداء فى عنق أخى الأكبر ، علب سجاير كبيرة فوق المنضدة الصغيرة .

سأل عن العربة وعن أبينا القسيس ، سأل عن « مشمش ». لم يرجع بعد .

قالت أمى :

ـ كن انت عاقلا فمشمش هو الأصغر واعطه القلم .

يبدو انه كان يبكى ، أخى الأكبر ، لكننى لم أبك ، حتى الآن !!

أصبع ابى أشار الى ، فمه :

ـ اسمع يا نبيل ، كن متماسكا أمام مشمش عندما يأتى ، انت الآن رجل كبير .

انفجرت صرخات محمومة ، جرس الكنيسة يدق من بعيد ، شرفة البيت وسواد النسوة .. ثلاث دقات بطيئة ثم برهة

صمت .. المناديل بحوافها السوداء .. « مع السلامة غالية يا غالية » .. حركة فى الشارع .. بكاء ، دقة .. صراخ ، دقة ثانية .. عويل ، دقة ثالثة .. الأولاد فى صفين .. « والله فراقك مر يا حبيبة » .. الرجال يقفون .. يصطفون خلف العربة .. خيول العربة تصهل ، أربعة ستة ثمانية ، ثمانية أحصنة .. والعربة مذهبة كثيرة الزجاج .. الجرس يدق .

باب البيت : صندوق خشبى فوق أكتاف رجال أربعة .. الصراخ يعلو ، امرأة تشد شعرها .. الصندوق ، الشرفات ، عيال ونساء ورجال نظروا .. الصندوق .. العيون نظرت .. سحبنى خالى الى الأمام : الصندوق يدخل العربة .. القسيس امامنا .. خالى ، أبى أخى الأكبر .. أنا .. والناس .. شرفة سناء ما زالت فى المدرسة .. ترى ماذا ستفعل عندما تعرف ؟ .. حزنت ، حتى الآن لم أبك !

آلات العزف فى الأفواه . « بساط الزحمة » يمسكه أربعة رجال - العربة تحركت - كل رجل فى طرف .. نفخت الأفواه باللحن الرتيب بالايقاع المنتظم .. سرنا .. من شارع الى الميدان .. الدكاكين تغلق نصف غلقة ، الجالس يقف ، يحترمون الصندوق المطل من العربة بين الملاكين الخشبيين ، السيارات تأخذ جانب الطريق .. أدرت رأسى : الحشد زاد - صوت الجرس - بالتأكيد ما زال فى المدرسة صاحبى عزت ، يا ليته بجوارى الآن ! . العيون .. هل سأذهب غدا الى المدرسة ؟؟ . أبطأت العربة لحظات ثم سارت ، نظرت الى الأرض : عجلات العربة ، روث الخيل فوق الأرض ساخن ، بعض بخار الماء

يتصاعد منه .. اعتقد أنني سوف لا أذهب الى المدرسة غدا ، لكن عزت سيذهب ، وسناء أيضا .

***

الصندوق أمام الهيكل .. القداس .. وقفنا جميعا .. ظهر القسيس لنا :

ـ لأنه لا يبقى الا العمل الصالح .

باب الهيكل ، ستائر من القطيفة الزرقاء ، اللوحات الزيتية :

ـ .. ويذهب الانسان لكن ذكراه العطرة تدوم ..

« مارى جرجس » ممسك بالسيف ، المسيح يقوم من الموت .. سعلات رجال .. الملاك ميخائيل له جناحان يطير فى السماء .. الصندوق .. فم القسيس .. البخور يتصاعد متكاثفا ثم يتخلخل ..

قالت أمى :

ـ أسرع يا نبيل ، لابد ان نذهب جميعا الى فرح ابنة عمك فى الكنيسة ..

وكان التاج فوق رأس العريس وفوق رأس ابنة عمى ، وامال كل منهما رأسه فالتصقا وزغردت كل النساء ، وقال القسيس منبها على العروس : « أطيعى زوجك ، وكونى عونه فى السراء والضراء » فضحك كل الرجال ، وقال : « ان ما يربطه الله لا يفرقه الا الموت » .

الشريط الأسود .. بكاء أخي الأكبر .. ضغطت جفوني بشدة ..

وفى المساء قالت أمي :

ـ شد حيلك يا نبيل وذاكر لتاخذ الشهادة الكبيرة من الجامعة وازوجك بنت حلوة من عائلة مستورة .

(والتصق التاج فوق راس سناء بتاجي وقال لها القسيس: « ما ربطه الله لا يفرقه الا الموت » ..) فشاهدت سرير أمي وروحها قرب النافذة وشممت رائحة الكولونيا النفاذة .. ولما نظرت الى صورة اليابانيات العاريات فى الحمام ، أشار أبى اليها وقال :

ـ اشتريتها من قبل ان تولد انت وكانت امك ما زالت شابة جميلة ..

يدورون بالبخور حول الصندوق ـ الجرس مستمر ـ الشريط الأسود .. المسيح مصلوب هنا وعندنا فى الصالة كذلك .. حيث علق أبى فى الحائط المقابل آية : « ان الله على كل شيء قدير » .

ـ أتعلق آية المسلمين ؟ !

ـ أعجبنى المعنى ، وانا لست متعصبا .

ـ ولكنها آية المسلمين ؟

البخور .. الدقات النحاسية .

ـ ليس كل المسلمين اشرارا ، منهم من هم اكثر طيبة من المسيحيين ..

القسيس . المبخرة تتأرجح .. الصليب فى يده :

ــ ... وقو يا ربنا أهلها بالصبر والسلوان ..

حركة .. خرج الصندوق .. خرجنا .. ربتت كف على كتفى :

ــ شد حيلك .

لم أعرف الرد .. هززت رأسى .. صوت الجرس يعلو أكثر حماسا .

* * *

« محلات بشرى وفخرى » .. « جنة رضوان للملبوسات الفاخرة » .. « شارع التجارة » . الزحام . تعبت قدماى الطريق طويل ينتهى عند النيل ، عند « موردة الحنش » .. القسيس والموسيقى والملاكان المذهبان لم يطيرا بعد برغم أن جناحيهما مفرودان . الصندوق .. الدقات الرتيبة ..

ــ الله أكبر .. الله أكبر ..

ما هذا ؟ ! نظرت حولى .. سمعت همهمات .. التفت : العدد الكبير من خلفنا .. ثم .. ثم .. نعش آخر ، مسلم أو مسلمة فى الخشبة ، ميت أو ميتة يسيرون خلفنا والشارع ضيق ..

ــ الله أكبر .. الله أكبر ..

التفت ثانية : فى أعلى الخشبة طربوش ــ رجل ــ يرحمه الله .. يد تهزنى .. دقات الطبلة الكبيرة تشتد .. صوت

الجنازة الخلفية ارتفع .. زعقت الآلات النحاسية بصوت أعلى قويت ترتيلات المسلمين .. اليد تهزني .. طفل .. نظر :

ـ يا عم .. يا عم .. من مات ؟ من مات ؟

من مات ؟ .. هي .. هي التي .. غصة في حلقي ، بدات عيناي تغرورقان .. سمعت صوتا بشخط :

ـ امش يا ولد .. امش .

الغصة .. لكن ما هذا ؟ ! .. ترتيلات المسلمين تسرع تلهث ثم بدءوا يشقون طريقهم من فوق الرصيف ، مسرعين جريا ، لاهثين ركضا .. عجيبة !! سبقونا .. سبقوا الصندوق والعربة والخيل .. ثم هدءوا وابتعدوا وعادت رتابة أصواتهم ..

ـ ما الحكاية ؟

صوت خالي :

ـ لا يريدون أن يسبق ميتهم ترتيل النصاري ، ولا أن يسير أمامه صليب القسيس .

دهشت ، احسست بالدهشة . أسرع خالي واقترب من سائق العربة :

ـ بسرعة يا ريس بسرعة ؛ الحق بهم واسبقهم ..

تقدم أبي :

ـ لا داعي يا خالي ، لا داعي .

ـ لا يصح أن تسير بنت أختي من خلفهم حتى ولو كانت زوجتك ، بسرعة يا ريس بسرعة .

النيل .. « موردة الحنش » .. رفاص البلدية ، دخل الصندوق فوق المركب .. وقفنا فى صف بدأ بأبى ثم خالى وانتهى بعم جابر ، وانصرفت الموسيقى والقسيس وبعض الناس ، وركب البعض مع الصندوق - دليل الاعزاز - أكثر من مائة .. صعدنا الرفاص .. كان المسلمون قد سبقونا وجلسوا صامتين ، نظرت لهم ، التفت الى البر الى المدينة .. نظرت لهم ثانية : أعرف فيهم حسن ، اقترب :

- البقية فى حياتك .

- عشت .

مياه النيل تندفع الى الخلف ، اللنش يسير الى الأمام - **لكل فعل رد فعل** - الشمس ، الجبل هناك والمنيا فى الخلف - **مساو له فى المقدار** - الأحياء غرب النيل والأموات فى شرقه .. صوت خالى - **ومضاد له فى الاتجاه** - خالى :

- بنيت هذا المدفن منذ ٢٤ سنة .. أيام الرخص ولم أبخل به على عزيز من العائلة .

المنيا تبتعد .. صوت الرفاص ، الماكينة .. بكاء أخى الأكبر - البكر - صوت خالى :

فى كل عيد أعبر النيل الى الشرق وأدخل المدفن أصلى على أرواح أحبائنا هناك .

تل المقطم يقترب .. يعلو ..

- فى العيد الصغير منذ أربع سنوات رصصت صناديق الرجال فى جانب وصناديق السيدات فى الجانب الآخر ، وكان منظرهم جميلا !!

« هذا الرجل هو دافن العائلة »

ـ وفى العيد الصغير منذ أسابيع وجدت أن المكان مزدحم فنقلت رفات كل الرجال فى صندوق واحد وأخرجت البـاقى ، كذلك فعلت مع السيدات .

النيل ، المنيا صفرت بيوتها مآذنهـا أجراسـها .. كف الجرس ، ربما لا أسمعه لبعد المسافة .. مقدمة اللنش تشق المياه نصفين . « **كل رجال العائلة فى صندوق واحد على جانب** ». قرية « سوادة » ظهرت فى حضن الجبل ـ « **وكل السيدات فى صندوق آخر على الجـانب الثـانى** » . صـوت عم جـابر . ذكرياته عن السودان وجنادل النيل والنيل الأزرق وأحيانا عن السودانيات الجميلات ! . ابتسمت ، لم أبتسم .. أقارب المسلم يجهشون بالبـكاء .. أبكى ، لم أبك ! . أخى الأكبر احمرت عيناه ، الا أنا ـ البر يأتى الينا ـ لكنى أحبهـا ـ نحن ندخـل البر ـ احبت مشمش لانه آخـر العنقود .. لكنى أحبها .. خذلتنى الدموع !!

دخلنا البر ، التصق بنا .. هبطوا ، هبطت .. لم يهبط المسلمون ، مقابرهم فى الموردة التالية فى « زاوية سلطان » .. الصـندوق فوق الرجـال ، الرجـال يدوسـون فوق التراب والصخور . اللنش يتابع سيره جنوبا .. التراب ..

* * *

تل المقطم .. أزقة ترتفع صاعدة بين البيوت والجحور ، عيال يستمرون فى لعبهم ، اعتـادوا قدوم الغرباء بالصـناديق وعودتهم دونهـا ، تبعنا بعض الشحاذين ، دخلنـا حارة ســد عبرناها ، فى آخرهـا ممر ضيق .. صـعدنا ـ على بعد عدة

كيلو مترات قرية تونة الجبل ـ تعب خالى ، وقف أمام أحد الأكواخ لاهثا :

ـ سأنتظركم هنا ، تعبت .

تابعنا ، صعدنا .. دخلنا فى زقاق آخر ـ فى حضن وفى بطن الجبل بنوا تونة الجبل للخالدين ـ «مقابر أسرة نجيب باسيلى» .. سرنا .. «مدافن عائلة كامل عياد» .. تابعنا .. «المجد لله فى الأعالى» .. صعدنا .. «مقبرة عائلة ...» : أخيراً ها نحن .. نهاية المشوار .

اسم خالى ، وباب حديدى ، الصليب بالطلاء الأبيض فوقه .. الصخور .. وضعوا الصندوق على الأرض .. التعب .. المفتاح فى يد عم جابر ، تقدم وأمسك القفل ـ **يبل انجليزى أصلى** ـ التعب ، تنحنح :

ـ باسم الله ..

أدار المفتاح ، عاكسه ..

ـ صدىء القفل .

تقدم رجل من أهل القرية ، أخرج المفتاح وبلله بريقه ثم فتح الباب الحديدى .. نظرت ، شممت رائحة غريبة ، هل بالداخل عظام ودود ؟ ! ـ **«صندوق لكل النساء ، وصندوق لكل الرجال»** ـ حملقت فى فتحة الباب .. ظلام ظلام .

ـ باسم الصليب .

ثم دخل عم جابر ، وقف ثوانى حتى تتعود عيناه على الظلام ، دخل معه رجل آخر .. استدار ، اقتربوا بالصندوق ، دفعوه اليهما فسحباه ، دخل الصندوق ـ الآن صندوقان

للسيدات فى جانب وصندوق واحد للرجال ـ ظلام .. بكاء أخى يرتفع - أبى يضغط على نواجذه بشدة ، هز راسه فى عنف ، غارت تجاعيده ،الظلام : أطل عم جابر منه ، ناولوه موسى ، دخل ثانية .. الظــلام مرة أخرى .. نظرت الى جارى ، ربت على كتفى .

ـ ليمزق الكفن الحريرى حتى لا يسرقه اللصوص .

ابى تتحرك شفتاه فى تمتمة غير مسموعة .. وأنا ؟ ! .. يجب أن أقول شيئا ، هل أصلى ؟ ! . يجب ان ابكى ، لابد .. صوت جارى :

ـ اللصوص هنا لا يراعون حرمة الميت ، فى الشتاء يسرقون الصناديق ويستدفئون بحرق خشبها !!

فتحة الظلام .. حملقت (رأيت الدود والعظام ، ثم رأيته بمنجله يحملق نحوى ، رأسه جمجمة .. عزرائيل) .. تراجعت خطوة ، لو عزت بجانبى الآن (المنجل بثلاثة رءوس .. تحرك تخلخلت عظامه ، اصطكت أسنانه) .. شهقت ، لو عزت معى ، وجه سناء (رأيت دودة كبيرة ممسكة فى فمها بلسان إنسان) .. كدت أسقط ، امسكنى رجل (ودودة تلتهم عين إحد أقربائى ! وعشرات الدود حول قلب صامت !!) ترنحت .

ـ شد حيلك يابنى ، شد حيلك .

وجه أمى ، عزت .. الظلام : خرج منه الرجل ثم عم جابر ، أمسكا الباب الحديدى (رأيت الملاكين ، المسيح فوق السحابة صعد ، ارتفع) سدا باب الفتحة ، الصليب بالطلاء ، القفل .. اختنق أبى :

ـ مع السلامة ، مع السلامة ، مع السلامة .

انهار اخي الأكبر .. ارتعشت ، دارت الأرض ، سندنى ، غامت الدنيا .

ـ كوب ماء من البيت الذى هناك بسرعة .

بردت أطرافى .

ـ شد حيلك يا ابنى ، شدوا حيلكم ، عيب أنتم رجال .

شعرت بالغصة .

ـ اشرب .

شربت .. بدات إتنفس .. اقترب الشحاذون ، تحفزوا هجموا على أبى ، تمسحوا به :

ـ البقية فى حياتك يا بيه .

نهرهم عم جابر .

ـ ربنا يطول فى أعماركم ، البركة فى الأنجال .

اخذهم جانبا ، أخرج من جيبه نقودا صغيرة ، وزعها عليهم ..وسقط بعضها على التراب ..

* * *

جاء الرجال :

ـ البقية فى حياتك .

سمعت جارى يقول لجاره انه ذاهب لعزاء الميت المسلم ثم يلحقه بعد ذلك على المقهى ليبارزه عشرة طاولة .

خرجوا .. جاء غيرهم :

ــ شد حيلك .

هززت راسى .. جلسوا ، تمتمت بكلام غير واضح ، تحدث جارى مع زميله عن رحلات الفضاء وعن الترقيات وشكى له من رئيسه وزوجته النكدية .

دار عليهم القهوجى بالقهوة السادة ، درت عليهم بعلبة السجاير الكبيرة .

ــ شد حيلك .

اخرج احدهم قطعة حلوى وضعها فى فمه وقال انه كف عن تدخين السجائر بعد ان نصحه الطبيب بذلك ، ثم حدثه جاره عن غلاء السمن البلدى وانه لا يثق فى السمن الصناعى وانه تعود على شرب كوب من اللبن كل صباح .

جاء بعض التلاميذ ، جلسوا فى نهاية السرادق مبالغين فى حزنهم ، نصحنى جارى بان أجلس بجوارهم :

قال تلميذ :

ــ أستاذ العربى طلب منى أن أبلغك تعزيته .

هززت راسى ، أصابعه تضغط على بعضها البعض .. **ذهبت مع بعض أصحابى لعزاء زميل لنا وكانت اول مرة ، وكبس علينا الضحك دون سبب بفعل شيطان غريب الشان ..** هل يكبس عليهم الضحك الآن ؟ ! لكن عزت لم يات معهم ! من المؤكد انه عرف .

مشمش يجلس منزويا ، يبدو غير مدرك للأمور ، كانت تحبه

أكثر من جميع الأسرة ، آخر العنقود طبعا .. نظرت له ، قرضت أظافرى . لو جاء عزت ، لو بكيت !

انصرف التلاميذ .. جاء عم جابر وجلس بجوارى ربت فوق ركبتى :

ــ البركة فيكم ، كن رجلا .

ــ حاضر .

انهمك مع جاره فى الكلام ، ذكرياته عندما كان يعمل فى السودان ، لا يجيد الحديث الا فى هذا الموضوع .. آه .. ها هو عزت ، جرى الدم الى وجهى فجأة ، بدا مبتئسا شديد العبوس كأنه أنا :

ــ البقية فى حياتك .

احسست بفرحة ، جلسنا .

ــ كيف حدث ذلك ؟ . هل كانت مريضة ؟ لكنك لم تخبرنى ؟ دائما انت كتوم ؟ !

استمر عم جابر فى حكاياته :

ــ كان كل السودانيين يحبوننى ، وبكوا عندما تركت السودان .

نظرت الى الناس ، يتحدثون أو يفكرون أو يتثاءبون .. ميشيل ــ مشمش ــ كبس عليه النوم .

ــ وكثيرا ما خرجت الى رحلات صيد فى الأدغال ، أدغال السودان والحبشة .

زغدنى عزت ، رمقنى بنظرة ماكرة .. كنت قد حدثته عنه كثيرا .

— ومرة خرجنا الى الغابات مع بعض الأصدقاء السودانيين . كنا مسلحين طبعا ، وفجـأة خرج لى حيوان صغير جدا ، لا هو بالأسد ولا هو بالنمر ، ولم يكن ببرا أو ذئبا أو اى حيوان اعرفه ، استصغرت شأنه واستخسرت فيه الرصاصة ..

كتم عزت ابتسامته .

— لكن أحد السودانيين قال لى : احمد ربنا ، كتب لك عمر جديد ، هـذا الحيوان برغم تفاهة حجمه خطير وسـمه قاتل ، اذا عقر انسانا فقل عليـه العفاء ، ولابد أن يموت على الفور ، ولا علاج له !!

هز السامعون رءوسهم . رفع عزت يده وعبث فى شـعره ليخفى ابتسامته . فعلت مثله ، وعندما هم عزت بالانصراف قال انه لن يذهب الى المدرسة فى اليوم التالى ، وانه سيقضيه معى .

***

اخيرا فوق السرير والحجرة مظلمة .. دخل ضوء الصالة من الباب وانعـكس على السقف .. أبى وخـالى وأخى الأكبر يتحادثون ، صوت خالى :

— الروح تبقى فى الشقة ثلاثة أيام . تظل مكانها حتى يأتى القسيس ويصرفها فى سلام لتصعد الى السماء .

صوت العمال يهدمون السرادق فى الشـارع .. اذن فهى ما زالت هنا ، فى مكان ما .. صوت أبى :

— كان المشيعون كثيرين ، جاملت الناس فجاملونى .

هل هى فى حجرتها المغلقة حاليا ؟ أم معهم فى الصالة ؟ ! ضغطت جفونى بشـــدة .. كانت تحبنى وانا أحبهـــا كثيرا دون شك .

سمعت الولد أحمد ابن جارتنا يهتف من أسفل بيته :

ـ ولع النور .. ولع النووور ..

صوت اخى :

ـ كان أول الجنازة عند شركة بيع المصنوعات وآخرها عند الصهريج !!

كنت مثل الولد احمد اخاف صعود السلم المظلم ، كانت امى تقف لى من فوق وتظل تحادثنى :

ـ اطلع ، انا واقفة .. لا تخف اطلع ..

واركض السلم فى ثوان .

اكمل صوت اخى :

ـ برغم أن النعى سينشر فى الأهرام غدا ..

ربما تكون فى حجرتى الآن ، فوق السرير أو فى أحد الأركان، من المؤكد انها بجوار مشمش .

سمعت صوت بائع الزبادى فى الشارع ورأيت السلة تهبط من الشقة العليا ثم ترتفع بعد قليل وبها الزبادى ، وصوت باب البقال أسفلنا يغلق .. وفى منتصف الليل ســوف أسمع صوت « السيفون » فى الشقة المجاورة .. وفى الفجر صــوت نحنحة عسكرى الداورية فترد عليه بعض الكلاب بنباح حاد .

صوت أبى (لأخى) :

ـ هل صفت النعى جيدا ؟!

ـ كتبته بفعل المـاضى وقلت أن الجنـازة شيعت أمس من « كنيسة الأمير تادرس » .

والعزاء تلغرافيا « حنا بشارع ابن خصيب » .

ماذا ستفعل سناء عندما ترانى غدا ؟ . حملقت فى السقف (فرأيتهم يضعون صندوقى فى العربة المذهبة ، وبكى كل الشارع، وأصرت سـناء على أن تعبر خلف نعشى الى الشرق حيث وزعت الصـدقة على روحى) . لكنى لم أبك بعد .. **« كل النسـاء فى صندوق واحد . وكل الرجال فى صندوق آخر »** صوت خالى :

ـ هل كتبت بالنعى اسم صادق ابن بنت خالتك ؟

ـ نعـم ..

صوت أبى :

ـ تعب الشارونية معنا هذا الصباح ، هل ذكرتهم بالنعى؟

ـ نعـم ..

شعرت بالجوع . لم أتعش جيدا ، لم يلح أحد على بالأكل .. وجه أمى ، السقف ، ابتسامتها .. وجهها :

ـ عاوز أتعشى .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أى شىء .

ـ جبنــه ؟

ـ لا ..

ـ عسل ؟

ـ لا ..

ـ ماذا تريد اذن ؟ !

ـ أريد أن أتمشى .

ـ هل اسلق لك بيضتين ؟؟

ـ لا احب البيض وانت تعرفين ذلك .

ـ يا مكسور الرقبة تعبت قلبى ، ماذا تريد ؟ !

سأل خالى :

ـ على الله الا تكون نسيت أيوب بالنعى ؟

ـ كتبته ، هل أقرأ لكم صيغة النعى ؟

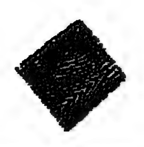
ـ أحسن ..

صمت .. وجه سناء .. أشباح على السقف .. لن يسألنى احد : ماذا تأكل ؟؟ جبنة أم عسلا أم بيضا ؟؟ استدرت فوق السرير .. **اطلع ، انا واقفــة ، لا تخف ، اطلع** .. قرأ صــوت أخى :

— وفاة سيدة بارة .. انتقلت أمس الى الأمجاد السماوية السيدة ... ...

ولكن هذا اسمها !! أمى .. انتقلت .. الى الأمجاد السماوية .. السيدة .. السيدة أمى !

انكفأت على وجهى .. المخدة .. **اطلع لا تخف** .. ارتعشت يداى .. **أنا واقفة لك** ..



فوستوك يصل إلى القمر

فوستوك يصل القمر

« الى القمر بالسلامة يا فوستوك »

وقف السائق يقرؤها مكتوبة على مؤخرة السيارة ، ربما للمرة المائة فى خلال اليومين الأخيرين ، ويبتسم لنفسه فى زهو . كان صاحب السيارة يريد أن يكتب مكانها عبارة أخرى : « يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف » . ازاء تمسك السائق بجملته قنع بأن تنزوى عبارته على باب السيارة حيث هى مكتوبة الآن ، وترك المؤخرة بطولها وعرضها لسائقه يكتب عليها ما بدا له . فكتب جملته السابقة ، ورسم أعلاها صاروخا صغيرا فى طريقه الى قمر رسم على هيئة وجه انسان يطل باسما فى سعادة من خلال زهور جميلة زاهية تحيط به .

ويخرج من فم شرطى المرور ثعبانان يلدغان السائق فى اذنيه :

ـ اطلع يا أسطى ، لا تعطل السيارات من خلفك .

وتموت ابتسامة السائق .. ويستدير .. وبسرعة تتحسس يده الاطار الخلفى ليطمئن الى سلامته ، ثم تمتد الى باب السيارة لتفتحه وهو ينظر الى اعلى حمولتها وينادى الشيال :

ـ نائم انت أم متيقظ ؟

ويعرف الاجابة عن سؤاله لأنه لم يسمع أى رد على ندائه .

يمد يده ليدير مفتاح البنزين ، وهو يستعيذ بالله . مع ازدياد سرعة السيارة ومع ارتفاع أنين محركها ، بدا سائقها كطفل يركض وحيدا فى طريق مقفر معتم ، فأخذ يردد فى سره عبارة صاحب السيارة : « يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف » . والتى أخذ يرددها بصوت أعلى وايقاع أسرع .

والسيارة تزحف وهى تهز الطريق بثقلها الزائد ، مثيرة ضجيجا صاخبا مزعجا ، لا يضيع فى الهواء ، بل يتحول الى قمقم يخرج منه وحش رهيب المنظر ، وقد امسك فى يده بمطرقة ، وفى اليد الأخرى بسكين حاد النصل مكشرا عن ابتسامة بغيضة . رآه السائق وهو يقترب منه فى اصرار وعناد ، ثم وهو يتسلل خلال الزجاج المكسور ليجلس بجواره . فهتف :

ـ يا خفى الألطاف ، يا الهى ها هو قد عاد ليضايقنى .. لم يكتف بالسكن أمام منزلى ، بل يطاردنى فى كل سفر أقوم به !

ثم يلتفت الى الوحش ، وباستسلام يقدم له طبلتى اذنيه :

ــ ها هما ، خذهما ، أطرق عليهما كما تشاء .

لكن الوحش لا يكتفى بذلك ، ويلوح له بيده الممسكة بالسكين . وكانسان يقدم ذبيحة قربانا لاله رهيب يخرج السائق أعصابه من رأسه ، ويضعها أمام الوحش الذى يفرح بها ويظل يعمل فيها تقطيعا ، شاربا الدم الذى ينزف منها .

ينظر السائق الى الطريق بألم ثم يبصق . لو أحضر معه قطعتين من القطن سد بهما أذنيه لكان قد أخفى طبلتيهما عن هذا الوحش ، لكن الأطباء منعوه من ذلك .

تخطر على باله فكرة ، فيخرج سيجارة يشعلها وينفث غضبه مع دخانها فى وجه الوحش ، ثم يحاول أن يلسعه بنارها ، لكن الوحش لا يابه بذلك ، ويتمادى فى طرقه لطبلتى الأذنين وتقطيعه لأعصاب الرأس ، بينما الشمس من وسط السماء تلهب العربة بنارها .

تنتهى السيجارة فى يد السائق وتلسعه ، فيلقيها بسرعة ، لاعنا كل شىء من حوله ، لكنه عندما يرفع بصره ويرى الحجاب المعلق أمامه تنفرج أساريره ويتمتم :

ــ يارب عفوك ورضاك .

ينظر الى الطريق أمامه ، ويجول بناظريه فيما حوله : مخلوقات كثيرة وعجيبة . وجد نفسه يتأملها كمن يراها لأول مرة ، بط يسبح فى الترعة الموازية للطريق ليطفىء نار اغسطس فى مياهها ، بقر لا يتوقف عن الأكل الا ليأكل ، جاموس ربط الى السواقى ، كلاب تشيعه بنباحها وترتد خائبة مخرجة ألسنتها ، وخروف ساهم محنى الرأس كرب أسرة يفكر فى كساء

أولاده .. وناس ، آدميون كثيرون في صـور مختلفة ، فيهم الذى يدير ساقيته وفيهم الجالس ليأكل ويأكل ، وفيهم المغتاظون من دخان العربة فيشيعونه بشتائمهم ، ومنهم الجالس حزينا يعبث باصبعه فى تراب الأرض ، ومنهم الذى خلع ملابسه ونزل الى الترعة سابحا .

لم يجد السائق ما يعبر به عما يجول فى خاطره الا أن هتف:

ـ دنيـــا !

وينظر الى الطريق .. ويبصق !

يلتفت الى جواره ، الوحش مازال رابضـا ، يلعب لعبتـه القاسية . يتساءل : الا يبأس !

أمامه على الطريق يسير فلاح ، اجتمى من الشـمس هو وبقرته التى يجرها وراءه بالأشجار المزروعة على جانبى الطريق.. وعندما عاد السائق لينظر أمامه وجد ان عربته تتجه فى اصرار صوب بقرة الفلاح تريد أن تفترسها ، لكنه يسـارع ويضغط على الفرملة بعنف .

من خلال ذهوله يسمع شتائم صاحب البقرة له ، يلتفت الى الوحش جواره ليوبخه فلا يجده ، اختفى بعد أن أعـاد اليه طبلتى أذنيه فقط . ويلعنه :

ـ هرب الجبان ، عاد الى قمقمه بعد أن سرق أعصـاب راسى !

ثم ينظر الى صاحب البقرة ويعتذر له :

ـ عدم المؤاخذة « الدزيكسيون فوتك » .

ينزل الشيال ـ الذى أيقظه وقوف السيارة المفاجىء وشتائم صاحب البقرة ـ ويطيب من خاطر الفلاح ، ويربت على ظهر بقرته ، الى أن ينصرفا .

تعود السيارة لمسيرها بعد اصلاح عطبها ويجلس الشيال بجوار السائق ، يصرخ وهو يحاول أن يعلو بصوته على صوت المحرك :

ـ سامع يا أسطى صوت المحرك .. ولا مكنة الحرث !!

تنفر العروق من رقبة السائق :

ـ صاحبها سلمها لى قديمة ، مالى أنا ، ما ذنبى أنا !

ويلتفت للشيال ، فيجد الوحش قد عاد وجلس بينهما ، ويعجب .. كيف لا يراه الشيال ؟ ويغتم .. وليخفى حزنه أخذ يتكلم محدثا نفسه ، والشيال يظن أن الكلام موجه اليه .

لشد ما يغيظه ان هذا الوحش وراءه أينما حلَ ، فى السيارة وفى المنزل . فقد جاء وسكن فى ورشة السكة الحديد المواجهة لمنزله ، والدائمة الضجيج سواء من أصوات المطارق أو القطارات، مما يجعله هو وزوجته وأولاده يتحدثون بأصوات عالية ، وكأن المسافة بينهم مئات الأمتار ، وهم فى حجرة واحدة ، ولم يكتف الوحش بذلك ، بل تقمص أجساد أولاده فتعودوا على الصراخ فى حديثهم حتى وأن لم تكن هناك اية ضجة ، لدرجة انه لم يكن يستطيع أن ينام الا بعد أن يثنى الوسادة على رأسه رغم حرارة الجو ، ليخفى طبلتى أذنيه عن هذا الوحش اللحوح .

ويبتهل السائق :

ـ يارب ، خلقت الانســان من طين ، حسنا ، لمــاذا خلقت معه الوحوش !

ثم يحدث شياله :

ـ هل هذا كثير على : منزل هادىء فقط ، فى أى مكان .. ولو فى القمر !

يضحك الشيال وقد اعتبر هذا الكلام مزحة . ثم يتساءل :

ـ قل لى يا أسطى ، لو عرضت لك فرصــة للصعود الى القمر ، هل ترضى ؟

ـ وما المــانع ؟ !

ـ القمر فيه وحوش !

باستنكار يصرخ السائق :

ـ من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟ !

ـ رأيته فى فيلم أمريكى ، وحش نزل من القمر الى الأرض وحطمها .

ـ مجنون الذى صنع هذا الفيلم .. ومخرف .

ثم يحدث نفسه :

ـ حتى ولو كان فى القمر مثل هذا الوحش ، فهو أرحم من الوحش الذى يطاردنى هنا فى الأرض .

يشعر بأن الكلام الى شياله يريحه ، لكنه يلمح فى الطريق رجلا يشير اليه بيده ، فيبطىء من سرعة السيارة ويطاب من الشيال أن يعود الى الخلف مرة أخرى ، ليكسب من هــذا العابر

ولو ثمن الدخان ، فالحياة نار ، وهو ما يرضى بشقته المزعجة القابعة أمام ورشة السكة الحديد حيث يسكن الوحش الا لأن ايجارها منخفض .

تقف السيارة بعد أن جاوزت الرجل بعدة أمتار ، فيسرع من خطاه وهو يبتسم للجملة التى قرأها على مؤخرة السيارة ، ويسأل :

ــ ما حكاية فوستوك هذا !

تعود العروق فى رقبة السائق لتنفر ، انه الصاروخ الذى سيصعد الى القمر الذى يراه دائم البسمة فى سمائه ، دائم الصمت والسكون .

يرى الدهشة مرتسمة على وجه الراكب فيخبره بأنه مواظب على قراءة الجريدة اليومية .. ويمضى يحدثه فى السياسة عن أمريكا وروسيا ، ثم عن الانسان ، البنى آدم ، وصاروخه وطمعه ، وفقره . وعندما يتذكر مشكلته يصمت برهة ، ويرمق الوحش ، ثم يهز راسه مؤكدا أمرا ما لنفسه :

ــ والله يا أستاذ أنا يهيأ لى أن القمر كله هدوء وليس به ضوضاء ولا ضجيج كما عندنا هنا .

يضحك الراكب ، وفى طنطا ينزل وهو يدعو للسائق بحياة هادئة .

تخرج السيارة من طنطا لتكمل رحلتها ، وهى تهز الطريق من سرعتها ، وتزعج الطيور فى أشجارها بصوتها الراعد ، وتثير من خلفها التراب ، وتسحب وراءها شريطا كريها من

الدخان الأسود الكثيف حجب القمر المرسوم على هيئة وجه انسان باسم ، ثم مضى يتسع ويتخلخل راسما أشكالا عجيبة ، بدت وكأنها أرقام خطت فى الهواء . خمسة .. أربعة .. ثلاثة.. اثنين .. واحد .. الصفر . ثم كان الحادث .، وانقلب وجه القمر الباسم من وسط الزهور !

وعندما يفيق السائق ، ويفتح عينيه ، وقد لفت رأسه بالشرائط ، يرى بجواره رجلين وامرأة فى ملابس بيضاء ، ويبتسم للهدوء والصمت الذى يشمله . كان الوحش قد اختفى . ينظر الى وجهى الرجلين فيهيأ له انهما يتحدثان .

كان أحد الطبيبين يقول للآخر :

ـ لقد حدث له ما كنت أخشاه !

وبالرغم من أن السائق كان يرى الطبيبين جيدا ، ويرى بوضوح تام حركة الشفاه ، الا أنه لم يسمع أى كلمة ، ان ما حوله الصمت التام والهدوء الشامل .

يتساءل فى حيرة وقلق ، وهو لا يرى الوحش أمامه :

ـ هل فوستوك وصل الى القمر ؟ !

الوجـه الآخـر

كان يبغى أن يتنسـم بعض الهواء فى النافذة ، لكن الضجة الناتجة عن لعبة الحرب التى يمارسها الأولاد فى الشارع ، دفعته الى أن يغلق زجـاج النافـذة رغم حـرارة الجـو .

ينظر فى ساعته ، عندما يكمل هـذا العقرب النطاط خمس دورات كاملة ، ويقفز العقرب الكبير خمس قفزات ، يكون موعد عرض نشرة الأنباء المصـورة فى التليفزيون قد حان . يظل يرقب الساعة ، ويرثى لحـال ذلك العقرب النطاط ، ما يقطعـه فى دورة كاملة لاهثة يقفزه العقرب الكبير فى قفزة واحدة حاسمة ، بينما ذلك اللئيم الصغير لا يتحرك من مكانه الا قيد أنملة لا تلحظه العين العادية . ينظر بحسد الى ذلك العقرب الصغير العريض . يتنهد : والثلاثة فى ساعتى !

ثمتد يده تدير مفتاح الجهاز . ينتظر وهو يلوح بيده أمام وجهـه ليحرك من الهـواء الراكد ، لو بيدى الأمر لوجهت من التليفزيون مر العتاب الى هؤلاء الآباء الذين يهدون لأولادهم لعب الحرب . غير أن طرقات عنيفة تطرق أذنيه تجذبه من أفكاره ، وكان صوت صاخب لضجة غير متميزة قد بدأ يصدر عن الجهاز ، فيحدق بعينيه مستعجلا ظهور الصورة حتى يعرف الحقيقـة ، وتظهر .. باهتة أولا .. ثم تأخذ فى الوضوح ، لتهبط من أعلى الى أسفل كأن شيئا يثقلها ، ثم تعود لتصعد من أسـفل الى أعلى وكأن روحها تفيض .. فينهض عابسا ويمد يده يحرك أحـد الأزرار حتى سكنت الصورة مرغمة .

ويجلس فى مواجهتها .

كانت مسلسلة فى نهايتها ، فينظر الى بطلها وهو ينتهى من القضاء على أعدائه : كم قتلت اليوم أيها الهمام من الرجال ؟ . مائة ؟ ألف ؟ الأولاد فى الشارع يقلدونك ! .. وكان البطل قد استغرق فى قبلة الختام مع البطلة ، فيبتسم له : انت تقتل كل هؤلاء من أجل هذه القبلة ! ويا له من ثمن ؟ لكنـه رغم ذلك يغوص فى مقعده منسجمـا من منظر القبـلة التى تنتهى عندها المسلسلة ، فيقول مودعا بطلها : الى اللقاء غدا ، حيث تقتـل مائة رجل أو ألفا آخرين لتنـال قبلة ثانيـة ، واتركنى لنشرة الأخبار إرها واسمعها .

يشده صوت عراك آت مع المطبخ ، فينهض ليجد قطته وقد قوست ظهرها ونفرت من شعرها ، شاهرة مخالبها فى وجه كلبه الذى استولى على قطعة عظم . يضحك لكلبه ، على كل فأنتمـا تتقاتلان من أجل الطعام ! . ويلقى بقطعة عظم أخرى للقطـة ،

فيبتعد أحدهما عن الآخر ويعم السلام .. ويعود هو الى التليفزيون حيث كانت انباؤه قد بدأت تتوالى .

يجلس أمامه يسمع ويرى :

« الحرب تعود لتشتعل فى دولة ... » .. وصورة طائرة تسقط محترقة .. فيسألها : كم من الرجال قتلت ؟ مائة ؟ ألف ؟ .. لكنك لن تنالين قبلة !!

« صراع حتى الموت بين شطرى دولة ... » .. هابيل لماذا تقتل أخاك قابيل !

« احتمال نشوب حرب ذرية عالمية » .. « اعصار يجتاح استراليا » .. «تفجير قنبلة ذرية جديدة تحت الأرض » .. نجازاكى أين ذهبت أختك هيروشيما ؟ !

ينهض ثائرا ، أين الأنباء الطيبة ؟ !

وتدير يده المؤشر الى قناة أخرى ، وكان بها فيلم كرتون ، قط يطارد فأرا ، بينما كلب يتربص للقط فى مكان خفى . يغير القناة مزمجرا : هل يشاهد قطى وكلبى هذا البرنامج ؟ ! .. ويدور المؤشر الىالقناة الأخيرة ، المذيع يقدم لتمثيلية « الكترا ».. آه .. الحقد الفظيع . انها لمؤامرة ، ان آلهة العذاب تطاردنى اليوم !

يغلق التليفزيون .

ويروح فى الحجرة ذهابا ، سأرفع شكوى الى أولى الأمر ضد واضعى هذه البرامج . ثم يعود جيئة ، سأعلنها حربا شعواء عليهم . يدق بقدمه على الأرض ، نعم حرب .. ثم دقة ثانية حرب .. ثم ثالثة ورابعة وخامسة ، حرب حرب حرب ..

أمام المرآة يقف ، وينظر لنفسه مخرجا لسانه ، حتى لسانك نطق بالحرب خمس مرات ! . يبادل خياله فى المرآة نظرات السخرية والازدراء ، ثم يعود ليشعر بالاختناق من حرارة الجو . فيفتح زجاج النافذة ، لكن الضجة تهب عليه آتية من أسفل النافذة « طاخ . طاخ . طاز » .. « بم . بم . بم » .

يغلق النافذة ثانية ، يجلس على المقعد المواجه للمرآة ، فيلمح خياله يجلس أيضا تخطر على باله فكرة غريبة يقولها لنفسه ، وهو يحرك يده أمام وجهه مستجديا نسمة خفية :

هل ينعكس داخل المرآة صوته كما انعكست صورته الآن ؟ !

هل كما يحدث للصورة خيال يحدث للصوت صدى ، داخل المرآة ؟ !

ان العلم لم يفت فى ذلك !! . ويهم بالنهوض ليجرب الدخول الى الجانب الآخر للمرآة حيث خياله ، علّه يعرف الجواب .. كلما تقدم هو الى المرآة ، تقدم خياله ليخرج منها .. لن تكون معا فى نفس الجهة !

يصطدم بالمرآة ، ليفيق ليجد ذهنه يكرر قولة مدرسه فى الابتدائى « ان المرآة سطح لامع » .

وينظر أمامه ليجد خياله يرمقه مذهولا ، ثم ضاحكا فى سخرية !

يجلس .. ويعود ليرمق خياله ، مازال يتابعه بنظرات الازدراء ، متهما اياه بالجنون والتخريف ، فيركن برأسه الى الخلف مستندا الى مؤخرة المقعد ، ويغمض عينيه لثوان ، ثم يفتحهما

ببطء رامقا خياله فى المرآة بحذر . ولكن .. يا للعجب !! انه ليس هناك !! .. هل تمكن من الخروج فيكون قد فعل ما فشلت فيه أنا ؟ !

يتلفت حوله فى الحجرة .. هواء راكد .

يعود ويحملق اكثر فى المرآة .. آه .. الحمد لله .. ها هو يعود . ولكن من هـذا ؟ ! لست انـا ! .. وينظر الى نفسه بالبيجامة ، بينما ذلك الذى بالداخل يرتدى سروالا طويلا من القماش الأبيض الهفهاف . يتحسس ذقنه ، انه حليق ، أما الآخر فله لحية طويلة بيضـاء مهيبة !! يدقق النظر الى وجهه ، نفس ملامح وجهى ، انه انا .. نعم هـذا أنا . ويتساءل : كيف استطاع الخيال أن يغير من نفسه كل ذلك بهذه السرعة ؟ ! .. ولكن قد يكون فى مقدرة الخيال أن يفعل ما لا يستطيعه الانسان ، وعلى كل فهذا نصفى انا .. لو لم أكن أنا لمـا كان هو .

يجلس يراقب الرجل الآخر باهتمام بالغ وشغف متزايد .

لقد انحنى ليثبت لوحة فوق حامل خشبى ، يحملها ويتجه الى باب الشقة !

ينادى عليه : انتظرنى ، أين تذهب ؟

لكن ذا اللحية البيضاء المتشح بالبياض يتجه فى اصرار الى الخارج ، وجهته الشارع .

وفى الشـارع يتوقف الأولاد عن لعبة الحرب ، ليتجمعوا حول ذلك الرجل المضحك ، الذى يحمل لافتة بيضـاء كبيرة عجيبة . ويقول ولد له شعر نافر لزميل له ذى صوت أجش :

ـ هنـاك كلمـة مكتوبة فى ركن اللوحـة ، هل تستطيع قراءتهـا ؟

يعجز زميله عن قراءتها ، ويقدر على تصويب مسدسه الى اللافتة ، مطلقا منه قطعة صغيرة من الفلين هى قذيفته .. ثم ينفجرون جميعا فى هتاف واحد :

ـ الابله .. الابله ..

يتحرك ذو الرداء الأبيض فى بطء حاملا لافتته ، خطت كلمة « السلام » فى ركن منها ، وعلى وجهه روحانية الأنبياء .

يتوقف النـاس من حوله تاركين أعمـالهم ، مؤجلـين عجالتهم ، ليكونوا زفة كبيرة من العيون الدهشـة ، وموكبـا ضخما من الشفاه المزمومة فى شيء من الاستخفـاف .. وبين أرجلهم اندست بعض الكلاب تشاركهم فرجتهم .

بعين صافية يمضى ناظرا أمامه ، الى الأفق البعيد ، بين ضحكة ساخرة ، بين مصمصة شفاه متحسرة ، بين ضربة كفين متعجبة ، بين بسمة متفائلة .. تمضى قدماه .. تسبق القـدم اليمنى اليسرى .. فتعود اليسرى لتسبق زميلتها .. والناس من حوله يملون فينصرفون لأعمالهم ، تاركينه لغيرهم يعيدون معه الكرة .

والعقرب النطاط فى الساعة يدور دورات كثيرة ، والكبير يسرع فى قفزاته ، والصغير اللئيم يدور ويدور .. وذو اللحيـة البيضاء المسترسلة يمضى بلافتتـه ، مارا بوجوه بيض مرة ، ووجوه صـفر مرة أخرى . ناظرا الى عيون زرق أو سـمر ، ساخرة ، ضاحكة ، باردة ، مجهدة . يقول لنفسه : لا يهم أى

قوم هؤلاء أو أى بلد هذه ، سأطوف العالم كله ، أن رسالتى للناس جميعا لبنى الانسان ، أحفاد نوح ، حفيد آدم .

والهلال فى السماء يكتمل بدرا ، ليعود من جديد هلالا .

وتمر به سيارة فاخرة ، يطل صاحبها اليه ويقول للذين حوله :

ـ لا تلتفتوا الى هذا الرجل المجنون ، انه المسيح الدجال .

يتأثر البعض بهذه القولة ، والبعض لا يأبهون ، ويتابعون الرجل .. وعقرب الثوانى يدور فوق زميليه ، ويجبر الكبير على أن يقفز قفزة كلما دار هو دورة ، والكبير بالتالى يجبر الصغير العريض على الدوران خلفه .

تتغير الوجوه بوجوه سمر ، وتطل أم من شرفة منزلها اليه ، تنقل بصرها بين لافتته وبين أطفالها ، ثم تسرع ببسمة أمل اليه لتقدم له كوبا من عصير البرتقال ، يقبله شاكرا بينما تنهال على أذنيه طرقات ضحكة رجل ذى سيجار كبير أخفى دخانه الكثيف وجهه !

ويسقط نظره أمامه على رجل نحيف رث الملابس يركز عينيه على كوب العصير فيقدمه اليه ، وبسرعة يمد البائس يده ويخطف الكوب ويشربه فى لهفة ، دون أن ينطق بكلمة شكر واحدة .

وأوراق الأشجار تجف .. ثم تخضر .

وفى بلاد بيوتها عالية ، يلقونه بالبيض فى شارع .. ويرحبون به فى شارع آخر .. وتنهال عليه الطماطم الفاسدة

فى حى آخر . ويقول مبتسما فى جلد : كل نبى مضطهد فى قومه ، وانا قومى سكان هذه الأرض ، لأنها أرضى والى ترابها أعود .. لكن أحزنه تلك البقعة التى علقت بلافتته . ويظل بينهم حتى يؤمنوا به وبرسالته .

والحب فى الأرض ينبت زرعا ، ليطرح حبا .

وكثيرون فى كل مكان تركوا اعمالهم وتبعوه ، حاملين لافتات مشابهة .. ويظلون سائرين من خلفه ، حتى شعروا بالجوع ، وصرخوا فى وجهه :

ــ جعنا يا معلم !

يبكى بالدموع ثم يلتفت اليهم :

ــ قد أكون معلمكم ، ولكنى لست المسيح ، المسيح بخمسة أرغفة اطعم الألوف ، أما أنا فحتى خمسة الأرغفة لا أملكها .

ينفضون من حوله ، فيهتف فيهم :

ــ يا ضعيفى الايمان ، عودوا الى آلاتكم لتطحنكم ..

ويحزن عندما يأتيه الجواب :

ــ ولكن الآلة تستطيع صنع آلاف الأرغفة فى دقائق قليلة .

يبكى ، كثيرا ، ويظل يحاورهم ويناقشهم ، حتى يراهم من خلال دموعه يبكون ويركعون عند قدميه ، قائلين له : أخطأنا ، أعمتنا الشهوات ، وأفسدنا حب التملك . وركع معهم ، وطلب منهم أن يصلوا معه الى خالق آدم ، الى خالق نوح .

وتأتى لحظة الوداع .. ثم لحظة العودة .. فيقول الآن

أديت رسالتى ، الآن أعود الى البيت مطمئنا راضيا مستريح البـال .

عندما يدخل الشارع الذى به منزله ، كانت لافتتـه قد امتلأت بكلمة : « السلام » خطت بجميع لغات بنى البشر .

وكان أولاد الحى يلعبون .. أحدهم يقوم بدور طبيب ومعه عدة فتيات يقمن بدور الممرضات ، وولد كبير يقوم بدور المدرس لأقرانه الصغار ، وآخرون أحضروا آلات موسيقية قاموا بعزف مقطوعات جميلة ..

يتعجب ذو اللحيـة البيضـاء ، انهم هم ! ولكن أين ذهبت لعبهم القديمة ؟ ينظر جهـة سلة المهمـلات ليجدها مملوءة بلعب المسدسات والبنادق . ويبتسم للعبارة التقليدية التى تعلقهـا البلدية على كل سلة مهملات :

« حافظوا على نظافة مدينتكم » .

عندما يلمحه الأولاد يسرعون ويحيطون به مهللين ..

ويسأل الولد ذو الشعر النافر زميله ذا الصوت الأجش :

ــ هل تستطيع قراءة المكتوب على اللوحة ؟

يجيبه على الفور وبلا تردد :

ــ انها كلمة السلام بجميع لغات العالم .

وأخيرا يدخل منزله ، وقد امتلأ الشارع بالناس ، يحملون اغصان الزيتون ، رافعين رايات السلام ..

وعندما يدخل ذو اللحية المتشح بالبيـاض الشقة ، يقع نظره أول ما يقع على الكرسى المواجه للمرآه ، فيجد أن الرجل

مازال يجلس هناك وقد أخذته سنة نوم ، وعلى وجهه ملامح الرضــا .

يبتسم مسرورا عندما يرى أسفل قدمى الرجل ، الكلب الضخم وقد نام هادئا وبجواره القطة ، وقد ركنت براســها على ظهر الكلب . يتجه الى جهــاز التليفزيون ويشغله فتتهــادى اليه مع النسمات اللطيفة التى تملأ جو الغرفة أغنية حب هادئة ، يدير المؤشر الى القناة الأخرى فيجد المذيع يقدم تمثيلية بعنوان : « لغة الزهور » .. وفى القناة الأخيرة يجد ندوة يشترك فيهــا كبار رجال الفقه والعلماء عنوانها : « الأرض دولة واحدة » .

يبتسم فى دعة .. ثم يغلق الجهاز ، وهو يقول لنفسه : الآن اطمأنت نفسى ويمكننى العودة الى حيث كنت .

بقدم ثابتة يتجه ذو اللحيــة البيضاء المتشح فى بيــاض هفهاف الى المرآة .. حيث يخترق حاجزها اللامع .. داخلا الى الوجه الآخر .. ثم يلتفت الى الخلف ، الى الرجل النائم على الكرسى المواجه للمرآة ، ويبتسم فى طيبة سائلا نفسه :

ـ متى يستيقظ ؟ ! متى يستيقظ ؟ !

ويستيقظ الرجل فزعا على صوت ضجة كبيرة آنية من المطبخ . وينصت ، انه كلبه وانها قطته . ينظر أسفل قدميه ، انهما ليسا هنا ! . ينظر الى المرآة فيجد خياله .

يجرى جهة المرآة مقتربا منها ، فيقترب منه خياله .. يحرك رأسه يمينا ويسارا ، فيفعل مثله خياله .. فيهز رأسه فى حيرة ، ويدعك جبهته فى دهشة .. لكن صوت عراك قطته

مع كلبه يزعجه ، فيتجه الى المطبخ ليجد انهما عادا للشجار مرة ثانية ، وقد استولى الكلب على قطعة العظم من أمام القطة .. يضربهما ..

ويعود مسرعا الى المرآة ، ينظر داخلها . يقترب أكثر وأكثر ، حتى يكاد وجهه يلامس سطحها ، فترسم أنفاسه سحابة بيضاء من بخار الماء على وجه المرآة ، ويجد يده ترتفع ليخط بأصبع خلال السحابة البيضاء كلمة : « السلام » .. لكن حرارة الجو فى الغرفة تسرع بازالة هذا الندى .

يقول لنفسه ، رغم هذا لن اياس ، سأكون انسانا عمليا ، سأكتب عدة مقالات وأرسلها الى جميع وسائل الاعلام فى كل بلاد الدنيا .

وفعلا .. يتجه الى مكتبه ، ويخرج ورقة بيضاء كبيرة ، ويمسك بقلمه ، ويبدأ فى قدح زناد فكره ، ليختار الكلمات المناسبة لمقاله .

تقع عيناه على عده دوسيهات كان قد احضرها من مقر عمله ليتم عملا ناقصا مطلوبا منه فى اليوم التالى ، فتمتد يده الى أول دوسيه ويقول فى نفسه : سأنتهى من هذه الدوسيهات أولا ، ثم أشرع فى كتابة مقالى .

عند منتصف الليل ينتهى من الدوسيهات ، ويجد نفسه مجهدا فيقول : لا بأس من تأجيل كتابة المقال الليلة ، ولكن غدا بكل تأكيد سأقوم بذلك .

فى طريقه الى سريره تمتد يده لتطفىء النور ، فيعم الحجرة ظلام دامس .. الا من ضوء خافت لنجم فى السماء ..

الرصيد

صوت امى يهز اذنى ! « يا ولدى البرد قارس ، والسهر مؤذ » . انتظر الأوتوبيس. نسمة باردة تلفح وجهى . لا أرى احدا فى الطريق . انكمش فى نفسى . المنزل الذى اقف تحته تصدر عنه ضحكات عابثة متداخلة . اصدقائى الآن اكتمل شملهم ، قابلتهم صباح اليوم فى البنك ، ذهبوا مثلى ليسحبوا مبلغا من المال ، رغم الزحام الشديد فى البنك فانهم تحدثوا معى .

كنت نويت قضاء هذه الليلة نائما . أخبرت أصحابى بأنى لن أغادر المنزل ، الا اننى وجدت نفسى ـ والساعة جاوزت الحادية عشرة ـ أرتدى ملابسى وأهبط الى الشارع .

أشعل سيجارة . الأوتوبيس يقترب . ألقى بالسيجارة ، اقترب من طرف الرصيف ، الأوتوبيس يمرق من أمامى ، الهواء البارد يضرب وجهى بعنف ، لحظة واحدة لو وقفها لركبت .. رغم الزحام الشديد فى البنك فانهم تحدثوا معى ، قالوا لى :

ــ تعال الليلة ، سنسهر معا ، نلعب ونشرب ، البرد يحب الشراب ، والشراب يجلب الفرفشة ، كل سنة وانت طيب ! .

أشير للأوتوبيس التالى ، يقف .. يسارع السائق بالمسير قبل انقضاء اللحظة ، أكاد أنكفىء على وجهى ، أنظر للسائق فى عتاب .. يقول لى :

ــ لا تزعل يا أستاذ ، كل سنة وانت طيب ، تماسك ..

عيناه تتركان الطريق أمامه ، تتفحصنى من شعر رأسى الى رباط حذائى .. أصدقائى الآن يشربون ، قلت لهم :

ــ لا تنتظرونى ، لن أخرج الليلة .

قالوا لى :

ــ المجنون فقط لا يرضخ لرأى المجموع ، انت كالشريك المخالف ، لماذا اذن تسحب هذه النقود من البنك ؟ .

يلفظنى الأوتوبيس فى شارع ٢٦ يوليو ، يعود السائق ليهتف :

ــ تماسك يا أستاذ ، كل سنة وانت طيب .

لا أحب الزحام ..

ــ ولكن هذه ليست ككل ليلة .

هكذا حاولوا اقناعى :

ـ المقفل فقط يمضى هذه الليلة فى السرير !!

السائق قال لى :

ـ كل سنة وانت طيب .

لكنه اضاف :

ـ تماسك يا أستاذ .

لن اتوجه لأصدقائى ، نويت ان أهيم منفردا ، وان اترك خط السير تحدده قدماى .. اتحسس النقود فى جيبى ، كنت متلهفا الى معرفة : كم تبقى لى من رصـيد فى البنك ؟ . كل عام أسحب مبلغا ، ولم أودع غيره مطلقا ، لم يكن بامكانى ذلك !!

ـ مجموعـة من الفتيـان يسيرون خلفى ، يهللون بأعـلى صوتهم :

ـ العبيط ، العبيط ..

حتى أصابعهم تشير نحوى ، ان كانوا عشرة فهناك عشر أصابع تشير الى ظهرى . لن أعيرهم التفاتا ، ان شـعروا أنى مغتـاظ فسـيزيدون من صراخهم ، لن يتركونى .. تصـدق فراستى ، يتعبون ، ينصرفون .. أتلكأ أمام واجهـة محل مضاءة أتلفت اليهم من جانب عينى متظاهرا بمراقبـة الواجهة ، هم تلاميذ ولا ريب ، خائبون ، كل منهم يطـالب والده بمصروف الصباح ، عددهم أحد عشر تلميذا ، اذن فقد كانت احدى عشرة أصبعا تخترقنى من الخلف ، لا بل اثنتا عشرة ، فهذا القصـير له أصبع يشير به ، وله لسان يخرجه أيضا !

أنظر أمامى ، الواجهة مليئة بالأحذية ، من جميع الأصناف. رجالى وحريمى وأولاد .. ويفط كثيرة : « أسعار فى متناول الجميع .. سعر موحد لأى زوج » .. وقطن أبيض على الزجاج يقول :

ــ كل سنة وانت طيب ..

مدير البنك قال لى :

ــ محال أن أخبرك كم بقى من رصيدك ، الزحام شديد ، أستطيع أن أخبرك عن الأموال التى سحبتها فقط ، كل سنة وانت طيب .

فى الزحام لا ينجو الانسان من صدمات الآخرين به . نويت أن أسير محاذرا ، سأعمل حسابا لذلك القادم على يسارى يترنح . أن أدعه يصدم بى ، فعلا أفلت ، ولكن ليصدمنى القادم عن يمينى ، وليقول لى :

ــ كل سنة وانت طيب ..

الصدمة تؤلمنى ، وهو قد سار وابتعد عنى ، كنت أنوى أن أرد عليه بعدة كلمات .. فى الصباح قلت لمدير البنك :

ــ بحسبة بسيطة ، وبدون معونتك يا سيادة المدير ، أستطيع أن أحسب المبالغ التى سحبتها .. المهم كم تبقى ؟

أصدقائى الآن فى عز سهرتهم ، قلت لهم :

ــ أبى يشرب لينسى مضايقات أمى له ، لماذا تشربون انتم ؟ ! .

ـ لأننا نريد أن نمرح ..

ـ ولكن الخمر ستسكركم ، وستنسون انكم تمرحون .. والذى ينسى مضايقات أمى بالخمر ..

صرخوا فى :

ـ لكنها ليلة فى العام ، ليلة واحدة !

وتركونى وهم يقولون :

ـ شاور نفسك ، وكل سنة وانت طيب .

أجبت مدير البنك :

ـ المهم .. كم تبقى ؟ ! كم ؟ .

حتما هذا لا ينوى بى خيرا ، يضـع على راسه طرطورا ، يريد أن يضعـه على راسى ، سأرفض بكل شـدة ، سأجرى مبتعدا ان لزم الأمر .. الفم الذى تحت الطرطور يتحرك :

ـ الشـارع ملىء بالنـاس ، والنواصى ملغمـة برجـال الشرطة ، وان جريت سنجرى خلفك صارخين : امسك حرامى ، إمسك حرامى .

يهـددنى !

لحظة الخطر تحدث المفاضلة : أن أكون طرطورا خير من ان اكون حراميا .

أحدهم يهمس فى أذنى :

ــ ستحتـاج الى جهد ووقت وعلبـة سجائر ، كي تثبت لرجال الشرطة الذين يقفون على النواصي انك لست لصا .

لحظة الخطر يفكر العقل بسرعة : فرق كبير أن أكون انـا نفسي طرطورا ، وبين أن يوضـع فوق رأسي طرطور للحظـة عابرة .. أسلمه رأسي اذن . الفم الذي تحت الطرطور يقول :

ــ يشترط أن يكون شعرك نظيفا حتى أقلدك اياه .

يفحص شعري ، يهتف محيبا وهو يضـع الطرطور على رأسي :

ــ أبشر .. أبشر .

الشارع كله يقفز راقصا :

كل سنة وانت طيب ..

الصواريخ تنطلق ، أصوات من المنازل تهلل في صخب :

ــ كل سنة وانت طيب ..

الجميع يرددون :

ــ كل سنة وانت طيب ، كل سنة وانت طيب .

الثغرات المضيئة في المنازل تطفأ ، بعد لحظات ستضاء ، الآن صديقي سعد يقبل زوجته ، صديقي أنور يقبل عشيقته ، أمي ترقد وحيدة في المنزل .. ومن الآن وحتى تضـاء الأنوار مرة أخرى سأضع يدي على محفظتي ، أمي تحذرني دائمـا من الزحام والنشالين ، ومن الظلام والعفاريت ، العفاريت صاحبة الأقدام المسلوخة .

ولم يكن لبس الطرطور هو السبب ، كانت الساعة الثانية عشرة تماما ، والجميع ينصافحون ، تنتقل اليد من يد لأخرى صارخـة :

ـ كل سنة وانت طيب ..

الأنوار تضاء .. أصـدقائى الآن يصافح أحدهم الآخر ..

بجوار الحائط توجد لمـة من عدة أشـخاص ، لابد أن أعرف السبب ، أحدهم يمسك براديو ترانزستور ، المذياع يقول :

ـ وقد اتفق الطرفان المتحاربان على هدنة مدتها أربعـة وعشرون ساعة بمناسبة العام الجديد .

أحدهم يسكت المذياع . لابد أن أعرف السبب . يضحكون. اندس بينهم . يضحكون . بجانب الحـائط انسان يتقيأ .. مدير البنك قال لى :

ـ لا أضمن ان كان رصيدك كبيرا أو صغيرا من المؤكد انه يتناقص عاما بعد عام !

الشخص الذى يتقيأ أصحابه يكملون ضحكاتهم .. المدير أكمل كلامه همسا :

ـ مادام ليس باستطاعتك أن تضيف اليه شيئا !

الأصوات من حولى تقول للذى يتقيأ :

ـ بدأ عامه سعيدا حقا !

يضحكون :

ـ أفرغ كل ما فى جوفه ..

ـ ... بامكانك الآن شرب المزيد !

يضحكون :

ـ أكل فى العام الماضى ..

ـ ... وتقيأ فى العام الحالى ..

يغرقون فى الضحك .. أقول لنفسى :

ـ ما داموا يضحكون جميعا فلابد أن الأمر مضحك فعلا .

قلت لأصدقائى فى الصباح :

ـ لا أفهم معنى لمرحكم ؟ !

فى البنك قيل لى قبيل انصرافى :

ـ سيأتى يوم ينفد فيه كل رصيدك ، وتبحث عن بنك آخر غيرنا ..

يقولون للذى يتقيأ :

ـ ولا يهمك ، كل سنة وأنت طيب ..

يضحكون .... وأنا أضحك .

بلا حكمــة

عرف الجميع تفاصيل الحادث ، ومع ذلك لم ينصرفوا ، ظلوا واقوفا حول الجثة ، ينظرون اليها ، رغم الدماء المحيطة بهــا ، رغم التشويه الذى حدث بالجمجمة ، رغم محــاولة رجال الشرطة لابعــادهم .. وان انصرف احدهم وقف مكانه عشرة ..

فى ميدان العتبة وقع الحادث ، فتجمع حوله هذا الجمع الكبير من الناس ، رجال كبار وشباب ، وأولاد صغار ونساء ، من الصعيد أو من الدلتا او من القاهرة ، بل وحتى بعض السائحين .

والجميع عرفوا التفاصيل كلها ، رجل مات بطريقة ما ، وبكيفية غير مقصــودة ،

وفى حادث لم يدبره انسـان ، وتحت تاثير ظروف لا دخل لبنى آدم فيها ..

والجمـع يجـذب المـارة ، فيدفعهم الفضـــول الى معرفـة ما الخبر ؟ ما سر الزحـام ؟

يسأل رجل معمم عن الحكاية ويعرفهـا ، فيضرب كفـا بكف وهو يقول :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

ثم يهز راسه يؤكد حقيقة لنفسه :

ـ صحيح الأعمار بيد الله .

يشرح أفندى محترم من الواقفين ـ توحى الشعيرات البيض فى رأسـه بالوقـار والهيبة ـ يشرح الأمر لسائله ، ولمـا يرى الحزن مرتسما على وجهه ، يقول له مهونا الأمر :

ـ نصيب !

وكأنما وجد فى هـذه الكلمـة التفسير المطلوب والعزاء ، لقد خف الحزن المرتسم على وجهه ، وقال مؤمنا :

ـ حقا .. قدر أعمى .

أما الشيخ الذى عرف بالحـادث على عجـل ، أخـذ يهز رأسه وهو يستمع الى باقى التفاصيل ، وينصرف والدمـاء قد فرت من وجهه :

ـ انا لله وانا اليه راجعون .

ثم يقول لنفسه وقد بعد ، مجيبا على عدد من الأسئلة التى هاجمته ، والتى لم يجد لها جوابا :

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .

ومن تحت القفة ، أراد الرجل الصعيدى أن يسأل عن الترام الذاهب الى ميدان السيدة ، ومن خلفه زوجته وهى تخفى الجزء الأكبر من وجهها عن فضول الرجال ، مما ركز الأنظار على عينيها وعلى الكحل الذى فى الرموش ، يعرف رقم الترام ، ومكان محطته ، ثم تسأله زوجته عن سبب هذه اللمة ، فينقل بدوره السؤال الى مجيبه السابق ، ويعود لينقل الاجابة الى زوجته ، رغم تأكده من أنها سمعتها معه ، ويرى أن من واجبه أن يعلق على الحادث فيقول :

ـ المقدر على الجبين لازم تشوفه العين .

وترجح زوجته أن للمأسوف على شبابه أولادا أو زوجة أناسا يعولهم ، وأنهم الآن فى انتظاره . ويشد انتباهها تلك الريفية التى كانت سائرة فى الجانب الآخر ، وخلخال فضى يلمع فى قدميها . لكنها تعود الى الحادث ثانية ، وتنظر الى اليد اليسرى للرجل الميت : « الدبلة » فى أصبعه .. متزوج اذن !

تهتز المرأة ، وتعلق على ذلك بمصمصة خزينة من شفتيها !.

تعرف السيدة الأنيقة بالحادث ، ويقول محدثها معلقا :

ـ لو انحرف مترا واحدا عن خط سيره ، لكان الآن حيا يرزق .

تقيس السيدة الأنيقة مسافة المتر بنظرها ، وتدرك أن هذا الكلام صحيح ، فلا تجد ما تنطق به الا كلمة واحدة :

ـ حظ !

المصور الصحفى ينهمك فى تصوير الحادث ، وتشغله الصور عن السؤال أو عن التعليق ، وان كان ضايقه اقتراب الناس من ول القتيل حتى يظهروا فى الصور التى يلتقطها .

ولا يقدر الأفندى السائر متعجلا على مقاومة فضوله ، فيعرج عن طريقه ، ويشق لنفسه طريقا وسط الزحام ، حتى يصل الى حيث الجثة على الأرض ، ويصدمه ما يرى ، انه يعرف القتيل ، يجلس معه على المقهى أحيانا ، لا اله الا الله .. والضابط يسأل ان كان أحد الناس يعرف « المرحوم » .. ويهم بأن يدلى بما عنده ، غير انه يتذكر انه على موعد هام بعد دقائق . والتحقيق سيؤخره ، فيسكت .. لكنه يتساءل فى عقله « لكن أولاده يحتاجون اليه والى حنانه ، عيال صغار بلا سند » . يهتز انفعالا ، ويقول عاجزا عن تفسير ما يرى :

ـ حكمة ربنا !

كان القس يريد أن يشترى بعض الهدايا الرخيصة يعود بها الى قريته ، حيث أولاده وكنيسته فى انتظاره ، يرى الميت ، فيمسك لحيته فى أسى :

ـ صحيح ، كما جاء فى الكتاب ، من التراب والى التراب نعود .

ويسمعه الرجل الواقف بجواره ، فيؤكد على كلامه .. ويجدها القس فرصته ليوضح رأيه أكثر فيكمل :

ـ حياة الانسان بخار ماء يكبر ثم يضمحل .

ـ تمام ، حزنى على من ينتظره من أحبائه .

يقطب القسيس وينصرف مترحما ، وفى ذهنه أولاده وكنيسته .

أما ابن البلد فقد كان يقص نادرته ربما للمرة المائة :

ـ يا سلام يا جدعان ، كنت سائرا وراءه بينى وبينه مسافة لا تزيد عن المتر .

وتحمر كفاه من كثرة صفق أحداهما بالأخرى ، ويقول له السامعون :

ـ قدر !

ـ كون ، ومنظمه سيدك ..

عندما لا يجيب أحد الضابط ، يمد يده فى جيوب القتيل يبحث عن بطاقته فيجدها ، ومن لونها يعرف الجميع أنها بطاقة عائلية ، تعلوا البصمصات من الدائرة الآدمية ، ويبدو الكدر على وجه الضابط وهو يقلب صفحات البطاقة .

له زوجة شابة ، وولده الأول اسمه عادل ، والثانى عباس ، والثالثة عواطف ، والرابع عزيز .. وبعد ذلك أوراق بيضاء لا أسماء فيها ..

تهتف المرأة :

ـ مسكينة زوجته ، شابة ترملت صغيرة !!

يهتف الأفندى الذى يعرفه :

ـ وأولاده ، من يعولهم ومن يعوضهم حنانه ؟ !

ثم يصرخ قائلا :

ـ يا الهى ، لمـاذا هو بالذات ؟ »

يهزه جاره :

ـ يا أستاذ اتق الله ، حكمته يا ابنى حكمته .

ـ ألم يكن من الأفضل أن يموت بدلا منه انسان عاطل أو شرير ، أو حتى مريض يعذبه المرض !

وينصرف على عجل الى موعده ..

شابان أحدهما شغوف الى معرفة سر هذه اللمة ، والآخر لا يريد أن يعرف ، فيقف مكانه فى انتظـار صاحبـه ، الذى يعود حزينا يقص الخبر متأثرا ، فيقول له صاحبه :

ـ واحد مات ، ماذا فى ذلك ؟ وكل يوم يموت آلاف الناس؟!

ـ أنت لا قلب لك ..

ـ كيف ذلك ؟ ! ولمـاذا لا تحزن على المئات الذين يموتون كل يوم فى الحروب والمجاعات ؟ !

يسكت صاحبه ، فينهال عليه :

ـ تكلم . قل لى لمـاذا يموتون ، وما ذنبهم ؟

سيدة قوية الملاحظة سمعت أسماء الأولاد ، عادل وعباس وعواطف وعزيز ، تقول لجارها مشيرة الى الميت :

ـ يبدو أنه مغرم بحرف العين ، كل أولاده تبدأ أسماؤهم بحرف العين .

يرد جارها الظريف مجاريا اياها فى قوة الملاحظة :

ـ ومات فى ميدان يبدأ اسمه بحرف العين أيضا ، العتبة .

يكاد أن يبتسم ، وتكاد أن تبتسم ، ولكنهما يخجلان ، ويرسمان على وجهيهما حزنا واضحا .

يغطى الناس الرجل بأوراق الصحف ، ويقول أحدهم فى ألم :

ـ غدا يصبح حديث الصحف .

تأتى سيارة الاسعاف ، يفسح الناس لها الطريق ، رجال الاسعاف لا يبدو عليهم أى تأثر ، هذه مهنتهم ، نقل الموتى .. ينقلونه ويضعونه فى السيارة ، وتسير وهى تدق أجراسها .. دقات رنانة ولحوحة ..

المحقق يظل يسأل ، ويسأل ، ويدون ملاحظاته ، ويشمشم هنا وهناك ، ويملأ الكثير من الورق الأبيض بالأسئلة والأجوبة ، وينتهى حيث كان فكر فى البداية ، فينهى الصفحات البيضاء التى سودها الحبر :

« الحادث قضاء وقدر » .

يخلو الميدان ، الا من الحركة العادية ..

بعد ساعة يمر عدد من الناس ، لا يلفت نظرهم منظر الدم على الأرض .. ويمر غيرهم ويرونه ولكن منظره لا يؤثر فيهم .. والذى لاحظه وسأل زميله :

ـ ترى ما سبب هذه الدماء ؟ دماء من هذه ؟ .

ـ أكيد .. دماء دجاجة ذبحت ..

اشجار الدخان .. و ((ماتسودا)) المجنون

- الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .
- الصمت الوحشى ، الحافل بالأسرار .
- شبت فى كل الأشياء النار .
- وامتد عمودا من رعب ودخان ..
- امتد ذراع الصاعقة الجبار .

ويقولون عنى أنى مجنون !!

ويقول أهل القرية : « ماتسودا ، أنت فلاح يابانى عبيط ».

ويهمس خطيب ابنتى لها : « أثر طول العمر على عقل الأب ماتسودا » !

نظرت خلفى ..

فاذا شجرة من الدخان الأبيض الكثيف ترتفع الى السماء : عمودا من الرعب ، ذراع صاعقة جبار .. خلت السماء من الهواء المتحرك ، بدأ الدخـان الأبيض يخضب بلون اللهب الأحمر ، بلدى العزيز يحترق ، فى غمضة عين يحترق ! . حملت ابنتى وأردت العودة . منعوني .. لكن : زوجي وأمى وطفلى الرضيع هناك ! . ولكنهم أصروا على منعى من العودة .. أرتفعت شجرة الدخان .. وهربت الطائرة الحديدية !!

وعـام ١٩٤٥ استوطنت هـذه القرية ــ نفس عام شجرة الدخان الخانق ــ عاملنى الفلاحون بعطف ، احترموا صمتى . عاملوا ابنتى برقة . دفنت أحزانى فى الفلاحة . أصبحت فلاحا أكثر من أهل القرية الأصليين . أصبحت ماتسودا الفـلاح ، العجوز ماتسودا .

ابنتى الحبيبة الوحيدة تكبر بسرعة ، كزهرة جميلة ، رقيقة كنسمة الربيع . أدركت ذلك عندما بدأ شـبان القرية يتهافتون عليها . جلست الساعات الطويلة أتأملهـا . ملأت على الكوخ سعادة وهناء .

*** الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .**

ــ أبى ، هل ستذهب غدا الى هيروشيما ؟

ــ نعم يا بنيتى ، فهذا موعد زيارتي الأسبوعية .

ــ تزور أقاربنا هناك ؟

ــ أقاربنا وأصدقاءنا .

ــ لمـاذا يزورونا ؟

ـ ليس بامكانهم ذلك يا زهرتى الجميلة .

ـ اذن خذنى معك ازورهم .

ـ يوما ما ستأتين معى .

قلت لخطيب ابنتى :

ـ اخترتك خطيبا لوحيدتى لأنك تقرأ الصحف .

قال بأدبه المحبب :

ـ ساحضر كل مساء أقرأ لك الجريدة .

فى المســاء الأول قرأ لي العنوان الرئيسى : « الطائـرات الأمريكية تضرب هانوى بالقنابل » .

صعقت . شجرة الدخان مرة أخرى !!

فى المساء الثانى قرأ لي : « الطائرات الأمريكية تلقى قنابل النابالم الحارقة على مدن فيتنام الشمالية » .

فى المساء الثالث خطفت منه الجريدة ، لأرى صــورة طفل فيتنامى فقد عينه اليسرى ، وشوهت الحروق نصف جســده الأيسر ، وأمه المسكينــة تحتضنه فى لوعة . كان المنظر ليس غريبا على !

فى المساء الرابع قلت لخطيب ابنتى :

ـ هل تعرف أن جسم الانسان عندما يحترق يتصــاعد منه دخان ؟؟

دهش لكنه أجاب :

ـ نعم .. قليلا ..

ـ فلو أحرقنا ربع مليون انسان ، تكونت منهم شجرة دخان هائلة ؟ !!

نظر لى بعدم فهم .

وفى المساء الخامس قرأ لى : « نبأ زيارة غواصة ذرية أمريكية لموانى اليابان » .

*** الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .**

*** الصمت الوحشى ، الحافل بالأسرار .**

فى المساء قبل أن انام قضيت وقتا أصلى ، وقتا قصيرا ، الآلهة لا تطلب صلوات طويلة . الانسان يتطلب جهدا كبيرا حتى يفهم ، يلزمه وقتا طويلا حتى يعقل . النيران على الأرض هى الجذور ، الدخان المتصاعد الى السماء هو الساق ، يزداد الدخان فتظهر الشجرة ، الشجرة الخانقة .

فى اليوم التالى قلت لخطيب ابنتى :

ـ عام ١٩٤٥ جاءت طائرة حديدية ، أحرقت مدينتى الحبيبة : هيروشيما العزيزة ، أحرقت ولدى وزوجى وأمى واصدقائى ، منهم جميعا تكونت شجرة الدخان ، لو كنت انا فى المدينة لحظتها لكنت احدى أوراقها .

شجرة الدخان الجديدة فى فيتنام بدأت جذورها تنمو ، ان لم نطفىء النيران هناك سريعا فستظهر الشجرة ، فجأة نراها ، ونحن لاهون عنها داخل بيوتنا .

قلت لابنتى :

ـ غدا كعادتى الأسبوعية ، ساتوجه الى هيروشيما ، وستأتين معى .

فرحت الزهرة الجميلة . قلت لخطيبها :

ـ وانت أيضا ستأتى معى .

قبل يدى امتنانا . قلت له :

ـ لأن العالم صغير ، يجب أن نبذل جهدنا لاطفاء جذور شجرة الدخان الجديدة !!

نظر الوالد الى مصعوقا ، تبادل النظرات مع ابنتى ، ماذا جرى للأب ماتسودا ؟ ! يبدو انه كبر فى العمر ؟ ! يقول كلاما غير مفهوم !!

※ شبت فى كل الأشياء النار .

بهرت الزهرة الجميلة وهتفت :

ـ هيروشيما كم هى رائعة وجميلة يا ابى !!

قلت :

ـ منذ اكثر من ثلاثين سنة ، وحتى عام ١٩٤٥ كانت هناك هيروشيما أخرى غير هذه ، فيها ولدت .

انشغلت عنى بهيروشيما الجديدة وبخطيبها . قلت :

ـ الا تريدين زيارة اقاربك ؟

ـ حالا الآن .

* وشبت فى كل الأشياء النار .

* وامتد عمود من رعب ودخان ..

.. امتد ذراع الصاعقة الجبار ..

دهشت الزهرة الجميلة ، وقالت محتجة :

ـ قلت سنزور أقاربنا يا أبى ، فماذا بك تحضرنا الى هذا المكان !

ـ هذا هو النصب التذكارى لربع مليون يابانى قتلوا فى ٦ اغسطس ١٩٤٥ م .

ـ وأين أقاربنا ؟ !

ـ إخوك الرضيع وأمك وجدتك ، ثلاثة أشخاص من الربع مليون انسان !

اهتزت المسكينة ، استندت على ذراع خطيبها . قلت له :

ـ اقرأ يا ولدى المكتوب على هذا النصب .

قرأ : « استريحوا فى سلام فلن نسمح بتكرار هذه الغلطة مرة أخرى » .

قلت لهما :

ـ من هذا المكان صعدت شجرة الدخان الخانق الى أعلى ، الى السماء . حاملة أرواح ربع مليون انسان ..

عادا ينظران الى بعضهما البعض مرة أخرى طلبت من ابنتى أن تكرر ما قراه خطيبها ، فقالت :

« استريحوا فى سلام ، فلن نسمح بتكرار هذه الغلطة مرة أخرى » .

ـ علينا الا نسمح بتكرار هذه الغلطة مرة أخرى .

ويقولون عنى انى مجنون ، عجوز مخرف ..

قلت لزهرتى الجميلة وخطيبها :

ـ لقد دبرت الأمر منذ أسابيع حتى يصلهم صوتى .

لم يفهما شيئا أخذتهما الى مكتب جريدة امريكية ، علمت انها واسعة الانتشار فى بلدها . قلت لمندوبها :

ـ اريد أن أنشر اعلانا فى جريدتكم وبلغتكم .

تساءل المندوب :

ـ قريب لك فقد فى أمريكا ؟؟

ـ الأمر أخطر من ذلك ، سأمليك الاعلان وأنت تترجمه الى الانجليزية .

أخذت أمليه : « انا فلاح يابانى ، أحب الأرض والانسان والطيور ، احب على الأخص الحمام وأكره العقارب ، وأكره فى الناس من يصيد الحمام ... »

قاطعتنى ابنتى :

ـ ولكن يا أبى ، من اين لك بأجر هذا الاعلان ؟ !

ـ من مال زفافك يا زهرتى الجميلة .

صرخ الخطيب :

ـ لكن ذلك سيؤجل زفافنا !!

ـ أستطيع أن أقتصد غيره فى ثلاث سنوات .

كان الاتهام هذه المرة واضحا ، نظرات الشاب قالت لى : « ماتسودا عجوز يابانى مخرف » .

قلت له :

ـ هناك فى نهاية هذا الشارع مستشفى كبير ، تحفة فى الجمال المعمارى ، لكن فى داخله ذكرى قاسية ، قسوة قلوب زارعى أشجار الدخان ، هياكل بشرية ، عشرات المشوهين ، من لم يحترق ليوضع فى النصب ، يعيش هناك .. ينتظر الموت . فقط ينتظر الموت ، فقط ينتظر الموت ..

أكملت رسالتى وختمتها : « .... فلنكره معا زارعى أشجار الدخان ولنطردهم من على الأرض » .

ثم طلبت من مندوب الجريدة أن يضع لها عنوانا : « رسالة شخصية من مورهيو ماتسودا » مواطن من اليابان .

احتج الولد :

ـ الرسالة طويلة وستأخذ مالا كثيرا !!

صرخت فى وجهه :

ـ كم ؟ ألف ين ! مائة ألف ين ؟ ربع مليون ين ؟ . مات أكثر من ربع مليون انسان !!

ويقولون عنى انى مجنون !!

عدت الى القرية ..

ليقول أهلها : « ماتسودا فلاح يابانى عبيط » !!

ويهمس خطيب ابنتى : « أثر طول العمر على عقل الأب ماتسودا » .

لم يدركوا بعد ما يقوله كهنة بوذا الأخيار : « ان حياتنا الماضية تؤثر فى حياتنا الحاضرة » .

- **الصوت يدوى ، تنفجر الأحجار .**
- **الصمت الوحشى ، الحافل بالأسرار .**
- **شبت فى كل الأشياء النار .**
- **وامتد عمود من رعب ودخان ..**

.. امتد ذراع الصاعقة الجبار .

ثم ماذا حدث ؟ ! بنى النصب الصغير ، وكتبت الكلمات القليلة !! ويقولون عنى « انى ماتسودا المجنون » .

المكان والزمان

يطن السؤال فى رأسها :

« ماذا كنت تريدين عمله ؟ ماذا كنت تريدين قوله ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ » .

واقفة وسط الفصل ، ناقرة بقلم على ذقنها ، تحاول أن تتذكر ، أن تطرد الركود عن ذهنها .

تتعب من طول الوقفة ؛ تجلس على المقعد فى مواجهة التلميذات الصغيرات ، ترمقهن فى عطف وحنان ، قطط صغيرات لطيفات ، منهمكات على كراريسهن ، تهرش تلميذة فى شعرها مفكرة ، مسألة جمع . تعض أخرى فى قلمها سارحة ، مسألة طرح . تضيق ثالثة من عينيها فى محاولة للتذكر ، مسألة ضرب . تعصر رابعة ذاكرتها ، مسألة قسمة .. كل واحدة منهن لا تدرى لماذا تفعل ذلك .. والمدرسة تحاول أن تتذكر .

يفرقع أصبع من ركن الفصل ، يتبعه مواء لذيذ :

ــ أستاذة ، أنهيت الاجابة يا أستاذة .

بخطوات مترددة تقترب قطة صغيرة ، مادة يدها بكراستها ، مركزة عينيها فى عينى مدرستها ، فى وجل وخوف تزيله ابتسامة مشجعة .

تمسك يد المدرسة بالقلم الأحمر ، تبدأ تصحح الاجابة ، تتوتر أعصاب التلميذة فى ترقب ، اللون الأحمر يخط فى الكراس ، يتوقف بعد برهة ، الحروف تتراقص فى عينى المدرسة ، الكلمات تتداخل فى ذهنها ، خدر ثقيل يتسلل الى ذهنها ، جفناها يتثاقلان ..

المواء اللذيذ يعود ليعلو فى أذنيها ، تسأل التلميذة قلقة :

ــ اجابة صحيحة يا أستاذة ؟

تبتسم الأستاذة :

ــ نعم الاجابة صحيحة .

يجرى القلم فوق الورق شاهدا على ذلك . تبتسم الطفلة فى فخر ، تعود الى مكانها ناظرة لزميلاتها فى تيه .

السؤال يعود ليطن فى رأس المدرسة ، تجاهد أن تتذكر . يخط القلم فوق « كراس تحضير الدروس » . يرسم دوائر كثيرة متداخلة .

ينشط ذهنها قليلا ..

المكان : نفس هذا الفصل .

الزمان : صباح اليوم السابق .

وقفت تلميذتها « نبيلة » بجانبها ، وكراستها فى يدها لتصحح اجابتها ..

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

الذهن مكدود ، الذاكرة مشتتة .

تطرقع اصابع التلميذات ، تدق راسها طرقات عنيفة ، يعلو مواء التاميذات ، تهتز طبلتا أذنيها فى صخب :

ـ اتممت الاجابة يا أستاذة .

ـ انا قبلها يا أستاذة .

ـ شوفى يا أستاذة .

ـ يا أستاذة ، سهير خطفت منى القلم ..

تهز المدرسة راسها فى عنف . لا تكف الأبواق عن ازعاجها . أعصابها مرهقة . أفواه البراعم الصغيرة لا تصمت ، مكبرات صوت ركزت على أذنيها .

تتحامل على نفسها ، تمسك بكراسة تحضير الدروس الكبيرة ، تتجه الى السبورة ، تكتب مسائل جديدة ، تطلب من البنات أن يحللنها ، تعود مرهقة لتجلس ، يئن المقعد تحت ثقل جسدها ، تحاول أن تفرد أطراف الكراسة المثبتة ..

سكتت الضجة .. الهدوء يسود الفصل .. ذهنها يتيقظ شيئا فشيئا ..

الزمان : اليوم السابق .

المكان : الطريق الى منزلها .

احاطت بها بعض تلميذاتها . حبا أو تملقا . طمعا فى ابتسامة منها ، أو طلبا لصفة « ممتازة » تكتبها لهن فى كراساتهن . سارت بينهن ، يدها اليمنى مشغولة بحقيبتها ، يدها اليسرى مشغولة بكراساتها ، فكرها مشغول بطفلها المريض فى المنزل . ارادت أن تسرع من خطاها ، ثقل جسمها لم يساعدها . وصلت متعبة ، وقفت أمام باب شقتها لاهثة ، مدت يدها تضغط على جرس الشقة ، لعلع رنينه داخل الشقة .. لعلع ..

يلعلع فى الفصل مواء لحوح يجذب المدرسة من أفكارها . يعود بها الى فصلها ..

تلميذة صغيرة تقف عند السبورة ، إصبعها يشير الى رقم مكتوب ، تسأل :

ـ ستة هذه يا أستاذة أم واحد ؟

ـ واحد .

يعود السكون الى الفصل مرة أخرى .. ينشط فكرها ثانية .

الزمان : اليوم السابق .

المكان : باب شقتها .

فتحت أمها الباب ، سألتها :

ـ كيف حاله ؟

ـ نـام .

ـ هل بكى كثيرا ؟

ـ بكى اليوم كله : أخيرا تعب ونام .

القت بكراسـتها وحقيبتها . هرعت الى حجرة النوم . لا تريد أن توقظه ، وضعت حنانها وحبها فى كفها ، تحسست حرارة جبهتـه ، مرتفعـة .. احتضنته ، ظلت بجواره باقى النهار ، ظلت متيقظة الى جواره الليـل كله .. لم يغمض لها جفن ، سهرت على رعايته ، أحاطته بجسدها ، خفق قلبهـا له بكل الحب ، نطقت عيناها بكل الحنان ، نظرت الى وجهـه طويلا ، خاطبته :

ـ يا حبيبى يا ولدى ، تألمت كثيرا .

تعلق الجملة فى ذهن المدرسة ، تظل ترددها وهى جالسة فى الفصل ، فى رأسـها صورة ولدها ، فى يدها القلم يرسـم الدوائر المتداخلة .

تقطع احدى التلميذات تفكيرها :

ـ اسمحى لى يا أستاذة بالخروج لأشرب .

تسمح لها .. تعود لتخاطب صورة ولدها فى ذهنها :

ـ يا حبيبى يا ولدى ، تألمت كثيرا .

تقفز الى ذهنها صورة تلميذتها « نبيلة » تتداخل مع صورة ولدها ترفع رأسها تنظر الى الصف الثالث ، مقعد نبيلة شاغر ، لم تحضر اليوم ، كانت تريد أن تقول لها كلاما معينا . أن تفعل معها شيئا ما !

تضرب جبهتها . ستار النسيان تتمزق عن ذهنها القلق ..

الزمان : صباح اليوم السابق .

المكان : الفصل .

وقفت تلميذتها « نبيلة » بجانبها ، اجاباتها خاطئة ، وبختها بقسوة شديدة ، أجهشت التلميذة بالبكاء ..

الزمان : مساء اليوم السابق .

المكان : حجرة النوم .

ولدها فى حضنها ، وجهه متألم باك ، تأملته طويلا ، تذكرت وجه نبيلة الباكى . هدهدت ولدها . حاولت أن ترفه عنه . عاهدت نفسها أن تفعل شيئا ما مع نبيلة . نظرت الى دموعه . عاهدت نفسها ، أن تقول كلاما معينا لنبيلة ، أن تطيب من خاطرها .

تهم المدرسة أن تقول وهى تضرب جبهتها : « تذكرت » .

تسمع صوت طرقات على باب الفصل ، تظنها التلميذة التى خرجت لتشرب منذ برهة ، تقول لها :

ــ ادخلى .

من عند الباب يحادثها صوت الشغالة :

ــ مديرة المدرسة تطلب حضرتك .

ــ الآن ؟

ــ نعم الآن .

تتحامل على نفسها ، تمشى تتهـادى ، أمام المديرة تقف خجلة ، تقول معتذرة :

ــ لم أكمل شهادات البنات ، ولدى كان مريضا جدا .

ترمقها المديرة بنظرة شـك . تعطيها مهلة أخيرة للغد . مطلوب شهادات التلميذات كاملة البيانات . تأمرها فى جفـاء بالعودة الى فصلها .

تعود الى مكانها أمام التلميذات ، تتأملهن فى حيرة ، يعود قلمهـا يخط فوق كراسـة تحضير الدروس ، يرسـم الدوائر المتداخلة .. تتنبه لحركة القلم فى يدها ، يبدأ من نقطة ليعود اليها ، ليته يرسم خطا مستقيما .

تتسـاءل لم رسمت هـذه الدائرة ؟ ! لكنهـا تعود الى تساؤلها القديم .. نسيت ما كادت أن تتذكره !!

تسأل نفسها مرة أخرى :

« ماذا كنت تريدين عمله ؟ ماذا كنت تريدين قوله ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ »

يطن السؤال فى راسها ...

زفــــة

اخيرا يهبط المعلم الى الشــارع ، يجد صبيه فى انتظاره امام البهت ، ممسكا برباط ثور سمين قوى ، زين بقطع قماش ذات الوان زاهية فاقعة ، وعدد من الأولاد تجمعوا حول الثور ، يقفون جميعا فى حالة تأهب بمجرد رؤيتهم له ، يهلل الصبى هاتفــا :

ــ مرحبا بمعلم المعلمين ، أجدع جزار فى المركز ونواحيه .

لا يفرح المعلم ، ويومىء لصبيه أن يبدأ ، فيتنحنح عدة مرات ويعتدل منبها على الأولاد :

ــ كما قلت لكم ، كلما هتفت أنا ، ترددون خلفى قائلين بأربعين .. مفهوم ؟

تتحرك الزفة وجهتها السلخانة ..

فى المقدمة المعلم بجسده الضخم القوى ، بجانبه صــبيه

جاذبا الثور من خلفه ، من ورائهم يسير الأولاد . يبدأ الصبى يهتف بأعلى صوته :

ـ الثور قدامك .

ـ بأربعين .

ـ سعر الكيلو .

ـ بأربعين .

ـ .. ..

يسير المعلم فى وجوم وكدر ، يختلس النظر الى المارة وهم يفحصون الثور بأعينهم ، والى النساء وهن يراقبنه من الشرفات ..

ـ كيف تركتيها تخرج يا امى ؟ !

ـ قالت ذاهبة لأمها .

ـ كان يجب عليك ان تمنعيها .

ـ بأية صفة ؟

ـ الست امى ؟

ـ امك ، لكنك كنت تدللها ، ولم يكن لى امر عليها ، اذهب واسأل امها .

يتجه الموكب الى الشارع الرئيسى . تندس بعض الكلاب بين الأرجل ، والصبى يصرخ ملوحا بعصاه الصغيرة :

ـ عند جزارة ..

ـ بأربعين .

ـ جزارة المعلم ..

ـ بأربعـــين .

ـ .. ..

الموكب يخترق طريقه وسط زحام المــارة ، مزاحما عربات الحنطور وبعض السيارات .. والعيال يتجمعون حوله، يشاركون فى الزفة بدون دعوة . والنسوة يتفحصن جســد الثور ويقسن عمره بنظرات خبيرة ..

يخفض المعلم رأسه الى الأرض الطينية تحته ، يبدو محنى الظهر رغم ضخامة جسده وقوته ، لا يكاد يشعر بما حوله ، لا يلحظ تحيات بعض المــارة له .

ـ انظرى ماذا اشتريت لك ! حلق وخاتم ، ذهب عيــار ٢٤ قيراطا ..

ـ ...... !!

ـ لا يبدو عليك الرضا يا عروستى الحلوة !

ـ الهدية لا تليق بجمالى ولا بمقام معلم المعلمين ، يد المرأة لا تصبح جميلة الا اذا زينها الذهب .

ـ غدا اشترى لك ٤ غوايش .

ـ هكذا الكلام ، الليلة ارتدى لك قميص النوم الجديد ، الأحمـر .

ـ تعجبينى ، قميص نوم أحمر فوق جسدك الأبيض ، يا صلاة النبى .. !

تلف الزفة ميدان المركز ثلاث مرات ، مزاحمين موكبا من خمس سيارات لزفة عروس ، ينشرون الملح على الثور مداعبين ، لكن المعلم لا يضحك .. تتناثر حبات الملح على وجهه فيفيق ، ويهز رأسه مومئا فى عصبية لبعض راكبى السيارات الذين يحيونه .. يلتفت الى الثور ، تغيظه الكلاب المندسة بين الأرجل. يغيظه أن الثور يهز ذيله .

ـ يا امراة ، يا امرأة ، ابنتك خرجت من المنزل وقالت لأمى انها قادمة لزيارتك ، أين هى ؟ أين هى ؟

ـ يعز على هياجك يا معلم ، اجلس .

ـ اغلقت عليك وعليها المال ، لماذا تغدران بى ؟ !

ـ بشرفك يا معلم لم أرها منذ أيام ، والا ما تركتك تلف هكذا امامى .

ـ والثور قدامك ..

ـ بأربعين ..

ـ باكر منه ..

ـ بأربعين ..

ـ غدى أولادك ..

ـ .. ..

الصبى يصرخ والأولاد من ورائه ، منغمين هتافاتهم ..

والزفة تسير مثيرة سحابة ترابية كبيرة عند الأقدام تكبر وتتسع كلما ارتفعت فى الهواء ، تزكم الأنوف وتلوث العيون .

يلتفت المعلم الى الثور ، يجده سائرا لا يلوى على شيء ومن حوله زفته ! يشعر بحنق ، يهم برفع يده الى شاربه ، لكنه يخفضها فى تخاذل .. ينظر الى الثورة ، يزداد حنقه ..

ـ معلم المعلمين تضحك عليه امرأة لا تزيد على العشرين عاما ..

ـ افعى ابنة افعى يا ولدى ، نصحتك الا تتزوجها !

ـ غدا لن أستطيع أن أرفع عينى فى عيون الناس ، سيلاحقوننى بعيون الهزء والشماتة ..

ـ والثور قدامك .

ـ بأربعين .

ـ .. ..

ـ لم يكن لها حديث الا عن القاهرة ، وهذا الرقيع يعمل هناك ، كيف لم الحظ ذلك ؟ !

ـ .. .. !! .

ـ ثور متعافى ..

ـ بأربعين ..

ـ .. ..

ـ فى الأسبوع الماضى تحولت من امرأة مشاكسة الى اخرى مطيعة منكسرة ، كيف لم ألحظ ذلك ؟ !

- .. .. !! .

- باكر منه ..

- بأربعــين ..

- .. ..

- لم تكن تقول الا حــاضر ، حالا ، أمرك يا معلم ، أنــا خادمتك يا معلم .. اللئيمة الحرباء ، كيف لم ألحظ ذلك ؟

- .. .. !! .

- وأنا كأية بهيمة ظننت ان حالهــا انصلح وانها أصبحت مولعة فى رجولتى وفحولتى !

فى الشارع الرئيسى يندس أولاد آخرون ، يشاركون فى الهتــاف متطوعين ، يسير خلف الموكب ثلاثة من المجــاذيب يتضاحكون فى بله ، وكلما اقترب الموكب من المقهى الذى يجلس اليه معظم جزارى المركز كلما علا صوت الصبى .

لا يرفع المعلم نظراته عن الثور ، يغضبه الذيل المهتز طربا ..

- الزفة جاهزة يا معلمى .

- قلت لك غر من وجهى ، سأتبعك بعد قليل .

- نعملها الآن ، بعد قليــل ستسخن الشــمس ويصــبح الشارع ولا نار جهنم .

- محروقة الزفة ، ومحروق من اشترك فيها .

- واتفرج يا جدع ..

ـ بأربعـــين ..

ـ فرجة بلاش ..

ـ بأربعـــين ..

ـ .. ..

يهتف الصبى والعيال بكل نشاط وحماس ، وهم واقفون أمام مقهى الجزارين . يدور الصبى بالثور حول نفسه عارضا سمنته وضخامته لعيونهم .

يرتفع صـــدر المعلم ويهبط فى حشرجــة ، ناظرا للثور ، تتركز نظراته على ذيله المهتز ..

ـ كيف لم الحظ ذلك وأنا جزار ؟ القطة تظل تتمســكن حتى تقترب من قطعة اللحم فتخطفها وتفر هاربة .

ـ لم تعد فائدة من الكلام ، استطيع ان ازوجك اجمــل بنات المركز ..

ـ الثور قدامك ..

ـ .. ..

ـ فعلة ابنتك هذه جعلتنى لا استحق شــاربى هــذا ، أريدها أن تعود يوما واحدا فقط ، أطلقها أنا فيه وتصبح حرة بعد ذلك ..

ـ لو أعرف مكانها لأحضرتها لك ..

ـ اما هذا ، واما أصير مضغة لأفواه الشامتين ، والذى لا يشترى يتفرج .. !

ـ والفرجة بلاش ..

ـ بأربعـين ..

ـ فرجة حلال ..

ـ بأربعـين ..

ـ .. ..

ـ أعود من سـفر يومين الى المنزل لأجـدها تركته ، ما فائدتك فى المنزل اذن ؟

ـ يا ولدى ، مطلع النهار يبشر بيوم أغبر ، أذهب الى زفتك الآن .

ـ تركتنى وهربت ، أين أذهب من عيون النـاس ، أين أذهب من ألسنتهم ؟

مغفل مغفل مغفل .

ـ ثور ثور ثور ..

يصرخ المعلم بصوت مرتعش ، وهو يسحب العصا من يد صبيه وينهال ضربا على الثور ..

يذهل الصبى ، يحاول ابعاد معلمه بين دهشـة زبائن المقهى من الجزارين . لا يسكت المعلم الا بعد أن تتكسر العصـا ، يقف لاهثا زائغ العينين محتقن الوجه . يصرخ الصبى فى العيال أن ينصرفوا ، ثم يقول :

ـ من أوله ظاهر انه يوم أغبر .

يبدأ المعلم يعود الى هدوئه ، وقد بلل العرق جسده ، يقول مرتبكا :

ـ ظننت الثور يمكن عن المسير .

يراقب الثور ، يجده يهز ذيله فى عصبية ، يكتشف أنه يفعل ذلك لابعاد الذباب ، يلاحظ قوته وضخامته ، ينظر لذيله المهتز ، يغتاظ من الذباب ، يطير الذباب تحت ضربات الذيل لكنه يعود ثانية ليضايق الجسد العملاق . يتأمل المعلم الراس الكبير ، يتبع الرباط الملفوف حوله حتى طرفه الآخر حيث يد الصبى النحيلة وهى تجذب الثور ، الصبى يسير فى حيرة وعجلة وقد مال بجسده الضئيل القصير الى الأمام ، ساحبا الثور القوى صوب السلخانة ..

يعود المعلم يراقب الذباب ، يشعر بحنق كبير ، يتأمل الذيل وهو يبعد الذباب بلا فائدة .. السلخانة على بعد خطوات . الثور مقود اليها .. المعلم يهز رأسه فى أسى ..

معلم المعلمين سيصبح مضغة لأفواه الشامتين ، والذى لا يشترى يتفرج !

ـ لا فائدة من الكلام ، اذهب الى زبائنك ..

يدخل الثور خلال باب السلخانة ، فيشعر المعلم بغصة فى حلقه ، ويبدو الأسى والعطف على وجهه ، تمتد يده تربت فوق ظهر الثور فى حنان وشفقة .

١٩٦٥

الفأر الذى لم يمت

ـ عيناك محمرتان يا أحمد ؟ !

ـ نعم ، فأنا لم أنم ليلة الأمس .

ـ أذلك بسبب خلافك مع المدير ؟

ـ أتسمى هذا خلافا ؟ ! أنها معركة ، ولن أتركه ، غدا سأكتب خطابا رسميا أطلب فيه لجنة تحقيق .

ـ يا عزيزى ، اخز الشيطان ..

ـ كيف ؟ ! وهو قد سبنى على الملأ ، أمام زميلاتى وزملائى فى المكتب !

ـ ومن أجل هذا لم تنم ليلة الأمس ؟ !

ـ السبب شىء آخر ، ولكن الذى يغيظنى هو أنا .. نعم أنا ، كيف لم أرد عليه ؟ ! كيف لم أدافع عن نفسى ؟ ! كيف وقفت

صامتا وهو يعلو بصـوته فى وجهى ؟ ! كيف ؟ ! كيف تركتـه يهيننى دون أن أرد عليه ؟ كيف ؟ ! كيف ؟ !

ـ اهدأ يا أحمد ، اهدأ .

ـ كيف ؟ ! انـا خجـل من نفسى ، لقد وقفت موقفـا مخزيـا .

ـ وما فائدة الغضب ؟ !

ـ .. ..

ـ خذ يا أحمد ، خذ هذه ، سوف تريحك .

ـ لا شكرا .. لكن .. هاتها سأدخنها .

ـ يا مسكين ، أمن أجل هذا المدير لم تنم ليلة الأمس ؟ !

ـ ليس ذلك المدير هو السبب .

ـ اذن ؟

ـ سأقص عليك الحكاية .. بالأمس استيقظت فجـأة من نومى العميق .. أتسمع ؟ أقوم من نومى العميق .. استيقظت على صوت يتحرك فى المطبخ . ظننته لصا ، وأنا أسكن وحدى كما تعلم . فقمت فزعا واتجهت الى المطبخ فى تحفز ، هناك وبعد أن أضأت النور لم أجد أحدا ، وعجبت .

ـ كانت تهيؤات طبعا !

ـ ولكننى سمعت الصوت ثانية . فجلت بناظرى فى كل مكان .. هل تدرى ماذا وجدت ؟ !

ـ شبح السيد المدير .

ـ كان فأرا صغيرا ينظر الى بوجل !

ـ وماذا فعلت معه ؟

ـ دون أن أشعر وجدت نفسى أمسك « بالشبشب » فى محاولة لقتله .. وما حدث كان عجيبا ، لقد قاومنى الفأر بشجاعة ، حتى انه وثب الى كتفى من فوق النضد فى احدى قفزاته اليائسة . هل تعرف ماذا فعلت أنا ؟ وثبت فزعا ، فازداد حنقى .

ـ احترس السيجارة ستلسعك .

ـ .. ..

ـ اذن فقد حنقت على الفأر لأنه قاوم ودافع عن نفسه ؟ !

ـ كلا ، كلا .. لقد زاد حنقى من نفسى ..

ـ وضيقت الخناق على الفأر ؟؟

ـ نعم ، حتى وقف فى احدى الأركان عاجزا ، ينظر الى وهو يلهث . ورفعت يدى بفرض قتله ، ونظرت الى عينيه ..

ـ ثم ماذا ؟ تكلم .

ـ لا أدرى بالضبط ماذا كان يدور فى داخلى لحظتها .. اذ .. اذ اننى لم أقتله .. امسكته بورقة .. وهبطت الى الشارع حيث تركته حيا ..

أشهر رسائل الحب

« سامية .. حبيبتي وخطيبتي

هذا هو يومي الأول هنا ، وهــذه هي أول رســالة أكتبها اليــك .

أنا عائد الآن من جولة عابرة بهذه المدينة ، لا بأس بها من مدينة ، الجو هنا معقول ، محتمل قد يكون ذلك لأننا مازلنــا فى فصل الشتاء ..

.. أنا مشتاق اليك والى لمسة من يديك ، تعيد لى حماستى وتدفقى .. ومن كان يصدق أن طالبا مثلى ينال الليسانس بدرجة جيد جدا ؟ ! من يصدق هذا ؟ ولكنهــا لمسات يديك ونظرات عينيك ، بل وحتى وقع قدميك وانت تهلين على .. كل ذلك دفعنى لالتهام الدروس ، والآمال العذبة تتراقص أمامى .

لم أكن اتخيل انه سيأتى اليوم ، أتوجه فيه الى محطـة سكة حديد القاهرة لأركب ذلك القطــار الرهيب ، ولتأتى تلك

اليد القاسية تدق الناقوس ، فيمرق القطار بى على شريطين كئيبين ينتهيان بى الى هنا ، حيث أكتب لك الآن .

رغم ذلك ــ رغم الألف ميل التى تفصلنى عنك ــ فان قلبى معك . اخذته منى وانت تلوحين لى بيدك مودعة .

غدا سأتوجه لاستلام عملى ، وبهذا أدخل أول يوم فى حياتى العملية . لكم انتظرنا معا هذا اليوم ، كنا نرقبه ونستعجله ، وكانت المسافة بينى وبينه يوم تعرفت عليك تزيد على العامين ، والآن اصبحت هذه المسافة يوما واحدا وأصبح يومنا المنشود هو الغد .

صدقينى يا حبيبتى ، أنا مدين لك بهذا الغد » ..

***

« لا أرى مبررا لقلقك على ، حقا ان المدينة صغيرة جدا لو قيست بالقاهرة ، الا انها نظيفة ، أما عن وقت الفراغ فاقضيه فى قراءة المجلات .

السكن ايضا ليس سيئا .. اجمل الأوقات هى التى أمضيها مع صورتك اتأملها ، ولكنها عاجزة لا تستطيع أن تلغى المسافة بينى وبينك ، عاجزة عن أن تغنينى عنك .

هل تدرين ماذا أتمنى الآن ؟ ستبتسمين ، مؤكد ستبتسمين .. أتمنى أن أكون رائد فضاء وأصعد ألى القمر ، قمرى أنا ، أنت حبيبتى ، حتى أمتع نفسى ببسمة صغيرة ترتسم على شفتيك ، بلمسة عابرة من يدى لشعرك الأسمر الناعم ، أرفع تلك الخصلة العابثة التى تأبى الا أن تقبل خدك الأيسر .

لم أكن أدرى أن أمر تعيين أرعن سيفصلنى عنك ، ويلقى بى على بعد ست عشرة ساعة ، نائيا عنك ، ليجلسونى على مكتب حقير فى العلاقات العامة .. وماذا أعمل ؟ ! أتولى الرد على رسائل الهيئات والنوادى والمدارس : شغلة تافهــة لا يؤديها متفوق ولا تعطى لانسان مثلى ..

لذلك فانى قدمت طلبا لنقلى الى القاهرة مرفأ حبى ..

ملحوظة : ارسلت خطابا الى خالى بالقاهرة ليبذل مساعيه فى سبيل نقلى » .

* * *

« .. ان لم أفتح قلبى لك فلمن اذن ؟ . البلدة أصغر واضيق من أن تحتملنى . الحر بدأ يغزو الجو . سـمعت أن المناخ فى الصيف لا يطـاق . أعتقد أن وجهى بدأ يسمر ، أصبح قاتما ، قارب لونى أن يصير مثل لون الأهـالى هنا . الأهـالى هنا لا يصلحون لشىء ، بسمر ، والعجيب أنهم مغرمون بالملابس البيضاء . الشىء يحب نقيضه رغم انه يكشفه ويفضحه ، حتى أسنانهم ناصعة البياض ..

شوقى لك يزداد ، سأحاول ان احضر الى القاهرة ..

ملحوظة : الادارة أمرت بنقلى الى عمل آخر ، ولكنه هنا وليس فى القـاهرة . أرسلت خطابا ثانيا الى خالى ليزيد من مساعيــه واتصــالاته . إنتظرينى قريبـا ، سأحضر اليك ، سأحصل على الاجازة بأية وسيلة .. » .

* * *

« ..ما أمتعه من أسبوع ، أجمل أسبوع قضيته فى حياتى ، ملامحك . ادق ملامحك نسخت هنا فى عقلى ، حفرت فى روحى .

اننى اعجب ، كيف تطلبين منى أن أحضرك الى هنا ، وهنا العذاب ولن تجدى من تصادفينه ، حتى كلامهم سريع ، سريع جدا ، يأكلون نصفه الأخير ، أسرع من أن تفهميه . لا يعرفون كلمات المجاملة . ولم أندهش عندما رأيت احدى السائحات تتفرس فى وجه أحدهم ، ثم تخرج آلة تصوير وتسجل صورته .

يا عزيزتى ..

حبى لك يمنعنى من أن احضرك هنا .

عدت لأجد الوظيفة الجديدة فى انتظارى ، أتعرفين ما هى ؟؟ « مرافق » .. اسمها هكذا .. عندما تأتى أى رحلة لمشاهدة سير العمل هنا فانى أرافقهم لأشرح لهم ما يرونه : تصورى ذلك ؟ ! يا لضياع الجهد والوقت ! ترجمان !! نعم خطيبك يعمل ترجمانا بدرجة « جيد جدا » . أصحبهم وأقول لهم : هذه ماكينة تخريم ، هذه كراكة ، وتلك رافعة ، أما ذاك فهو القلاب ، وهذا الذى أدهشكم أسماه العمال « الجبار » .

وان كانوا من الأجانب ، فنفس الكلام ولكنه يكون بالانجليزية : حجمه مثل حجم الهرم الأكبر ست عشرة مرة ، الجرانيت يكون تسعين فى المائة من مواده .. والذى أقوله اليوم أعيده غدا وأكرره بعد غد وكل يوم لدرجة اننى وجدت نفسى أقول قبل أن انام : أما عن التوربينات فهنا مكانها !! .

فكرت فى احضار شارة نحاسية ألفها حول ساعدى كأى ترجمان .

ملحوظة : ارجو أن تتصلى بخالى وتذكريه بوعده لى .

ملحوظة أخرى : ارجو ان تسالى الطبيب ان كان مستعدا لاعطائى اجازة مرضية أخرى كالسابقة » .

* * *

« .. اكتشفت وجود حمام سباحة هنا ، اداوم على الذهاب اليه ، رغم اننى لا أجيد السباحة (اسبح دائما فى الجزء غير العميق وبجوار الحافة فاطمئنى) .

أول امس رأيت حادثة عجيبة ، بينما كنت فى جولة مع بعض الزائرين ، اذ بأحد العمال ـ اسمه سيد ـ يقع على الأرض مغشيا عليه . سارعت بحمله الى ركن هادىء بمساعدة بعض العمال ، فى انتظار قدوم رجال الاسعاف ثم حاولت بذل جهودى لافاقته ، وقد سرنى فعلا انى نجحت فى ذلك .. ثم جلست بجواره وتأملت وجهه ، وكانت أول مرة أتفرس فيها فى وجه واحد من الأهالى هنا ، تأملته جليا ، واحسست باحساس غريب ، كانت ملامحه تذكرنى بملامح انسان أعرفه جيدا ، انسان رايته من قبل ، له ملامح دقيقة جميلة ، كأنما مثال عظيم دقق فى نحتها .. ثم تذكرت ، كانت ملامح سيد تشبه ملامح الفراعنة الى حد كبير . خوفو مثلا أو رمسيس ..

ابتسم لى فى عرفان جميل . عيناه نفاذتان ، ولكن فيهما طيبة صادقة . قلت له ضاحكا مهونا :

ـ قم يا خوفو ، قم ، انت الآن بخير ..

ضحك ، وضحك رفاقه ، وتركتهم وهم يضاحكونه مكررين جملتى : قم يا خوفو ، انت الآن بخير يا خوفو ..

وكانت دهشتى كبيرة فى اليوم التالى – أمس – عندما رأيته واقفا فى مكانه . يؤدى عمله كالمعتاد . هلل مرحبا بى عندما لمحنى شاكرا . فقلت له مداعبا : لماذا لم تسترح يا خوفو ؟؟

ضحكوا جميعا من قلوبهم وقال أحد العمال : لقد اسميناه « سيد خوفو » .

وظهر اليوم – قبل هذه اللحظة بساعتين – مررت على موقعه وكان يتناول غداءه . واقسم أن آكل معه – عيش وملح – وتذوقت طعم الخبز – خبزهم – ليس كخبزنا فى القاهرة، ما الذه ! كأنه خبز بالسكر !

وتحدثنا كثيرا أثناء تناول الشاى ، واكتشفت شيئا مذهلا . ان لغتهم من السهل على الإنسان أن يفهمها ، سريعة بعض الشىء ، يخيل للسامع أنهم يأكلون نصفها ، ولكنه إذا حاول أن يفهمها فسيجدها سهلة . حدثتهم عن القاهرة وصخبها وملاهيها . وهم مبهورون (لاحظى اننى لم أحدثهم عن جمال نسائها) .. وحدثونى هم عن آمالهم وأحلامهم فهزونى من الأعماق ، آمال صغيرة ، أحلام بسيطة ، ولكنها صادقة .. سيد – سيد خوفو – يحلم بمنزل صغير يتزوج فيه ويعيش . كان وجهه رائعا وهو يحدثنى ببساطة عن البنت التى تنتظره فى قريته ، والتى يضاعف جهده من أجلها ..

عندما بدأ يصفها لى سرحت عيناه الى مدى البصر ، حبيبته هناك ، فى نفس الاتجاه . كانت قريته هى قبلته وهو يصفها لى بأصفى الكلمات ، شعرها أسمر طويل ، فارعة القوام

بغمازتين : أهم ما يعجبه فيها طيبتها ، يجد عندها كل الحنان الذى يحتاج اليه (أنظرى فى المرآة وستجدين أن هذه هى صفاتك) .

ضحكت وقلت له : كأنك تصف خطيبتى ، اننى ان حاولت ان أصفها فلن أجد أبسط وأحلى مما قلت ..

غير أن الذى لا أنساه هو وجهه ، ما أروعه وهو يصف حبيبته ! ما أبدع انفعالاته !! ما أعذب رنين صوته !!

حقا يا حبيبتى ، ما أروع ذلك الذى نسميه حبا ..

ملحوظة : تصورى هذا : اسم فتاته هو « سلمى » واسم حبيبتى أنا « سامية » .. يبدآن بحرف السين ويشتركان فى الميم والياء .. » .

* * *

« .. معك حق فى تسمية خطابى السابق : بخطاب سيد خوفو ، لقد صار سيد صديقى ، وأصبحت سهراتى المفضلة معه ومع أصحابه (الجو هنا يشجع على السهر) . وسمرهم من نوع جديد ، يتحدثون دائما عن الولد ، الولد كبر ، الولد حقن اليوم لتغذيته وتقويته ، الولد شب وغاظ الأمريكان : توربينات الولد أصبحت جاهزة ، الولد سيروى المزيد من الأرض ، الولد ، الولد ..

فاذا سألت عمن يكون هذا الولد أجابوك فى دهشة : الولد الذى غلب النيل وجعله يحيد عن مساره ، السنا نرقب نموه يوما بعد يوم !

تضــورى ؟ السـد العالى ، العمـلاق الضخم الشاهق :
ولدهـم !!

وأحيانا ينطلق أحـدهم بالغنـاء ، هـكذا دون دعوة من أحد ، فقط يشعر بالرغبة فى ذلك فيفعل ، وفى الحال يصمتون ويعتدلون فى جلستهم ، وتتبدل ملامحهم فتلين . وتصفو عيونهم اقتحلم .. من يدرى ؟ ربما بالزوجـة أو الحبيبة ، بالأهـل ، بالأرض ، بمهد الطفولة .. لا ينظرون لمطربهم . يخيل اليك انهم لا يستمعون اليه . منهم من يجلس ساندا ذقنه على ركبته ، ومنهم من يغمض عينيه ، منهم من يرسل ببصره الى شىء ما ، وزميلهم يغنى (بلا موسيقى طبعا) . بصـوت مشروخ فيه رنة حزن .. لا ادرى لمـاذا ؟ فيه بحة شاكية ؟ !

ويوم انطلق سيد مغنيا كانت كلماته تشـكو البعد وتدعو للقاء الحبيب (أنا ايضا افعل ذلك ولكن بطريقتى الخاصـة ، بالورق وبالقلم وبالخطابات التى أرسـلها لك ، ولو كنت أعرف الغناء لغنيت لك مثلهم) .

الأعجب من ذلك كله اننى عندما سـألت سيد عمن حفظ عنه كلمات هذه الأغنية ، رد فى تواضع بأن : « الكلام الذى فى قلبه يضعه على لسانه ، بعد أن يلبسه اللحن الذى لم يعلمه له أحد معين » . أغانيهم تشجينى ، لم أعد أطيق سـماع أغـانى الراديو ، فقد أصبحت أفتقد فيها الصدق ..

هأنذا عدت ثانيـة الى الحديث عن سيد ، وهـذه المرة ليس عنه فقط بل عنه وعن أصحابه أيضا !!

ولكن يا عزيزتى ..

ما بيدى حيلة . الناس هنا مدهشون ، يهزمون الانســان بكرمهم ، ويأسروه باقبالهم عليه . الغريب انهم مصرون على تسميتى « نبيل المرافق » ويبدو أن هذه عادة عندهم ، سبق أن اعجبتهم طريقــة عمل احد الأجهزة فأطلقوا عليه الجبــار . واصبح هــذا اسمه ، لدرجة اننى نسيت اســمه الحقيقى ؛ ولدرجة أن الخبراء الروس انفسهم اعترفوا بالجبار اسما لهذا الجهــاز !

حدث فى بدء عملى أن سألتنى سائحة عن احدى الآلات وهل هى آلة اجنبية ؟ ويومهــا اجبتها بنعم . لو سئلت اليوم هذا السؤال لاختلفت اجابتى .

على أنهم قد يكون بامكانهم تغيير كل شىء ــ حتى مجرى النهر ــ الا أن أمرا هاما لم يتغير فى : هو حبى لك ، بل أصبح أقوى وأعمق ..

سيد يرسل لك تحياته . أقسمت له أن أبلغك ســلامه . وقد اعجب جدا بصورتك عندما رآها معى . قلت له ان الأصــل أجمل .. » .

* * *

« .. حلم جميل هذا الذى سأقصه عليك فى هذا الخطاب ، حلمت أمس بك وبى وبانسان ثالث ، ولدنا .. كان لطيفــا جذابا ، وقد أسميناه سيد .. » .

فاتح الكوبرى

وجدت نفسي أسير فى سرداب طويل معتم ، قاتم اللون خانق الرائحة . تلفت حولى باحثا عن مكان أخرج منه ، حتى المنفذ الذى دخلت منه اختفى ، سد ، وقف عليه حارس ذو قناع رهيب ، ممسكا بحربة ذات رءوس عديدة . سرت مدفوعا بقوة غريبة لأجد امامى منصة قضائية عالية ، سوداء اللون . رفعت رأسى لأعلى حتى يطاول نظرى قمتها ، فوقها كان يجلس الشيخ رضوان ، ناظرا الى من أعلى بلا انفعال . رغم جمود وجهه لمحت اتهاما فى عينيه ، اتهاما واضحا .. وكان لابد أن أدافع عن نفسي :

« يا شيخ رضوان ، يا حضرة القاضى ، أرجوك ، ارس بى على بر الأمان ، اعترف بأنى فتحت الكوبرى ، وفى غير ميعاد فتحه ، أمرونى أن أفتحه ففعلت ، هذا عملى أكل عيشى .. ولكن .. « الصمولة » لم تكن مفكوكة ، وهذا هو المهم ،

الصمولة لم تكن مفكوكة .. نعم اخذت علاوة ، ولكن ليس الذنب ذنبي ، أديت واجبي وحسب .. يا حضرة القــاضي . أرحمني ، كانوا ٥٧ تلميذا ، ماتوا ، غرقوا .. لكن مالي أنا ؟ حاكموا من أصدر الأمر ، أنا عبد المــأمور ، ولم تكن الصمولة مفكوكة .. ولم يكن قصدي أن أدوس على ذيل القطة .. » :

من جميع انحاء السرداب ، من جدرانه ، من سقفه ، من ارضه ، سمعت اصوات اناس غاضبين ، هاتفين ضدي بلا رحمة، صرخت بكل قوتي :

« ولكنهم تلاميذ اغبياء ، يريدون تغيير الكون واســقاط الملك بمظاهرات ساذجة .. » .

عادت الأصــوات وثارت ضــدي ، تلفت حولي ، في كل مكان .. أين هم ؟ ؟ أين هم ؟ ! . اصبت برعب . نظرت للشيخ رضوان : « الا تفعل شيئا » .. امسك بمطرقته ، أخذ يطرق بعنف حتى تمكن من اسكات هذه الأصوات .. ثم .. ثم بدأ يحدثني ، ولصوته صدى رهيب ، تخرج الكلمة من فمه فتدور في انحــاء السرداب من أوله الى آخره ، لتعود لي ألف كلمــة غاضبة ، تطرق أذني في وقت واحد ، بدوي رهيب مفزع :

« يا عباس ، قتلت أولاد الناس ، حكمنا عليك بالموت رميا بالرصاص » .

رجعت على أعقابي هربا ، وجدت في وجهي مجموعة من العساكر صوبوا بنادقهم الى صــدري ، نفس العســاكر الذين ســدوا الكوبري في وجه التلاميــذ ، جدران السرداب نفســه انشقت عن عيون ناقمة ، عن أفواه تريد أن تلتهمني :

« يا ملعون من كل النـاس ، يا ملعون من كل النـاس ، يا ملعون من كل الناس .. »

ـ بل انت حبيب كل الناس ، حبيب كل الناس ، يا عباس يا ولدى ، عاد الكابوس يفزعك ثانية .

ـ هذه ثالث ليلة يا أمى أحلم فيها نفس الحلم ، منذ ذلك اليوم المشئوم .

ـ الذنب ليس ذنبك ، انت نفذت الأمر فقط .

ـ ولكن الناس ، الناس فى الشارع تغيرت معاملتهم لى .

ـ عين حسود أصابتك ، سأعد لك البخور .

تخرج الأم . ويتجه عباس الى النافذة ، يلقى نظرة الى الشارع ، الى المقهى الصغير هناك . يقول لنفسه :

« هـذا هو « حسـين » المخـادع الكاذب جـالس على مقهى الشـارع ، ومن حوله أبنـاء الحى ، يتحـدث اليهم ، ويسـتمعون له فى احترام ، سرق منى الاحترام بأقاصيصـه المزيفة ، انا متأكد انه يقص عليهم الآن حكايته المقوتة عن بطولته المزعومة ، جاء الضابط وأمره بفتح الكوبرى ومظاهرة التلاميذ تسير فوقه ، ورفض هو ، وغافـل الضـابط وفك « صمولة الجهاز » خلسة ، وتحجج بأن الجهاز عطلان ، وعلى ذلك لايمكن فتح الكوبرى .. وعند ذلك يهلل الناس له ، ويغرقونه فى بحر من الثنـاء ، الأسطى حسين البطل ، الأسطى حسين الشجاع ، حسنا فعل ، حسنا أتى ، ثم يسكتون ويقتربون منه ليشتركوا فى دفئى .. وعباس ـ عباس انا ـ ماذا فعل ؟ .. يضحك حسين الخبيث ويلقى بأكذوبته الكبرى ، كان الضـابط قد يئس وكاد

أن ينصرف ، عند دخول الأسطى عباس ، فماذا فعل عباس ! ؟
ربط الصمولة ، وأدار الجهاز وفتح الكوبرى ، وغرق ٥٧ تلميذا ،
وبذلك يضعنى فى الحفرة ويبدأ النـاس فى اهالة التراب على ،
عباس الجبان ، عباس الخـائن ، عباس الذى خدعنا بطيبتـه
المزيفة ، عباس القاتل ، عباس عدو الطلبة » ..

ـ آه يا أمى .. كتموا أنفاسى ، لم أعد أطيق السير فى
الشارع وعيونهم تطاردنى ..

ـ تعال يا عباس ، هداك الله ، تعال .. خط فوق البخور
سبع مرات ، وأنا بهذه الابرة سأخز سبع وخزات ، الأولى فى
عين الشيطان حتى يبعد بوسواسه عن روحك ، والثانية فى عين
الجان حتى يتركوا جسدك فى أمان ، والثالثة فى عين الحسود ،
حسدوك يا ولدى ، ورب الكعبة حسدوك يا ولدى .

ـ والوخزات الأربع الباقية ؟؟

ـ الرابعة فى عين من يشاركك عملك ، زميلك فى العمـل
الأسطى حسين ..

ـ الغشاش المخادع اللئيم الحقود ..

ـ كرهـك منذ خطبت « فتحيـــة » .. وكان يتمناهـا
لنفسه ..

ـ سمعت أنها تريد أن تفسخ الخطوبة !

ـ لا تصدق ، أمها صديقتى ، ولن تطاوعهـا على فعل ذلك
لن توافقها أبدا ..

ــ الذى يدهشنى ما يحدث فى الحلم ، لماذا الشيخ رضوان بالذات ؟؟ لماذا هو الذى يحاكمنى ؟ !

ــ الشيخ رضوان صديقك وانت من مريديه ، اذهب اليه ، استشره حتى تطمئن ..

ــ والناس فى الشارع ، الناس فى الشارع يا أمى ؟؟

ــ سيعودون الى سابق عهدهم معك ، ويعود حبهم لك .

هذه أوهام يا أمى ، كنت بمجرد ظهورى فى الشارع يحيينى الجميع فى حب وود ، أما الآن .. فها هو محمود العجلاتى يدخل الى دكانه حينما يرانى حتى لا يرد تحيتى ، وكان منذ اربعة أيام فقط : « اهلا بالأسطى عباس ، حبيبى وحبيب كل الناس » .. وذلك الطعمجى القذر ، بالأمس رفض الرد على تحيتى واهمل يدى المدودة له ، ونسى أن هذه اليد كثيرا ما أنقذته ودفعت عنه ايجار شقته : « يا مرحبا بمن انقذنى من نوم الرصيف » .. ملعون أنت وملعون هؤلاء الجالسون على هذا المقهى ، وعلى رأسهم حسين لم أكن اعلم أن بالناس مثل هذه المقدرة على الكره ..

وتقولين يا أمى ان الناس سرعان ما ينسون ، هذه أوهام من وحى طيبتك !!

وتلك المتشحة بالسواد ، التى تنظر لى فى حقد من نافذة منزلها : يا سيدتى ابنك سقط من فوق الكوبرى لأن العساكر كانوا يطلقون على التلاميذ الرصاص ، كل الذى فعلته أنا انى فتحت الكوبرى ، تنفيذا لأمر رجل غيرى ، وجهى حقدك اليه ،

الى من أصـــدر الأمر .. فلم تكن الصمولة مفـكوكة .. ولم أقصد أن أدوس على ذيل القط .

آه يا أمى ، كل الشـارع أصبح يكرهنى ، نوافذه أصبحت عيونا حاقــدة تلعننى ، ابوابه أضحت أفواها مفتوحة تشيعنى بشتائمها .. وذلك الطفل الذى التقط الحجارة من على الأرض، وجاء يركض خلفى .. يا ولدى ماذا تقصــد ؟ .. حســنا ، هاأنت القيت بالحجر على ظهــرى ، الآن اجر الى خضــن أمك لتقبلك .. يا الهى ، يعلمون أولادهم كرهى ، لم أعد أطيق ، يرضعونهم بغضهم الأسود مذابا فى لبنهم ، لم أعد أحتمل .

ــ أين انت يا شيخ رضوان ؟ .. أين انت ؟

بين صفين من الرجــال المتمايلين على دقــات الدفوف ، يذكرون مكبرين اسم الله ، يسير عباس مخترقا حلقة الذكر ، حتى نهايتهــا ، حيث يجلس الشيخ رضــوان بين مجموعة من الشــيوخ يفيض هيبــة وجــلالا ، يلثم عبــاس يده فيسحبها مستغفرا ربه .

ــ يا فضيلة الشيخ رضوان ، لثالث ليلة وأنا أحلم بك . وفى كل مرة تحكم فيها باعدامى ، لمــاذا ؟

ــ يا عباس يا ولدى ، اهدأ ، اجلس ..

ــ يا شيخ رضــوان أرجوك ، ارس بى على بر الأمان ، اعترف بأنى فتحت الكوبرى ، أمرونى أن أفتحه ففعلت ، هــذا عملى ، اكل عيشى يا سيدى الشيخ ، ولكن الصمولة لم تكن مفكوكة ، وهذا هو المهم ، والقط هو الذى نام فى طريقى فدست على ذيله .. وفى ذلك المساء المشئوم ...

يسكت فجأة فى ضيق . يشيح بيده فى ضيق منزعجا من صوت الدفوف المرتفع . يصرخ يعلو بصوته على طرقاتها :

ـ فى مساء ذلك اليوم المشئوم .. عدت الى الشارع متوجها الى منزلى ووجدت ثلاثة منازل تنبعث منها أصوات صراخ وعويل ونواح مؤلم ، وعلمت أن من ضحايا المظاهرة ثلاثة تلاميذ من شارعنا ، لم أنم ليلتها .. وحلمت بقطى وذيله .. وفى الصباح عندما ذهبت للسير فى الجنازة ، قالوا عنى « يقتل القتيل ويسير فى جنازته » .. مع أنى نفذت الأمر فقط ، ولم تكن الصمولة كما يزعم حسين الشرير مفكوكة ..

يحاول الشيخ رضوان تهدئته ، ويفسر له الآيات التى تتحدث عن الثواب والعقاب ، وأخيرا يقول له :

ـ يا عباس اسأل ضميرك أولا ، المهم هى راحة الضمير اسأل ضميرك أولا ..

***

ـ يا أمى ، يا أمى ، حتى خطيبتى تخلت عنى ؟ ..

ـ لماذا لم تذهب الى الشيخ رضوان ؟

ـ ذهبت ، ولم يكن هناك جدوى من زيارته ، عجز الشيخ أن يفتينى بشىء ، وراغ منى فى الاجابة ، وهل قصدته ليقول لى : اسأل ضميرك ضميرك ؟ .. مستريح أيها الشيخ .. ولكن الناس هم سبب عذابى ، وبالتحديد عيونهم ، خلق الله عيون الناس لتعذبنى ، لتسألنى : أصحيح أنا عباس فاتح الكوبرى ؟

أصحيح أن الصمولة كانت مفكوكة ؟ .. أما عن ضميرى فهو مستريح ، أليس كذلك يا أمى ؟ .. أمرونى فنفذت الأمر .. لماذا لا يوجهون لعناتهم لذلك الرجل الذى أصدر الأمر ؟ .. لماذا لا يتوجهون بها الى رئيس البوليس السياسى والى الملك ؟

ـ سنبحث لنا عن مكان فى غير هذا الشارع ، ونتركهم .

ـ الى أين ؟ ! والناس فى كل شارع عرفوا بحكايتى ؟

ـ أنت هكذا دائما ، تعمل من الحبة قبة ، يوم دست بقدمك سهوا على ذيل القطة فاشتريت لها كوبا من اللبن حتى تعوضها عن ألمها ، وظللت أسبوعا كاملا كلما رأيتها تربت على ظهرها . قائلا لها : سامحينى يا قطتى ، سامحينى يا صغيرتى .

ـ وهربت القطة من المنزل فى اليوم الثامن .

ـ يا ولدى ، لا تيأس من رحمة الله ، غدا يعود كل شىء الى سابق عهده ..

يأتى صوت من الشارع ينادى عباس ، فينظر من النافذة ليجد الأسطى محمود العجلاتى يقول له :

ـ لماذا لم تعد تحضر الى المقهى كسالف عهدك يا أسطى عباس ؟ تعال . تعال يا رجل نتسامر مع أهل الشارع ، انهم جميعا فى انتظارك ..

يفرح عباس ، ويكاد يطير قلب الأم من غبطته ، ويهبط ويتوجه الى المقهى ، انه ملىء بأهل الشارع ، زبائنه أكثر من أى يوم آخر ، وجميعهم ينظرون له ، يسمع أصواتا جامدة ترحب بمقدمه . ويجلس فى المقعد الوحيد الخالى ، وسط

الجالسين ، أصبح مركزا لدائرة من رجال الشارع ، يقتربون منه رويدا رويدا ، يبتسم لهم فى تزلف .. لكن مقاعدهم تتزحزح لتضيق دائرتهم ..

يقدم له أحدهم الجريدة المسائية ، ويشير الى عنوانها الكبير :

« اغتيال رئيس البوليس السياسى — القاتل مجهول — جائزة مالية كبيرة لمن يرشد عن القاتل » .

تموت ابتسامة عباس ، تميد به الأرض .. من أجل هذا اذن دعوتمونى ؟ .. من أجل هذا التففتم حولى الآن .. أكثر من خمسين رجلا ، بما يزيد عن مائة عين شامتة تتطلع الى !

ينظر حوله ، هناك فم لا بل اثنان ، بل عشرة ، بل مائة .. عدد كبير من الأفواه فتحت فى وقت واحد ، لتخرج منها عبارة واحدة : « الذى أصدر الأمر قتل ، بقى من نفذه » .

يفر الدم هاربا من وجهه ، يهب مزعورا، يزيح الناس من طريقه :

— لن تنالوا منى ، سأفضحكم يا كلاب، وسترون ما أنا فاعل . سأشكركم الى الملك .

يتوجه الى دار المحافظة . يدخلونه على الفور الى مدير الأمن . يستقبله بالترحاب ، ويهنىء فيه شجاعته الأدبية .. ثم يسأله ..

— هل حقا تعرف القاتل ؟ ..

ـ نعم أعرفهم ، فقط أطلب الحماية ..

ـ عصابة منظمة اذن ، هذا ما توقعنه ، كم عددهم ؟ ومن هم ؟ .. ثق اننا ستوفر لك الحراسة الكافية .

ـ الأسطى حسين ، ومحمود العجلاتى ، والطعمجى ، وصاحب المقهى ، وصبيه ، واقارب السبعة وخمسين تلميذا وكل الناس ، حتى الأطفال حتى خطيبتى .. ارجوك ان تحمينى قتلوا الآمر ، والدور الآن على من نفذ الأمر ، على أنا ، عباس فاتح الكوبرى .. هكذا قالوا لى .. احمنى ارجوك ..

ينفجر غضب الضابط .. ويطرده .

يعود الى الشارع ، المقهى مليء بالناس ، ويقرأ على الحائط فى كل مكان : « الموت لقاتلى الطلبة » .. يقول لنفسه : يجب أن اقنعهم ببراءتى ، يجب أن يفهموا أننى لست قاتلا ، لست خائنا ..

يتقدم الى المقهى . يواجه الجالسين . يملأ صدره بالهواء فتتسع فتحتا انفه ، ثم يرفع صوته :

ـ يا ناس يا خلق الله ، افهمونى ، فتحت الكوبرى ، هذا عملى ، أكل عيشى .. ولم أدس على ذيل القط برغبتى ، كما زعم حسين لكم ..

يلمح زبائن المقهى فى عينيه بريق جنون ، فيبدءون فى الانصراف .. ويستمر فى دفاعه عن نفسه ، وقد وقف فوق أحد المقاعد حتى ينصرف كل الزبائن ، ولم يعد أمامه الا المقاعد الخالية ، وهو مستمر فى دفاعه ، ولا يسكت الا لفترة يسترد

فيها أنفاسه اللاهثة ، ثم يتابع حديثــه فى اصرار الى المقــاعد الخاليــة :

ــ ألم اقل لكم ؟ ! لمــاذا تصدر عنكم أصوات الاستنكار ؟! لمــاذا أسمعكم تهمهمون فى أذنى بريبة ؟ لمــاذا تزومون فى وجهى أنا عباس البرىء ؟ الا تصدقوننى ؟ لم تكن الصمولة مفكوكة .

ينكس راســه لفترة ، والحزن مرتسم على وجهــه ، فجأة يملؤه نشاط حماسى ، فيتقدم من المقاعد ويبدأ فى رصها فى صف واحد طويل ، مكونا منها ما يشبه الكوبرى ، ويتراجع عدة خطوات يراقب ما فعله ، يبدو عليه الرضــا ، فى ثوان ينقلب الى انســان صــارم ، يصرخ وهو يشــيح بيده وعينــاه على كوبرى المقاعد :

ــ لا ، لا يا حضرة الضابط ، لن أفتح الكوبرى والتلاميذ من فوقه ، لن أفتحــه ، أعبروا يا أولاد ، اعبروا فى ســلام آمنين ، أعبروا بلا خوف الى بر الأمان ، هيا يا كتاكيت هيا .. قلت لك لن أفتحه ، لن أفتحه ، الا تفهم ما أقول ؟ ! ألف مرة قلت لك : لن أفتحه والتلاميذ من فوقه ، ألف مرة قلت لك هذا .. لن أفتحه .. أنا لا أخافك ولا أخاف الملك .

يهتز جسده . يدفن رأسه فى كفيه . يتساقط راكعــا ، وكل جسده يبكى :

ــ نعم الصمولة كانت مفــكوكة .. كانت مفــكوكة .. مفكوكة ..

اللحظة الطويلة

هناك بجانب المذياع جلست فوق الأريكة ، تسند رأسها فوق كفها ، شاردة بفكرها ، ساهمة نظراتها الى الأرض ، لم تكن تنظر الى شيء معين ، بل كانت نظراتها تائهة قلقة ، تنظر الى كل شيء دون أن تعى أى شيء ، فكل شيء فقد معناه .

مثل عينيها كان فكرها ، لم تكن تفكر فى شيء معين ، بل كانت تفكر فى أشياء كثيرة عجيبة ، غير مترابطة ، تربطها صفة واحدة هى القلق والحزن ..

كانت تنظر الى السجادة ، ثم تقول لنفسها غدا سأجعل الخادمة تنفضها ، ثم تتحول أنظارها الى القطة النائمة فى استرخاء فى ركن الحجرة ، فيرتسم على وجهها مشروع ابتسامة راضية ، سرعان ما تختفى .. كانت غير راغبة فى الابتسام ، شعور غريب بالذنب جعلها تستكثر على نفسها أن تضحك أو أن تشعر بالسعادة .

تنهدت ملء رئتيها ، ثم تمتمت :

ــ اللهم الحمد لك ، أنا راضية بحكمك ، وطالبة الصبر منك ، الصبر ياربى الصبر ..

تعود فتسهم بعينيها مرة أخرى الى أرض الحجرة ، ثم ترتفع بنظراتها الى الحائط تمسحه بنظرات ملساء مبهمة لا معنى لها ، لا تتوقف عند شىء بل تنزلق على الحائط ، دون أن تهتم بما عليه أو بما هو موجود بجانبه ..

ولكن ما أن وصلت نظراتها الى تلك الصــورة المعلقــة على الحائط حتى تسمرت مكانها ، وكأن مغناطيسا جذبها . لم تعد هذه النظرات ملســاء ، بل أصبحت لزجة ، لزجــة جدا ، فالتصقت بهذه الصورة ، ولم تعد راغبــة فى أن تبتعد عنها ، وأضحت واعية غير مبهمة ، حانية حاوية كل عطف ، كل حنان وكل حب ..

وضيقت « الست خديجة » من عينيها ، متمنية ان تجعل من نظراتها أيادى عطوفة تربت على هذه الصورة وتداعبها .

ثم تنهدت .. وسرح فكرها ، وشرد ذهنها .

هناك يا خديجة بين هذا الاطار ، وفى هذه الصورة جزء من حياتك ، ونسمة من ربيعك .. هنـــاك يا خديجــة حيث تقفين باسمة متفائلة ، سعيدة بطرحتك وبملابسك البيضاء المسترسلة الطويلة ، وبيدك منــديل أبيض اللون هو الآخر كل شىء فيك أبيض ، وكل جزء فيك يضحك ، مثل قلبك الذى كان يرقص طربا على ايقاع دقاته السريعة المتتابعة ..

ثم هذه الوردة المثبتة فى عروة حلته ، أليست بيضاء هى الأخرى ؟ انه « حسين » زوجك وزميل العمر كله ، يقف بجوارك، ترتسم على وجهه جدية مصطنعة ، لم تستطع أن تخفى فرحته الطاغية ، لقد كان يحب الورد الأبيض ..

ايه يا خديجة .. انها أيام حلوة لن تعود ، أيام جميلة تعيشين على ذكراها ، تجترين سعادتها كلما قسا عليك الزمن كانت حياتكما معا حياة بسيطة غير معقدة ، مرت هادئة سهلة طبعا لم تتزوجا عن حب .. ولكنه ـ الحب ـ جاء بمرور الوقت وبالعشرة ، حسين والحق يقال رجل ولا كل الرجال يا خديجة الله يرحمه ، كان يخاف عليك وكان رغم ما يبدو عليه من تجهم ومن قسوة كثيرا ما يدللك ويناديك « خديجة يا روح حسونة »..

انت أيضا كنت تحبينه ، وكثيرا ما سهرت طوال الليل اذا تأخر خارج المنزل ، لا يهدأ لك بال ولا يغمض لك جفن حتى تسمعى صرير مفتاحه بباب المنزل ، عندئذ كنت تنهضين لتستقبليه بابتسامة حلوة طيبة تنسينه همومه وتلهينه عن متاعبه .

صحيح حدث بينكما بعض الخلاف الذى أدى الى شجار ، ولكنك .. ولكن انتظرى يا خديجة . انتظرى . ان الصورة منحرفة بعض الشىء فى تعليقها .

دققت « الست خديجة » النظر الى الصورة لتتأكد ان كانت منحرفة فى وضعها أم أن عينيها خدعتاها ، ولما تأكدت من صحة ما رأت تحاملت على نفسها وقامت متجهة ناحية الحائط ، وكالعادة كلما سارت سارعت القطة لتتمسح فى قدميها .. بعد

أن أصلحت من وضع الصورة ومن تنظيفها من بعض الغبار العالق بها ، عادت الى مكانهـا بجـانب المذياع الذى كان مازال يذيع الأغـانى .

لوحت بيدها دلالة على الملل .. أف ، الا تنتهى هذه الأغانى؟ ولمـاذا لا يذيعون أغنية « ياللى زرعتوا البرتقال » .. لقد كان يحبها حسين ، الله يرحمه ويجعله من أهل اليمين ..

اليمين ! ؟ اليمين يا خديجة ، كان يقول لك دائما انك ذراعه اليمنى ، وانت الآن من بعده أصبحت فعلا ذراعه اليمنى . ذراع بدون جسد . هدك التعب ، وهزمك المرض ، وتعبت أعصابك . لم تكونى هكذا أبدا فى أى يوم ، ففى كل شجار نشب بين حسين وبينك كنت تصبرين عليه حتى يهدأ ثم تعاتبينـه وسلاحك فى ذلك ابتسامتك اللطيفة ، فيتقهقر سريعـا ، ويعتذر لك قائلا وهو يقبل رأسك : « انت ست كاملة يا خديجـة ، حلوة وكاملة وعاقلة » .

مدت يدها بالمنديل تمسح دموع الذكريات ، وهى لم تكن تبكى زوجها فقط ، ولم تكن تبكى أيامها السعيدة فحسب ، شىء آخر هو الذى كان شغلها الشاغل فقد عادت تنظر الى زوجهـا فى الصورة ، بأسى وبألم ، وأخذت تحدثه :

ـ عاقلة ؟ عاقلة ؟ لست عاقلة يا حسين ، لست كذلك ، من بعدك لم أعد عاقلة أبدا ، هل تصدق ؟ هل تصدق هـذا ؟ ابنى يا حسين ، ابننا .. لقد تركته يسافر وهو غاضب منى ، ترك المنزل بعد أن جذب الباب وراءه بعنف ، تماما كما كنت تفعل أنت كلما أثارك شىء ، ولا أدرى كيف طاوعنى هذا الملعون

قلبى فى أن أدعه ــ ولدى حبيبى ــ يسافر الى اليمن ، الى الحرب ، وهو غاضب منى .. وأنا لست متأكدة ان كان سيعود لى أم سأحرم الى الأبد من لقائه ؟ .

وهنا تنبهت الى صوت المذياع .. لقد كفت الأغانى . المذيع يتكلم : « هنا القاهرة . نستمع الآن الى أغنية .. » .. فما كان من « الست خديجة » الا أن قالت غيظا تحدث نفسها : « أغنية ؟ ! ينتهون من أغنية ليذيعوا أخرى ! » .

ثم تململت فى وضعها ، ومرة أخرى مسحت دموعها وبدأت تسترد أنفاسها . نظرت الى الأرض فرأت القطة نائمة :

ــ بس بس ..

وأسرعت القطة تثب الى الأريكة لتنام فى حجر سيدتها . فهو دافىء لين .. والدنيا برد ، برد قارس ، جعل الست خديجة تفكر فى ولدها مرة أخرى ..

ايه يا خديجة ، ترى ماذا يفعل ابنك الآن فى هذا الشتاء الشديد البرودة ، وفى العراء ؟ ترى ماذا يفعل فى برد يناير ؟ هذا اذا كان ما يزال .. ولكن لا .. انه حى ، باذن الله حى ، قلبى يقول لى ذلك .. يارب أنت عالم بالحال احفظه لى ، لم تعد لى فى الحياة الا أيام معدودة ، فدعنى أمت قريرة العين ، راضية بابنى فرحة به يارب ..

تنهض من مكانها ، وتمد يدها الى سجادة الصلاة . بعد أن تنتهى من صلاتها تدعو لابنها بطول البقاء وبالسلامة ، وتعود الى مكانها بجوار المذياع ، انه مازال يغنى ، يغنى ، يغنى . مدت

يدها لتسكته ، ولكنها عادت فسحبتها ، أن هـذا المطرب الذى يغنى يحبه ابنها ، وستسممه من أجل خاطره ، ابنها سبب عذابها وسر ألمهـا .

لقد جاءها ابنها « سامى » قبل سفره يخبرها بأنه طلب من قائده أن يدرج اسمه مع المتطوعين ليحـارب فى اليمن ، ولم تحاول أن تناقشـه فيما فعل ، فهى تعلم أنه مثل أبيـه ، ان اقتنع بشىء يفعله مهما كانت العاقبة ومهما كانت المشـاق . ثم أخبرها « سامى » بأنه سيطلب يد « سعاد » بنت الجيران قبل أن يسافر حتى يضمنها عروسا له فهو يحبها .. ولكن الست خديجة اعلنت رفضها لهذه الخطوبة ، وسخطها على هذا الحب ، فهى ترجو لابنها بنت خالته زوجا له ، فبنت أختهـا مخطوبة له وهو طفل ، مقسومة له من زمان .. فكهذا قدرت الست خديجة ، وهكذا اتفقت مع أختها .

حاول سامى اقناعها بكل الطرق بأنه هو الذى سيتزوج وليست هى ــ أمه ــ وأنه عليه هو وحده أن يختـار زوجتـه وشريكة حياته التى يحبها ، ثم حاول أن يذكرها بأن الزواج فى عام ١٩٦٣ ليس كالزواج على أيامها هى يوم أن تمت خطوبتها وتزوجت ولم تر زوجها الا ليلة الزفاف ! ..

ولمـا لم تقتنع قال لها بأنه صمم فعلا على أن يخطب سعاد وهو انمـا أخبرها من باب الأدب ، وحتى تكون على علم بمـا سيحدث .. فما كان من الست خديجة ــ بعد أن سمعت هـذا الكلام ــ الا أن أقسمت برحمة زوجها وهددته بأنه ان فعل هذا فلا هو ابنها ولا تعرفه .

وكانت هى الكلمة الفاصلة . فقد وقف سامى مأخوذا لحظة ثم خرج ولم يعد حتى هذه اللحظة ، حيث الست خديجة جالسة بجانب المذياع ، وحيدة الا من قطتها ومن شجونها واحزانها ، تاركة نفسها للذكريات تعبث بها كما تشاء ، مستسلمة لتأنيب الضمير يحطم اعصابها ويمزق راحتها ، انها الآن تنتظر شيئا ما .. تتوقع أن تسمع شيئا معينا من المذياع .. شيئا فيه ومضة من الأمل ..

الأغنية تنتهى الآن .. والمذيع يتكلم « هنا القاهرة » أيها المواطنون ، اليكم الآن رسالة جنودنا فى اليمن ... »

اخيرا .. اخيرا يا خديجة ، هذا ما كنت تنتظرينه .

واصبحت كل حواسها آذانا مصغية ، والمذيع مازال يتكلم : « اليكم بعض رسائل جنودنا الأبطال الذين يحاربون مع اخوانهم اليمنيين ضد الرجعية وضد الطغاة » . ثم بدأت الرسائل تتوالى ، كل جندى يقول كلمة بصوته تذاع له فى المذياع حتى يسمعه أهله فيطمئنوا عليه ، والست خديجة تمنى نفسها بسماع صوت ابنها « سامى » اليوم . كل ليلة تستمع الى هذا البرنامج ، وكل ليلة يتكلم كثير من الجنود فتنام أمهاتهم قريرات العيون .. الا هى ، فحتى هذه اللحظة لم تكن قد سمعت صوت ابنها ..

وتستمع الى الراديو . أن الجنود يتكلمون واحدا وراء الاخر :

« انا نقيب محمد عمار من محافظة المنوفية ، أهدى سلامى الى ... »

ليس ابنك يا خديجة ، ليس ابنك ، لابد انه التالى :

« أنا عريف فاروق صادق من محافظة المنيا ، سـلامى الى والدى العزيز واخوتى و ... »

ولا هذا ، ليس هذه المرة أيضـا يا خديجة ، اصبرى ، الصبر طيب ، فربما يكون هو الجندى التالى :

« ... مهندس عبد السلام النقيب ، الى زوجتى العزيزة أهـدى ... »

لم تحتمل « الست خديجة » الانتظار يعذبها .. بكت ، بكت قائلة :

ـ أين أنت يا سـامى ؟ أين أنت ؟ أين صـوتك ؟ لمـاذا لا تتكلم أريد أن أسمع صوتك ؟ لا أطلب أكثر من هذا ..

وجاء صوت المذياع ، ولم يكن الصوت هو صوت ولدها .. وتوالت الأصوات ، أسماء كثيرة ، لم يكن بينها اسم « سـامى حسين » ابنها .. حتى كادت تيأس ، فمدت قدمها تنوى القيام ، ولكن ساقها تسمرت فى منتصف المسافة بين الأريكة والأرض .. هذا الصوت تعرفه جيدا ، هـذا الصوت الذى تهـادى الى أذنيها الآن خلال المذياع ، إنه الموسيقى تعزف ؛ البلابل تغرد ؛ الملائكة تنشد :

« أنا سامى حسين ... »

حبيبى يا ولدى ، وأخيرا ؛ هل أنـا فى حلم ؟ تكلم يا روحى، أنا أمك ؛ إستمع اليك ، أمك التى تحبك والتى تعيش من أجلك، قل أى‌شىء فكل كلمـة منك حلوة على أذنى ، منعشة لحواسى مريحة لقلبى ..

ثم مدت أذنيها أكثر مقتربة ناحية المذياع ، وسمعت ..

« .. جندى مؤهلات بفرقة الصاعقة .. أنا بخير والحمد لله » .

ومن بين انفعالات متباينة ، من بين القلق والترقب والرجاء والخوف ظهر انفعال واضح ارتسم على وجه الست خديجة ، انفعال الراحة والاطمئنان ..

نعم يا حبيبى ، الحمد لله ، الحمد لله ألف حمد وألف شكر ، غدا ان شاء الله ، غدا سأوقد عشر شمعات لأم هاشم من أجلك يا ضنايا .. ولكن ، أليس عندك أى كلام لأمك ؟ ! .

« .. سلامى الى الأهل والأقرباء .. »

هكذا يا ولدى ، الأهل والأقرباء وتتناسى أمك ؟ ! اذن فأنت لم تزل غاضبا منى ، حقك على يا ولدى ، عند عودتك سأقبل راسك متأسفة لتسامحنى ..

« .. وأرسل أحر أشواقى الى ... »

الى من يا سامى ؟ ! الى من ؟ ! قل .. لماذا تسكت ؟ ! قل الى من ؟ ! لى أنا أمك ؟ ! أم الى الأخرى بنت الجيران ؟ ! قل ..

وحبست أنفاسها حتى تلاحظ النبرات .. وجاءها صوت ابنها وكان مخنوقا بالعبرات :

« ... أمى الحبيبة ... »

تراخت أعصابها .. الحمد لله ، ألف سلام لك يا روحى أنت يا ضنايا .. يا عقلى . ثم عادت تستمع ..

« ... وارجو يا أمى أن تسامحينى والا تكونى غاضبة منى ... »

بكت ارتياحا وكأن كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صدرها ، بكت لكنها تذكرت ان ولدها لم ينته فعادت تحبس أنفاسها قائلة : مسامحاك يا حبيبى ، مسامحاك من كل قلبى ..

« ... كما أهدى سلامى الى ... »

وهنا جمدت ملامحها ، اذن فلا فائدة ، لا فائدة من كلامها معه ، لقد قال ابنها : « ... الى خطيبتى سعاد ... وأهدى ... »

وصمتت برهة ، ثم بدأت تحدث نفسها مرة أخرى ، موجهة الكلام لصورة ابنها فى خيالها : اذن فأنت مصمم يا سامى على خطوبتك لسعاد بنت الجيران ؟ مبروك ، مبروك يا حبيبى ..

وفى لحظة كانت شعلة من المرح والسعادة حتى انها نسيت أمراضها ، واخذت تمسح بيدها فى رفق وحنان فوق ظهر القطة ، بابتسامة عريضة على الشفتين وفرحة عارمة فى القلب :

– خلاص يا بس بس .. غدا باذن الله اذهب الى والد سعاد ، اخطب ابنته سعاد لابنى سامى ، وان شاء الله يعيشان فى تبات رنبات ويخلفان « صبيان وبنات » ..

تذكرت بنت أختها ، فتنهدت قائلة :

– كل شىء قسمة ونصيب ، كبدى يا بنتى !!

كتب للمؤلف

١	ـ فوستوك يصل الى القمر ـ قصص	١٩٦٧
٢	ـ خمس جرائد لم تقرأ ـ قصص	١٩٧٠
٣	ـ الأيام التالية ـ قصص	١٩٧٢
٤	ـ دوائر عدم الامكان ـ رواية ـ طبعة أولى	١٩٧٢
	طبعة ثانية	١٩٧٥
	طبعة ثالثة	١٩٨٦
٥	ـ أبناء الصمت ـ رواية ـ طبعة أولى	١٩٧٤
	طبعة ثانية	١٩٨٤
٦	ـ غرائب الملوك ودسائس البنوك (حكايات حول قناة السويس)	١٩٧٦
٧	ـ الهؤلاء ـ رواية ـ طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٣
٨	ـ الوليف ـ قصص	١٩٧٨

٩ ـ غرفة المصادفة الأرضية ـ روايـة ١٩٧٨

١٠ ـ مغامرات عجيبة ـ رواية للأولاد والبنات ١٩٨٠

١١ ـ كشك الموسيقى ـ رواية للأولاد والبنات ١٩٨٠

١٢ ـ حنـان ـ روايـة ١٩٨١

١٣ ـ ريم تصبغ شعرها ـ رواية ١٩٨٣

١٤ ـ عذراء الغروب ـ روايـة ١٩٨٦

١٥ ـ الحادثة التي جرت ـ قصص ١٩٨٧

١٦ ـ تغريبة بني حتحوت الى بلاد الشـمال ـ روايـة ١٩٨٨

١٧ ـ حكاية ريم الجميلة ـ روايـة ١٩٩١

١٨ ـ الأعمال الكاملة (١) تشـمل المجموعـات رقم ٨ ، ٣ ، ٢ ، ١ من هذا الفهرس ١٩٩٢

الفهــرس

● الوليف :

● **فوستوك يصل الى القمر :**



يشتمل المجلد الأول من الأعمال الكاملة للكاتب مجيد
طوبيا على اربعين قصة مصرية كتبت خلال الفترة من
١٩٦٠ ـ ١٩٧٨ م ، وهى فترة حفلت بتطورات
وسياسية هائلة وشهدت الاهتمام بحقوق
الفضاء .
ولقد انعكست هذه التطورات على قصص
خلال نسيج قصصى يحفل المرحة للمصريين
وتراثهم كما يتميز مع إيقاع
وتدفقه فى حيث ولد المؤلف على
ضفافه بمدينة
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب